فيليب يانسى

أين الله فى وقت الألم؟

ترجمة: سليم إسكندر حنا

دليل التعزية والشفاء لتحمُّل المآسي

القاهرة - مصر

٢٠١٠

مكتبة دار الكلمة
LOGOS
نشر - توزيع
لدينا حلم

يُسعدنا أن نسمع منك. رجاءً أرسل تعليقاتك حول هذا الكتاب والتي ستنال كل عناية على info@el-kalema.com شكرًا لك.

مكتبة دار الكلمة Logos
☎ ٠٢٠٢٥٧٩٨٤١٤ ٠٢٠١٦١٣٧٣٢٩٨
٠٢٠١٨٦٥٤٨٣٨٨ ٠٢٠١٨٢٤٥٦٦٤٤
sales@el-kalema.com www.el-kalema.com

Originally published in the U.S.A. under the title: **Where Is God When It Hurts?** Copyright © **1977, 1990 by Philip Yancey** Translation copyright © [2009] **By 1977, 1990 by Philip Yancey** Translated by [Sieleim Eskander]
Published by permission of Zondervan, Grand Rapids, Michigan

الطبعة الأولى ٢٠١٠

الطباعة والتنضيد: دار يوسف كمال للطباعة
☎ ٠٢ ٢٤٨٢٧٠٧٤

الفهرسة بدار الكتب المصرية
يانسي، فيليب.
أين الله في وقت الألم؟/ فيليب يانسي؛ ترجمة: سليم اسكندر حنا.- ط١ - القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩
٢١٧ ص؛ ٢٢ سم
تدمك ٧ ١٧٤ ٣٨٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١- التأملات (المسيحية)
أ- حنا، سليم اسكندر. (مترجم) ب- العنوان
٢٧٤,٣

رقم الإيداع : ١٥٩٤٤ / ٢٠٠٩
ISBN :978 - 977- 384 -174-7

المحتويات

مقدمة المترجم

يتناول الكاتب فيليب يانسي موضوعاً روحياً يمسُّ جميع البشر، ومع ذلك يستخدم أسلوباً أدبياً راقياً ولغة رفيعة مهذّبة. ونقرأ في هذا الكتاب أفكاراً جديدة وجريئة وعملية تستند إلى كلمة الله. ولكنه أيضاً يتناول الأفكار المتعارف عليها والمتكررة التي نسمعها في العظات العامة أو الزيارات الخاصة للمرضى. ويلفت أنظارنا لأخطاء نرتكبها دون قصد منا، أوبسبب عدم معرفتنا الكافية لكلمة الله، أو تأثرنا بما نراه على القنوات المسيحية التي تتحدث عن معجزات الشفاء. وقد تضر مثل هذه الأفكار الذين يتألمون. لذلك فهو يصحح أفكارنا من واقع معاشرته الشخصية للمتألمين والمرضى، أو من خلال العديد من الخطابات التي تصله منهم.

أسلوب فيليب يانسي يشعرك بالود والصداقة والتعاطف مع المرضى، وكأنك معه في زيارته لهم. وهي ليست قصصًا لمرضى عاديين، بل لمرضى يعانون من أمراض مستعصية أو من عجز كامل. وهو بذلك يثير لديك الشوق لمواصلة القصة مهما طالت لكي تعرف ما حدث لهم في النهاية. ومن هذه القصص يأخذ دروساً روحية عميقة.

وما أشد حاجتنا لهذا الكتاب. أولاً: لأن "كل الخليقة تئن" ويكاد لا يوجد شخصٌ كبيرًا كان أم صغيرًا على هذا الكوكب الذي نعيش عليه لا يعاني من الألم بصورة أو بأخرى. وثانياً: لأن لدينا أفكارًا خاطئة عن الألم.

وهو هنا يتعرض للأسئلة الجريئة التي يقولها المرضى وهم في قلب الألم. كما يذكر الكاتب بعض أفكار كبار الكُتّاب عن الله ولكنها تغيرت بعد ما غرقوا هم أو أقاربهم في الألم حتّى أنهم شكّوا في محبة الله.

إن الألم والمعاناة هما جزء من نسيج الحياة على هذه الأرض، والمؤمنون لا يُستثنون من هذا .. فالإيمان لا يحل مشاكلنا. والله لم يستثن نفسه من الألم، فعندما كان على الأرض بالجسد تعرض لإهانات وآلام رهيبة انتهت بالصليب.

ويحاول الكاتب أن يغير مفهومنا وأسئلتنا عن الألم. فبدلاً من أن نسأل السؤال الذي يعتبره متخلفاً .. لماذا ...؟ نسأل ما هو الهدف من وراء الألم؟ إننا هنا على الأرض نتغير لكي نشبه الله ونعيش حياة هانئة معه .. ونحن هنا لنخدمه .. وهو وحده القادر أن يحوِّل صراخ الألم إلى ترنيمة عذبة .. ويُخرج من الآكل أكلاً .. ولا يصح أن نقول إن الله يسبب لنا الألم لكي نجني الثمار الجيدة في حياتنا.

ومن أجمل ماقرأته في هذا الكتاب والذي يعبر عن مدى أهمية وجود المؤمنين على الأرض هذه العبارة: "منذ التجسد كان للرب يسوع رغبة أساسية وهي أن يبدأ من جديد حياته الإنسانية التي عاشها على الأرض، ولهذا فهو يريد المزيد من المؤمنين أن ليتيحوا له الفرصة ويدَعوه يبدأ مرة ثانية حياته على الأرض من خلالهم. فالخدمة ليست اختياراً بل إنها أمر إلهي.

وبدلاً من أن نسأل: أين الله في وقت الألم؟ نحول السؤال إلى: أين الكنيسة وقت الألم؟

إننا كمؤمنين نمثل الخط الأمامي وخط المواجهة للتعبير عن استجابة الله لعالم متألم.

سليم اسكندر حنا

قالوا عن هذا الكتاب

أعلم أن الألم والعجز يُبعدان عنا حضور الله. وإذا سألنا أين الله في وقت الألم؟ فهذا أمر معقول ومنطقي. وشكراً لله فإن فيليب يانسي يهتم بأسئلتنا هذه ليساعدنا على معرفة... أين الله عندما نتألم!؟.

جوني أريكسون تادا

بدأت قراءة هذا الكتاب معتقداً أنني سأقرأ كتاباً مسلياً وسهلاً عن موضوع الألم، ولكن عندما انتهيتُ من قراءته شعرتُ كما لو أنني قرأتُ كتاباً أدبياً كلاسيكياً من الطراز الأول. إنه يثبر غْور عناصر الألم التي لم يتطرق إليها سي. إس. لويس C.S.Lewis ويلفت أنظارنا إلى حياة المعاناة للقديسين مثل جون دوني جون Donne وحتى جوني أريكسون. ولكنني تأثرت كثيراً بأمانة ورغبة فيليب يانسي بالتصريح بأن الكلمات لا تستطيع أن تحل لغز وغموض المشاكل؛ حتى أنك تضطر أحياناً إلى الاستعانة برجل دين.

وليم بيترسون

لقد قرأت كل شيء استطعت الحصول عليه عن مشاكل الألم والشر، فوجدت أن هذا الكتاب أكثرها وضوحاً كما أنه كتاب عملي.

كيث ميللر

كنت أتوقع أن أجد داخل هذا الكتاب رسالة نظرية وسطحية لا تستطيع أن تجيب على هذا السؤال العميق، ولكنني لم أجد ذلك... وعندما تصل

إلى نهاية الكتاب سوف تصيح من أعماق قلبك وتقول:"أيها الربّ شكراً جزيلاً من أجل الألم !!".

بول هارفي

هذا الكتاب هو من أكثر الكتب التي قرأتها، والتي تساعد في معالجة مشكلة الشر بأسلوب يتحدث إلى الناس بكل صدق. فإن كنتُ أبحث عن شئ ما لأعطيه لمن يجتاز ضائقة معينة، فإنني أنصح بهذا الكتاب.

د . فيرنون جروندز

ياله من كتاب مدهش ورائع. إنه كتاب متكامل يتحرك في سلاسة معبراً عن المشاعر في يسر. وهو ليس من نوعية تلك الكتب التي لا تستطيع ذلك بل عبّر عن كل هذا بوضوح.

جيري جينكنز، مودي منثلي

كتب للمؤلف

* يسوع الذي لم أكن أعرفه
— صدرت طبعة عربية عن مكتبة دار الكلمة
* النعمة المذهلة
— صدرت طبعة عربية عن دار منهل الحياة
* الكتاب المقدس الذي قرأه يسوع.
* محاولة اللقاء مع إله غير منظور
— صدرت طبعة عربية عن مكتبة دار الكلمة
* أين الله في وقت الألم
— صدرت طبعة عربية عن مكتبة دار الكلمة
* خيبة الرجاء مع الله.
* الكتاب المقدس للطالب.
* التقي مع الكتاب المقدس.
* الكنيسة : لماذا تهتم؟
* وجود الله في أماكن غير متوقعة.
* إنني فقط أتساءل.
* محيي النفوس.
* إشاعات من عالم آخر
— صدرت طبعة عربية عن مكتبة دار الكلمة
* الصلاة
— صدرت طبعة عربية عن مكتبة دار الكلمة

إهداء

إلى الدكتور بول براند الذي شارك معي بكل الحب فترة طويلة من العمر بالحكمة الطبية والروحية.

مُقدّمة

هنالك قاعدة أساسية في نشر الكتب تنطبق تماماً على جراحة المخ وميكانيكا السيارات وهي تقول: "إذا لم تنكسر فلن تحتاج إلى إصلاح" ولأن الناس ما زالوا يشترون الكتاب الأصلي "أين الله في وقت الألم؟" فربما أكسر القاعدة بمحاولتي إجراء مراجعة كبيرة له.

فقد كتبت هذا الكتاب "أين الله في وقت الألم؟" في منتصف السبعينات عندما كنت في العشرينات من عمري. وطوال السنوات التي تلت لم أتوقف عن التفكير في هذا الموضوع واستمر دوراني حول مشكلة الألم، باحثاً لها عن حل. وفي ذلك الوقت سمعت أيضاً من فئات القراء الذين كتبوا إليّ خطابات مؤلمة يصفون فيها معاناتهم الشديدة من الألم. وشعرت لهذه الأسباب بضرورة العودة لكتاب كتبته منذ مدة طويلة لتجديده.

يجمع الكثيرون من علماء الكتاب المقدس على أن سفر أيوب هو أقدم أسفار الكتاب، وأندهش كثيراً لأن الأسئلة التي سألها أيوب بكل فصاحة لم تتوقف حتى الآن. إنها ازدادت عبر القرون. والرواية التي صدرت أخيراً بعنوان "المشكلة الوحيدة" أخذتُ عنوانها من عبارة في محادثة عن كيف أن الله الصالح يمكن أن يسمح بالألم؟! وتقول الشخصية الرئيسية في الرواية عند الختام "في الحقيقة إن الألم هو المشكلة الوحيدة التي تستحق البحث".

أمرٌ آخر أثار دهشتي وهو أن الكتب التي تتحدث عن مشكلة الألم تنقسم إلى مجموعتين. فالقديم منها الذي كتبه أناس مثل توما الأكويني، أو جون بنيان أو مارتن لوثر أو

جون كالفن أو القديس أوغسطينوس تقبل الألم والمعاناة بدون تذمر لأنه من وسائل الله النافعة للبشر. وهؤلاء الكُتاب لا يتساءلون عن أعمال الله بل هم فقط يحاولون "تبرير طرق الله نحو الإنسان". لقد كتبوا ذلك بكل ثقة كما لو أن قوة تبريرهم يمكن أن تُهدىء الاستجابات العاطفية للألم والمعاناة.

أما الكتب الحديثة عن الألم فتختلف عن ذلك تماماً، إذ يدّعي المؤلفون أن كمية الشر والمعاناة في العالم لا يمكن مقارنتها بالنظرة التقليدية إلى الإله الصالح والمحب. وبهذا يكون الله قد تحول من مركز الصديق للإنسان إلى مركز المدافع عن ما يفعله معه. ويبدو كما لو أن هؤلاء المحدثين الغاضبين يقولون "كيف يمكنك يا الله أن تبرر أفعالك؟" أو فكثيرون منهم يحاولون تعديل فكرتهم عن الله إما بإعادة تعريف محبته أو بالتساؤل عن مدى قوته على التحكم في الشر.

وعندما نقرأ هذين النوعين من الكتب (القديم والحديث) جنباً إلى جنب سوف نجد أن التغير في النغمة مذهل للغاية، كما لو أننا في الأزمنة الحديثة أصبحنا نعتقد أنّ لنا ركناً في سوق المعاناة. هل نسينا أن لوثر وكالفن عاشا في عالم لم يكن فيه الأثير والبنسلين عندما كان متوسط العمر يصل إلى الثلاثين عاماً، هل نسينا أنَّ بنيان وDonne كتبا أعظم كتبهما وهما في السجن؟ ومما يدعو للسخرية، أن الكُتاب المحدثين الذين يتمتعون بوسائل الراحة الفاخرة ويتمتعون برعاية صحية فائقة هم أنفسهم الذين يستشيطون غضباً.

وبعد قراءة كُتب عديدة على تلك الشاكلة سألت نفسي "هل حقيقة يحتاج العالم إلى كتاب آخر عن الألم؟". ومع ذلك، فبعد أن قضيتُ وقتاً بين أناس يتألمون ويعانون، قلتُ: نعم، إن العالم يحتاج إلى مثل هذا الكتاب. وأيقنتُ أنَّ (كُتبًا كثيرة من تلك) التي تتحدث عن الألم، لاصلة لها من قريب أو بعيد بمن يتألمون. فبالنسبة، لهم ليست مشكلة الألم مشكلة نظرية أو لها دور لاهوتي في ترتيب كل القياسات المنطقية المناسبة. إنها مشكلة علاقة. فكثيرون

يريدون أنْ يُحبوا الله ولكنهم لا يستطيعون ذلك من خلال دموعهم، لأنهم يشعرون أنهم جُرحوا وأصيبوا بالخيانة. وللأسف الشديد، فإن الكنيسة غالبًا ماتتسبب في إحداث نوع من الارتباك أكثر من الراحة.

ومنذ خمسة عشر عاماً، عندما كنت في سن لا يسمح بتداول مشكلة الألم الموجعة، كتبت كتاب "أين الله في وقت الألم؟" لهؤلاء الناس. وذلك لأنني سمعتُ كثيرًا منهم، فقمتُ الآن بمراجعة كتابي الذي كتبته سابقاً عن الألم. وأعتقد أن هذه النسخة الجديدة تمثل نوعاً من الحديث والحوار مع القراء وهي تعبر عن خطوتي التالية في هذه الرحلة.

وقد توسعت في الفصل الخاص الذي عنوانه "كيف نتواءم مع الألم؟" وذلك لأنني أعتقد أن الله قد أعطى الكنيسة تفويضاً لكي تمثل محبته لعالم مازال يعاني. ونحن عادة ما نفكر في مشكلة الألم كسؤال نوجهه إلى الله، ولكنه هو أيضاً سؤال يوجهه الله لنا. كيف نتجاوب مع من يتألمون؟

عند مراجعتي للكتاب الذي كتبته سابقاً أخذت الكثير من مقالاتي التي نشرتها في مجلة Christiavity Today (المسيحية اليوم) وكتيب آخر بعنوان Helping the Hurting "مساعدة المتألمين" الذي نشرته مطبعة Multnomah. وأتوجه لهم بالشكر لسماحهم لي بذلك.

"اذكروا المقيدين ..
كأنكم مقيدون معهم ..
والمُذَلّين كأنكم أنتم أيضاً في الجسد"

عب ١٣ : ٣

أين الله فى وقت الألم ؟

"وفي هذه الأثناء، أين الله؟ هذه واحدة من أكثر الأعراض إزعاجًا. فعندما تكون سعيداً للغاية ولا تشعر بحاجتك إلى الله، تتجه إليه بالحمد والتسبيح، سوف يرحب بك بذراعين مفتوحتين.ولكن اذهب إليه وأنت في أشد الحاجة له ولا تجد من يُعينك، فماذا تجد؟ تجد بابًا أُغْلِق بعنف في وجهك وتسمع صوتَ الغلقِ من الداخل. وبعد كل ذلك تشعر بالصمت والسكون. وعندئذ قد تتحول وتسير بعيدًا".

سي. إس. لويس، *A Grief Observed*

١

مشكلة لن تذهب بعيدًا

أشعر بالعجز والذنب أمام الناس الذين يتألمون. أقف بجوارهم، وأشاهد ملامح الوجوه الحزينة، وأستمع للتنهيدات وصيحات الألم، وأعلم جيداً تلك الهوَة الواسعة التي تفصل بيني وبينهم. ولا يمكنني أن أعكس مدى معاناتهم بل أراقبهم فقط. ومهما حاولت أن أعبّر بالكلمات، فهي تبدو عاجزةً وجافّة كما لو كنتُ أستذكر بعض السطور من مسرحية مدرسية.

تلقيت في أحد الأيام طلباً عاجلاً وملحًّا للمساعدة من صديقين حميمين لي جون وكلوديا كليكسون. كانا متزوّجين حديثاً وقد بدأ حياتهما الزوجية معًا في الغرب الأوسط. وكنت قد لاحظت مدى التغيير الكبير الذي طرأ على حياة جون عندما تمتع بالحب في الزواج. كما أن سنتي الخطوبة مع كلوديا قد غيرّتا كثيرًا من طباعه

الحادة. وأصبح متفائلا وامتلأت خطاباته لي بالحماس والتعبير عن سعادته بالزواج.

ولكن وصلني خطاب من جون أزعجني كثيراً عندما فتحته. لقد امتلأ الخطاب بالأخطاء والشطب مع أنه صاحب الخط الجميل والمنظم. وكتب يقول"أعتذر عن خطي السيىء ... وأعتقد أنه يعبر عن محاولتي اليائسة للبحث عن كلمات ولا أعرف ما أقول" لقد اصطدم هذا الزواج الحديث بصدمة أكبر من أن يتحملاها. لقد أصيبت كلوديا بمرض يدعى *Hodgkin* (سرطان الغدد اللمفاوية) ولديها فرصة ٥٠٪ فقط للحياة.

وفي ظرف أسبوع، أجرى الأطباء لها جراحة أزالوا فيها كل آثار للمرض. وأصبحت ضعيفة للغاية وطريحة الفراش بالمستشفى.

في ذلك الوقت، ومن سخرية القدر، كان الزوج جون يعمل قسيساً بالكنيسة الملحقة بالمستشفى المحلي. وانخفض تعاطفه مع المرضى. وذات مرةٍ قال لي:"لقد كنتُ أفهم جيداً مدى معاناةٍ المرض أما الآن فلم أعد أهتم بذلك." فكل همي كان منصباً على كلوديا. وكنت أريد أن أصرخ فيهم قائلاً:"أوقفوا هذا التباكي أيها الأغبياء" هل تعتقدون أنكم تعانون من مشاكل— ربما تموت زوجتي الآن!".

وعلى الرغم من أن جون وكلوديا كانا مؤمنين قويين، فقد انتابتهما روح غضب شديدة ضد الله، غضب ضد شريك محب خانهما. وبدأا يصيحان،"ياألله، لماذا نحن بالذات؟ هل تصدقت علينا بسنة واحدة من الزواج السعيد لكي تعدّنا لما نحن فيه الآن؟".

وبدأت كلوديا تُعالج بالإشعاع، ولم تعد جميلة كما كانت. وبدت عليها المعاناة والتعب وأظلمت بشرتها وتساقط شعرها. وبدأت تعاني من آلام في الزور وتتقيأ معظم ما تأكله. ولذلك أوقف الأطباء العلاج لفترة محدودة.

وعندما عادت مرة أخرى للعلاج الإشعاعي، كانت

بين فترة وأخرى تُلقى على منضدة وهي عارية. وليس بإمكانها أن تفعل أي شيئ إلا أن تظل ساكنة وتستمع إلى صوت جهاز الإشعاع.وكل جرعة، كانت تسبب لها ألمًا يُلازمها شهورًا. وبدأت كلوديا تفكر في الله وفي آلامها وهي ملقاة على فراش المرض.

الذين زاروا كلوديا

كانت كلوديا تأمل أن يمنحها المؤمنون الذين زاروها شيئًا من الراحة والأمل فيما تجتازه من آلام. ولكن أصواتهم كان مرتبكة، تواسيها على قدْر ما ألقي إليهم.

نصحها أحد شمامسة كنيستها في أن تفكر فيما يريد الله أن يعلّمها إياه قائلاً:"لابُدَ أنَّ شيئًا ما في حياتك لم يكن يُرضي الله. ولابد أنك ابتعدت عن إرادته. فهذه الأشياء التي تحدث لك لا تحدث عبثاً. إن الله يستخدم الظروف لكي يحذرنا ويعاقبنا. ياترى ما الذي يريد الله أن يقوله لك؟".

وبعد بضعة أيام، اندهشت كلوديا عندما رأت امرأة من الكنيسة لم تكن تعرفها معرفة جيدة. وهذه المرأة الأرملة والممتلئة قامت بالدور الذي أدخل السرور والفرح إلى قلب كلوديا المريضة. وقد أحضرت معها الزهور، ورنمت بعض الترانيم، وبقيت معها فترة طويلة ترنم وتقرأ المزامير المعزية عن الجبال التي تصفق بالأيادي... وكلما حاولت كلوديا أن تتحدث عن مرضها، كانت هذه المرأة تغير الموضوع محاولة أن تنسيها آلامها بروح من الفرح والإرادة الطيبة. ولكن هذه السيدة زارت كلوديا مرة واحدة فقط ثم ذبلت الزهور وانزوت الترانيم وتُركت كلوديا لتواجه يوماً جديداً من الألم.

ثم جاءت امرأة أخرى لزيارتها وكانت تؤمن بالشفاء الذي تراه على قنوات التليفزيون. وبثقة كبيرة، أكدت لكلوديا أن الشفاء هو طريقها الوحيد للخلاص مما هي فيه. وعندما أخبرتها بما قاله لها شماس الكنيسة انفجرت المرأة قائلة: "إن المرض ليس هو إرادة الله لنا" "ألم

تقرأي الكتاب المقدس؟ إن الشيطان يزأر من حولنا ولكن الله سوف يخلصك ويحررك إن كان لديك الإيمان الكافي بأنك سوف تشفين. وتذكري ياكلوديا أنَّ الإيمان يستطيع أن ينقل الجبال ويشفيك من مرض Hodgkin الذي تعانين منه. أعلني إيمانك وثقي في الشفاء والنصرة".

وفي الأيام القليلة التالية عندما كانت تستلقي كلوديا في غرفة العلاج بالإشعاع، كانت تحاول أن "تستجمع" إيمانها. وتساءلت ما إذا كانت تتفهم الأسلوب المتبع. إنها لم تشك في قوة الله الغير عادية ولكنها كانت تحاول أن تقنع الله بمدى صدقها وأمانتها. فليس الإيمان مثل العضلة التي يمكن تكبيرها بتمارين معينة. إنه أمر غامض وغير ملموس ويصعب فهمه. ويبدو أن فكرة تجميع الإيمان شيء مرهق ولم تستطع كلوديا فهمها.

كانت أكثر السيدات روحانية في كنيسة كلوديا هي تلك التي أحضرت لها بعض الكتب عن شكر الله وتسبيحه من أجل كل ما يحدث لها وقالت لها "ياكلوديا أنت في حاجةٍ إلى الثقة فى الله، وأن تقول له: ياألله، إني أحبك لأن معاناتى هذه دليل حُبّك لي- إنها إرادتك واختيارك لى أفضل من اختياري لنفسى فشكرًا ياإلهى على حبك لى- معاناتي دليل حبّك وأنتَ تعلم ما هو الأفضل بالنسبة لي. وأشكرك لأنك أنتَ تحبني جداً حتى أنك سمحت لي بهذا المرض. أشكرك على كل شيء!".

وبينما كانت كلوديا تفكر في هذه الكلمات امتلأ ذهنها بصورة غريبة عن الله. فتصورته كجبار خُرافي في حجم الكون الذي يتلذذ بتعذيب البشر البائسين بين أظافره ويسحقهم بقبضته على الأحجار المسنّنة. ويستمر في فعل ذلك حتى يصرخوا إلية قائلين: "ياألله، إنني أحبك لأنك تفعل هذا معي". وقد أرعبت هذه الفكرة كلوديا وتمنت أن لا تعبد مثل هذا الإله.

وجاء زائرٌ آخر وهو راعي الكنيسة والذي جعلها تشعر أنها في إرسالية خاصة. وقال: "لقد اختارك الله لكي

تعاني من أجل المسيح وسوف يكافئك. وقد اختارك أنتِ بالذاتِ لقوتك العظيمة وأمانتك، تماماً مثل ما اختار أيوب وهويستخدمك كمثل للآخرين. فقد يزداد إيمانهم بسبب استجابتك. ولا يجب أن تشعري بأي مرارة، بل إنَّ هذا المرض هو امتياز لك. وما نراه نحن محنةٍ وشدة، يراه الله فرصة ومنحة لنا". وأخبرها القسيس بأن تفكر في نفسها كنجم يقود الآخرين، وأن تنظر إلى هذه المحنة كسلسلة من الحواجز التي تحتاج لأن تتخطاها في طريق الانتصار.

وفي بعض الأحيان، أعجبتها فكرة امتياز الشهادة كنوع من رثاء الذات. وفي أحيانٍ أخرى عندما يشتد الألم عليها فتتقيأ الطعام، تصرخ إلى الله قائلة: "ياألله، لماذا أنا بالذات؟ هناك ملايينٌ من المؤمنين ممن هم أقوى مني.. لماذا لم تختر واحداً منهم بدلاً مني؟" فلم تشعر إطلاقا أنها كالنجم الذي سيقود الآخرين، وتساءلت لماذا يتعمد الله وضع الحواجز في طريق من يحبه.

هذا ولقد قمتُ بزيارة كلوديا ووجدت أنها في حالة يأس وارتباك من جرّاء هذه الكلمات المتناقضة. وأعادت لي ذكر النصيحة التي أعطاها إياها المؤمنون الذين قاموا بزيارتها واستمعتُ إلى استجابتها المتحيرة. أي هذه الدروس كان من المفروض أن تتعلمها؟ كيف يمكنها أن تحصل على المزيد من الإيمان؟ ولمن يجب أن تستمع؟ وفي وسط هذا الارتباك الشديد كانت كلوديا متأكدة من شيء واحد: أن عالمها السعيد مع جون زوجها أخذ يتبدد ولم تكن لها رغبة في ذلك.

وفي ذلك اليوم، قدمت نصيحة لكلوديا ثم سألتها بعض الأسئلة: لماذا هي تستلقي على فراش المرض بالمستشفى بينما أنا أقف بجوارها سليماً معافى؟ فقد وُلدَ أمرٌ ما يتفاعل بداخلي وأنا أستمع إلى تعليقاتها المحفوظة التي سمعتها من الزوار. هل المسيحية (الإيمان بالمسيح) تجعل المتألم يعاني أكثر؟

وفي الوقت الذي قمت فيه بزيارة كلوديا، كنت أعمل في

مجلة "Campus Life" ومحررًا في جريدة أخرى. وفي فترة زمنية قصيرة، كتبت ست قصص لمجلة "المختار" "*Reader's Digest*" تحت عنوان "Drama in Real Life". وقام بزياراتي زوجان كنديان، كان قد هاجمهما من قبل دبٌ رمادي. وعلى الرغم من أنهما ظلا على قيد الحياة، إلا أنَّ الزوج الشاب قد فقد إحدى عينيه، ولم تستطع عمليات التجميل إخفاء الإصابات التي في وجهه. وفي مدينةٍ أخرى، أخبرني شابان عن قصة معسكر صغير أقامه بعض الأطفال وصعد بهم الأب أعلى جبل راينير Rainier، وإذ بعاصفة ثلجية تهاجمهم، فأقاموا كهفاً من الجليد. واستلقى الأب على باب الكهف ونام وتجمد من شدة البرد ومات.

كل هؤلاء الناس أعادوا ترجمتهم الخاصة للنغمات المتنافرة لأصوات المؤمنين الذين قاموا بزيارة كلوديا والذين تحدثنا عنهم سابقاً. وقال لي أحدهم والذي بُتر أحد أعضائه "إن أصدقائي المؤمنين كانوا سبباً في اكتئابي وانزعاجي بما قالوه لي". وهذا النموذج أزعجني كثيراً. لابد وأن هناك خطأ ما. فالإيمان المؤسس على "الطبيب الأعظم" يجب أن يمنح السلام وليس الارتباك وخاصة في زمن الأزمات.

لماذا يعاني الناس بهذه الصورة؟ ما الذي يقوله الكتاب في هذا الصدد؟ ولأن الأسئلة التي تجمعت لديّ من خلال زيارتي لكلوديا* وآخرين مثلها كثيرة، فقد بدأت كتابة هذا الكتاب. وبدأت أبحث عن رسالة يمكننا كمؤمنين أن نعطيها للمتألمين. وفي نفس الوقت، كنت أفكر في رسالة تقويّ إيماني عندما أتألم. أين الله في وقت الألم؟ وهل يحاول أن يقول لنا شيئاً من خلال هذا الألم؟

تمهيد شخصي

بعد رحلة ممتدة للولايات المتحدة قام بها الراعي

* إنتهت مأساة كلوديا في النهاية بعدما تعالجت بالكوبالت الذي حطَّمَ خلايا السرطان، ولم يعاودها المرض فيما بعد.

واللاهوتي الألماني المشهور هيلموت تيليك *Helmut Thielicke*، سألوه: "ماهو أكبر عيب في المؤمنين الأمريكان؟" أجاب: "ليست لديهم فكرة كافية عن الألم". وأنا أتفق معه في ذلك.

هذا العيب أو النقص هو بمثابة عقبة كبيرة أمام غير المؤمنين والعالم الغير مسيحي. وسألت بعض طلبة الجامعة عما يحملونه ضد المسيحية، فقال معْظمهم إجابات مختلفة وكلها مركزة على موضوع الألم: "أنا لا أستطيع أن أؤمن بإله يسمح بوجود بلاد مثل أوشويز Auschwitz، وكمبوديا. وقال آخر: "ثلث العالم يبيت جائعاً، كيف يتوافق ذلك مع المحبة المسيحية؟".

إن أية خبرة إنسانية أخرى لا تولد مثل هذه الاستجابات السريعة الغاضبة. ولا أحد يجلس في مقهى مملوء بالدخان في آخر الليل ويناقش حاسة الشم أو التذوق. الشم: لماذا هذه الحاسة الغريبة؟ ماذا قصد الله منها؟ لماذا أعطي الزهور تلك الرائحة القوية والتى حرم الأكسجين منها؟ لماذا أعطى الإنسان ⅛ قوة حاسة الشم التي لدى الكلب؟ ومن الغريب أيضاً أننى لاأستمع إلى نقاش عن "مشكلة السرور والفرح". لماذا نتقبل إحساسات الفرح والسرور بالبهجة وانشراح الصدر ولكن نتفاعل بكل العنف والغضب مع الألم؟

وبعد ما قرأت العديد من الكتب عن مشكلة الألم اكتشفت أن كثيراً من الفلاسفة العظام بالرغم من تعاطفهم مع المباديء والأخلاقيات المسيحية، فقد تعثروا أمام مشكلة الألم والمعاناة ورفضوا الإيمان المسيحي بسببها. وكتب سي. إي. إم . جواد C.E.M. Joad ما يلي: "ماذا، إذاً عن هذه المجادلات التي أعلنت لي بقوة عن ماهو ضد وجهة النظر الدينية عن الكون؟...أولاً، هناك العقبة والصعوبة التي تقدمها حقائق الألم والشر". كما أن هناك فلاسفة آخرون مثل برتراندرسل وفولتير وافقوا على رأي جواد.

وتظل مشكلة الألم والمعاناة المربكة تظهر بين الحين

والآخر بالرغم من المحاولات التي تتسم بسعة المعرفة لشرحها وتوضيحها. وربما يكون الكاتب البريطاني العظيم سي. إس. لويس قد قدم أوضح معالجة للموضوع في هذا القرن في كتابة "مشكلة الألم" الذي كتبه وهو في قمة عطائه الفكري. ولكن بعد بضع سنوات بعدما ماتت زوجته بمرض سرطان العظام، كتب لويس كتاباً آخر "Aelrief Observed" والذي نشره باسم مستعار. ويتحدث الكتاب عن نفس الموضوع ولكن بطريقة مختلفة تماماً. وقد عبر عن رأيه الأول في الاقتباس الذي ذكرناه سابقاً في هذا الفصل، ولكنه هنا قد اهتزت ثقته وكادت عواطفه أن تتحطم وقال: "يصعب عليك أن تعرف وتصدق في أي شيء حتى تختبره تمامًا بنفسك ويُصبح الأمر موضوع حياة أو موت".

ومثل معركة هرقل ضد هيدرا، فكل محاولاتنا لاختراق المجادلات الغنوسية تواجهها أمثلة جديدة من المعاناة. وقد أطلق الروائي بيتر دي فريس Peter De Vries على مشكلة الألم "إنها علامة الاستفهام التي تحولت إلى ما يشبه السنارة في قلب الإنسان" وكثيراً ما يبدو أمامها دفاع المؤمنين كالوجه الذي احمرَّ خجلاً، أو الذي يمشي متثاقلاً أو الذي ينحني اعتذاراً.

وتمثل مشكلة الألم لغزاً عميقاً، وتتخذ معالجة الفلاسفة للموضوع شكل الحجج والبراهين النظرية كتلك التي تجدها في كتب الرياضة البحتة. ولن أحاول مخاطبة الفلاسفة في هذا الكتاب، فقد قام آخرون بهذا الدور. بل بالحري، فقد حاولت أن أضع أمام ناظري منظر صديقتي كلوديا كلاكستون وهي على فراش المرض. ومعظم مشاكلنا مع الألم ليست تمارين في صالة الرياضة العقلية ولكنها مشاكل مثل تلك التي واجهت كلوديا: فقدان الشباب، قرحة في الحنجرة، زواج حديث يهدده الموت، والرعب من المجهول. وقد سمعت كلوديا الكثير من النصائح المتضاربة من المؤمنين بالكنيسة. ما الذي يمكن أن نؤمن به بثقة؟

وعندما بدأتُ الإعداد لهذا الكتاب، تحدثت مع مؤمنين

متألمين أكثر جدا مما نختبر أو نتصور. وبالنسبة للبعض، فهم اعتبروا أنَّ الألم سمة من سمات الحياة. فهو أول إحساس يحييهم في الصباح وآخر إحساس يشعرون به عند الذهاب للنوم إذ قدّر لهم أن يناموا. وقد أمضيت بعض الوقت بين مرضى الجذام الذين لا يشعرون بألم فسيولوجي وكانوا يتمنون ذلك. ومع مثل هؤلاء الناس كمرشدين لي، دخلت عالم المتألمين لأعرف الفرق الذي يحدثه الألم لكي يجعلك مؤمناً حقيقيًا.

أولاً، سوف أفحص الألم بطريقة بيولوجية لكي أرى وأفهم الدور الذي يلعبه في الحياة. ثم أعود وأنظر إلى كوكبنا بنظرة كلية شاملة وأسأل ماهو هدف الله. هل الألم هو الخطأ الأعظم لله؟ وأخيراً، سوف أسأل عن الاستجابة التي يمكن أن نعطيها عندما نواجه الألم، وكيف يمكننا الوصول للآخرين المتألمين.

وربما عندما أصاب بمرض كالإنفلونزا وأرقد في السرير فربما تتغير استنتاجاتي. ولكنني كمؤمن يحاول جاهداً معرفة غرض الله في هذا العالم تعلمت الكثير. ولأنني توصلت إلى فهم أفضل لمعاناة هذا العالم، فإن مشاعري نحو الله قد تغيرت بطريقة هائلة.

الجزءُ الأوّل

ما علّة وجود الألم؟

"إن أعراض المرض والمرض ذاته ليسا شيئًا واحدًا. فالمرض موجود منذ فترة طويلة قبل الأعراض. وظهور الأعراض أولاً يساعد على الشفاء من المرض ذاته. والحقيقة أنّ هذه الأعراض غير مرغوب فيها ظاهرة طيبة وهبة من الله، إنها رسالة من العقل اللاواعي لتبدأ امتحان الذات والإصلاح"

إم. سكوت بيك *M.Scott Peck*

٢

الهبة التي لا يريدها أحد

أنا جالس في صالة الأوركسترا الأنيقة في شيكاغو، استمتعتُ للغاية بأعمال بتهوفن وموزارت، أما كونشيرتو بروكوفيف، فهي شيء آخر. وتحول الدم داخلي من المخ إلى المعدة ليساعد في هضم الطعام الذي تناولته وقد وجدت صعوبة في أن أظل مستيقظاً.

وكانت صالة الأوركسترا دافئة وممتلئة بالحضور. وتدريجيًا، بدأت الآلات الموسيقية تندمج معًا لتعطي نغمةً واحدة. وبدأت جفوني ترتخي. وحاولت أن أظل منتبهاً فرأيت حولي العديد من رواد هذه الحفلات الموسيقية وهم يرتدون أفخر الثياب، واستندت على ذراع الكرسي. وبدأت الموسيقى تخبو تدريجياً ...

وبدأت أشعر بحاجتي للنوم بطريقة واضحة. والناس من حولي ينظرون إليّ بطريقة ملفتة. وسقط معطفي على

الأرض. وشعرت بالانزعاج والارتباك فأخذتُ المعطف ووضعته على مقعدي وحاولت مرة أخرى الاستماع إلى الموسيقى. وبدأ الدم يتدفق إلى فمي مرة أخرى.

ماالذي حدث؟ حتى وإن كان النوم قد تسرَّب إلى جفوني، فجسمي مازال يعمل لحمايتي. وإن كان عقلي الواعي قد أصابه نوع من الخمول، فنظامي اللاإرادي مازال يعمل. وعندما تمايلت رأسي من جراء الحاجة الشديدة للنوم، قامت الأذن الداخلية المملوءة بالسائل بإحداث التوازن. وفي اللحظة الأخيرة التي كادت فيها رأسي أن تصطدم بالكرسي، أيقظتني الأذن الداخلية. واهتزت ذراعي وارتفعت رأسي وتنبهتُ. وقد أصابني هذا الحدث الدراميّ بنوع من الارتباك، مع أن كل هذا حدث كمجهود طاريء ليحفظني من أية إصابة. كل هذا حدث بينما أنا أنساق للنوم.

وبالمثل تمامًا تعمل ميكانيكا الألم في جسم الإنسان كنظام تحذيري اختبرتُه عملياً في صالة الأوركسترا. فجهاز الإحساس بالألم يُنذر بصوت عالٍ جسمي محذرا إياه من خطر قادم ويجبرني على التركيز على المنطقة التي بها المشكلة.

وقد يبدو أحياناً رد الفعل على مستوى لا إرادي. فمثلاً عندما أذهب للطبيب لعمل فحص عام ثم يطرق على ركبتي بشاكوش مطاطي، تنتحب رجلي بشدة. لماذا؟ لأن هذه الخبطة بالمطرقة تعطي الركبة الانطباع بأنها في حالة انثناء: وتضرب المطرقة نفس الأعصاب التي يمكن أن تتأثر إذا اِلتوت ركبتي فجأة أثناء السير. ويندفع جسدي للتعويض وإلا فسوف أتعثر وأجتاز ألماً أكثر من هذا. ويحدث رد الفعل هذا بطريقة تلقائية تماماً وبسرعة البرق ليسمح للعقل أن يُصدر أمراً لأجلس على الطاولة حتى أتجنب أية مخاطر.

علامات المصمم الأعظم

وعلى الرغم من القيمة العظيمة والواضحة لأجهزة الحماية والتحذير التي تقوم بها ملايين الأجهزة الحساسة، فإن شبكة الألم لا تأخذ حق قدرها في أجهزة الجسم. فلا تُقابَل إلا بكل المشاعر السيئة وسوء المعاملة. فلم أقرأ على الإطلاق أية قصيدة تمتدح فضائل الألم ولم يقم له أي تمثال أو تتحدث عنه ترنيمة. وعادةً ما يعرّف الألم على أنه "شيء غير سار".

فالمؤمنون الذين يثقون في خالق محب، لا يعرفون كيف يترجمون الألم بطريقة صحيحة. فإن أحس شخصٌ بوخز في يده وهو يستند على حائط في الظلام، فسوف يقول الكثيرون إن هذا خطأ من الله الذي كان يجب عليه أن يصمم لنا طريقة أفضل لنتجاوب مع الألم. وأنا كذلك ينتابني هذا الشعور.

ومع ذلك، فأنا الآن مقتنع أن للألم نوعًا من الضغط السيىء علينا. ربما نرى في المستقبل قصائد وتماثيل وترانيم عن الألم. ولكن لماذا تغيرت مشاعري؟ لأنني من خلال الميكروسكوب الفكري رأيت شبكة الألم في ضوء مختلف تماماً. ومن هنا يجب أن أبدأ مناقشة مشكلة الألم بنظرة إلى جسم الإنسان. لماذا احتاج للألم؟ بماذا يخبرني جسمي عندما أتألم؟

وأبدأ هنا، من خلال نظرة فاحصة، لأن ذلك المنظور يغفل عنه الناس مرتبكين بأسئلة مثل "أين الله في وقت الألم؟" وقد قرأت العديد من الكتب الفلسفية واللاهوتية عن "مشكلة الألم" وكلها تتحدث عن حقيقة أن الألم قد تكون له بعض الفوائد البيولوجية. ولكن شبكة الألم بداخلنا تستحق اهتماماً أكبر من مجرد هذه الأفكار. إنها تؤكد قدرة الله وعظمته.

ولنفكر معًا في عضو واحد من أعضاء الجسم: ألاهو البشرة .. إنها عضو مرن ولكنه قوي وهو يمتد عبر

الجسد كله ويحمي من المخاطر التي تهاجم الجسم من العالم الخارجي. وتطرق الملايين من أجهزة الإحساس بالجسم سطح هذه البشرة وتنتشر في انسجام مع الاحتياجات المحددة للجسم. وفي واقع الأمر، لا يبدو أن الجسم لا يخصص "خلايا ألم" لأن الإحساس بالألم يرتبط بشبكة كبيرة من جهاز الإحساس الذي يُبلّغ بمعلومات عن الضغط واللمس والحرارة والبرد.

ويقيس العلماء مدى حساسية الجلد أو البشرة. فمثلاً، كم من الضغط يجب أن يقع على الشخص معصوب العينين حتى يتعرف على الشيء الذي يلمس بشرته؟ وجهاز القياس يقيس بالجرام (ميليمتر مربع لسطح البشرة) وهذا ما اكتشفه الذين أجروا هذه الأبحاث:

طرف اللسان	حساس إلى	٢,٠٠جرام ضغط
الأصابع	حساس إلى	٣,٠٠جرام ضغط
ظهر اليد	حساس إلى	١٢,٠جرام ضغط
ظهر الساعد	حساس إلى	٣٣,٠جرام ضغط
القدم	حساس إلى	٢٥٠ جرام ضغط

ولهذا، فالبشرة تُظهر حساسية شديدة للضغط. ونحن نستخدم ألسنتنا في أعمال معقدة مثل تكوين الكلمات وفي تحريك جزئيات الأكل بين الأسنان. ونستخدم أصابعنا في اللعب على الجيتار والكتابة وملاطفات الحب. وتحتاج هذه المناطق في البشرة إلى حساسية شديدة.

أما المناطق الأقل خطورة أو حساسية لا تحتاج إلى مثل هذا القدر من الحساسية: فسوف نشعر بالإنهاك الشديد والسريع إذا اضطر المخ لأن يستمع إلى بعض الضغوط من القدم التي تشعر بالإرهاق من جرَّاء حمل معين. ولهذا، فبينما تستطيع الأصابع واللسان أن تتبيّنا مجرد اللمسة الخفيفة، فإن أجزاء أخرى من الجسم تحتاج لصوت شديد قبل أن تُنَشّط المخ لكي يتحرك ويستجيب.

وهذه القياسات تقيس حدود الحساسية التي تخدش شبكة الإحساسات العجيبة بالجسم. فمثلاً، تختلف درجة الحساسية للضغط على أساس الشيء الذي تتعرض له الأعضاء. فيمكنني التمييز بين شئ يزن ١¼ أوقية عن آخر يزن ١½ أوقية عندما أمسكه في يدي. ولكن إذا كنتُ أمسك مجموعة أوراق مالية ذات العشرة جنيهات، فلا أستطيع أن أميز ذلك الفرق إلا إذا وصل وزن رزمة الأوراق المالية إلى ٣ أوقية.

وسأعطي اختباراً آخر يحدد مقدار الألم. ويقيس العلماء في هذا الاختبار مقدار الضغط الذي يحدث على إبرة حادة جداً قبل أن يشعر الشيء الموضوع عليه الإبرة بالألم.

القرنية	٠,٢	جرام	يسبب إحساساً بالألم
مقدمة الذراع	٢٠	جرام	يسبب إحساساً بالألم
ظهر اليد	١٠٠	جرام	يسبب إحساساً بالألم
قدم واحدة	٢٠٠	جرام	يسبب إحساساً بالألم
طرف الأصبع	٣٠٠	جرام	يسبب إحساساً بالألم

لاحظ كيف تتناقض هذه الأرقام مع مقدار الضغط. فمثلاً، طرف الأصبع يُظهر فرقاً كبيراً، فبإمكانه أن يتبين ضغطاً قدره ٣ جرام، ولكن إذا تجاوز هذا الضغط على ٣٠٠ جرام فسوف أشعر بالألم. لماذا؟ ولنفكر في أنشطة الأصابع مثلاً. فعازف الكمان يجب أن يحسَّ بقدر مدهش من الضغط حتى يتمكن من أن يعطينا الصوت المتكامل. والخبّاز الماهر الذي يعجن الدقيق بيديه، يمكنه أن يلاحظ ما يُقدّربـ ٢٪ من الاختلاف في درجة اللزوجة أو التماسك في العجين. وفي صناعة النسيج، يمكن للخبراء الذين يلمسون القماش أن يميزوا الفرق بين صفات الأقمشة المختلفة بلمسها. فأطراف الأصابع يجب أن تكون حساسة للغاية لأقل اختلاف باللمس.

ولكن الحساسية للمس لا تكفي. ويجب أن تكون أطراف الأصابع قوية لتتحمل التعامل مع الأنشطة الصعبة

والقاسية. حاول أن تلمس يد نجار أو لاعب تنس محترف، فستجدها صلبة ومخرشفة أو خشنة. إن الحياة ستصبح بائسة إن أرسلت أطراف الأصابع رسالة ألم إلى المخ في كل مرة يقبض فيها لاعب التنس على المضرب بقوة ليضرب الكرة أو يدق النجار مسماراً بالمطرقة. ولهذا، يشتمل تصميم جسم الإنسان على أطراف أصابع لها ملمس قوي وحساس للضغط وأقل تأثرًا بالألم. إن أيدينا وأطراف أصابعنا تؤدي لنا خدمة عظيمة لأنها من أكثر الأعضاء استخدامًا في الجسم.

ومع ذلك، فقرنية العين لها وضع مختلف. فنظراً لشفافيتها ـ وهذا أمر ضروري لكي تسمح بأشعة الضوء ـ فلديها قدر محدود من الدم، ولهذا فهي رقيقة وضعيفة. فجرح بسيط وصغير يمكن أن يسبب العمى، وأية شظية خشبية أو شيء قليل من القذارة يمثل خطورة شديدة على العين. ولهذا، فإن أي ألم تتعرض له القرنية هو بمثابة خط إليكتروني ساخن للمخ.

وشاهدتُ ذات مرةٍ سلسلةً عالمية من مباريات البيسبول قد تعطلت لسببٍ بسيط، وهو أن هدّاف الفريق دخلت في عينه شعرة منْ رموشه فشوشرت على الرؤية. فالتف حوله بعض المسئولين وحكم المباراة وتمكنوا من إخراج الشعرة من عينه. ولم يتمكن من المشاركة في المباراة حتى أزال مصدر الألم. ومثل هذه الشعرة (شعرة رمش العين) لو أنها في الأنف أو الذراع أو في أي جزءٍ آخر من الجسم، فلن يلاحظها أو يشعر بها أحد.

المغص الكلوي وحصوات الكُلى والصداع الناتج عن تناول الأيس كريم

إن ما بداخل أجسادنا يعطينا دليلاً أوضحَ عن مدى الذكاء في تصميم أجسادنا. فمشكلة الدبوس والحروق الناتجة عن الحرارة، هي أفضل مقياس تقني لدى العلماء لقياس الألم على سطح البشرة والتي لا أثر لهما على الأعضاء الداخلية التي لا تستجيب لتلك المنبهات. ولماذا؟ ولأن

الجسد قد عيّن البشرة لتستجيب سريعًا للجروح والحروق والضغوط، فالأعضاء الداخلية يمكنها أن تستمر في العمل بدون مثل هذه الأنظمة التحذيرية.

ابتعد عن البشرة ودفاعاتها واستخدم مخدرًا موضعيًا، وسيمكنك أن تحرق المعدة بعود ثقاب، أو تغرس دبوساً في الرئة أو تقطع المخ بمشرط أو تعصر الكلية بملزمة (جهاز خاص بذلك) أو تحفر في العظام، كل هذا يحدث بدون أي ألم للمريض. فمثل هذه العلامات الداخلية للألم زائدة عن الحاجة، فالبشرة والجمجمة تحميان الأعضاء الداخلية من مثل هذه الأخطار.

إن الأعضاء الداخلية في الجسم لديها مجموعة من متقبلات الألم تحميها من المخاطر التي تواجهها. فإذا وضع طبيب داخل معدتي بالوناً مملوءًا بالهواء ليضخّم معدتي قليلاً، فسوف تصل رسائل عاجلة من الألم إلى المخ سواء ألم المغص أو الغاز. فشبكة الألم الخاصة بالمعدة مصمَّمة لكي تحميها من مخاطر محددة. وبالمثل، فالكلية ترسل إشارات مؤلمة عندما توجد بها حصوة من حجم BB. والغضاريف التي تبطن المفاصل، وهي غير حسَّاسة للإبرة أو السكين، وفي نفس الوقت هي ذاتها حساسة للغاية لبعض الكيماويات.

وفي مناسبات نادرة، يجب على العضو الداخلي أن ينبّه المخ عن أي أمر طارىء وأن أجهزة الألم الحساسة ليست على استعداد للعمل. كيف يمكن لهذا العضو أن ينبه المخ للخطر الذي يشعر به؟ في هذه الحالة يستخدم العضو ظاهرة الألم المرتجع موظفاً أجهزة الإحساس بالألم القريبة منه لتوصيل الإنذار. فمثلاً، قد يلاحظ الذين تهاجمهم الأزمة القلبية آلامًا شديدة في العنق والصدر والفك والذراع الأيسر. وهنا، تضطر خلايا البشرة لأن ترسل رسائل الخطر إلى المخ كما لو أنها دُمرت، في حين أن المشكلة هي في القلب، العضو المجاور لها. وبهذه الطريقة "تُرضي" البشرة إحساساتها بالألم للقلب كمحطة إنذار بديلة.

وأي شخص أكل آيس كريم بطريقة سريعة في يوم حار، قد يمر بنفس الظاهرة مشابهة. فيبدأ الصُداع فجأةً خلف العين مباشرة. وبالتأكيد لم يدخل الآيس كريم الجبهة. ولكن الذي حدث، أن العصب المعدي أرسل إشارات البرودة الناتجة عن الأكل السريع للآيس كريم إلى المخ وتفاعلت كل عضلات وأعضاء الرأس وقفز الألم من عصب إلى آخر وشعر الشخص بالبرودة التي في معدته وكأنها في رأسه فسببت له هذا الصُداع.

إن غموض الألم المرتجع يمكن أن يُوضح بعض التشخيصات الطبية المتحدية والكبيرة. فأحياناً نشعر بإصابات الطحال على طرف الكتف الأيسر. كما أن آلام المصران الأعور قد تستعير الإحساس بالألم في أماكن مختلفة من البطن. وتسبب إصابات الرقبة آلاماً في الذراع. وكل هذه الأمثلة توضح كيف أن نظام الدفاع في الجسم تتعاون كل خلاياه للتحذير من أية إصابة ممكنة.

وتحتوي المكتبات الطبية على العديد من المجلدات المملوءة بالحقائق المذهلة عن عمل شبكة الألم بالجسم، وقد ذكرت مجرد بعض الأمثلة البسيطة. مثل هذه الحقائق ـ التوزيع الدقيق لخلايا الألم، مقدار الضغط على مختلف الأعضاء، بدايات الألم، ونظام الحماية من الألم المرتجع ـ تقنعني بأن شبكة الألم لم تُوضع بالصدفة.

إن الألم ليس مجرد فكرة طائشة أو كما يعتبره البعض بأنه خطأ الله العظيم. بل على العكس من ذلك، فهو يكشف التخطيط أو التصميم المذهل الذي يخدم أجسادنا ويحميها. إنه ضروري للحياة العادية مثل أهمية البصر للإنسان وأهمية الدورة الدموية أيضاً. فبدون الألم ـ كما سنرى في الفصول التالية ـ سوف تمتلىء حياتنا بالخطر وتُحرم من الكثير من المسرَّات.

ولكن هل من الضروري أن يكون مؤذيًا؟

إن إعجابي وتقديري للجوانب الهندسية لشبكة الألم تعود إلى بداية صداقتي مع د. بول براند. فقد تعرفتُ على اسمه بالصدفة في عام ١٩٧٥ عندما كنتُ أبحث في موضوع الألم. لقد قرأت العديد من الكتب في هذا الموضوع. ولكن في أحد الأيام وجدت زوجتي ـ التي كانت تنقب في خزانة في صيدلية بالصدفة عن كتيِّب بعنوان غير عادي "موهبة الألم". وكان مؤلفه هو د. براند. وبعد فترة وجيزة التقينا معًا في لويزيانا، ومنذ ذلك الوقت تعاونًا معًا وكتبنا كتابين وهما "على صورته *In his Isage*" والكتاب الثاني "*Fearfully & Wonderfully* Moede".

لقد تمتع د. براند بسمعة وشهرة كبيرة في المجال الطبي وحصل على جوائز من مؤسسات هامة مثل *Albert Lusker Foundation, U.S.Public Health Serwice* ومن ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية التي أعطته لقب "قائد الإمبراطورية البريطانية *The Commander of The British Ewpire*. ومع ذلك ـ وللغرابة ـ فقد حصل على هذه السمعة الطبية من أحاديثه الهامة عن الألم. وبدون أي تردد، أعلن د. براند "شكراً لله لأنه اخترع الألم. لا أعتقد أنه فعل شيئاً أفضل من ذلك. إنه أمر جميل". وكواحد من أكبر الخبراء في مرض الجذام ـ وهو مرض يصيب الجهاز العصبي ـ فهو مؤهّل تماماً لكي يُدلي بمثل هذا التصريح والحكم.

وفي إحدى المرات تلقى د. براند منحة قدرها بضعة ملايين من الدولارات بغرض تصميم جهاز ألم صناعي. وهو يعلم أن المصابين بمرض الجذام والسكر في خطر شديد من جراء فقدان أصابعهم أو أطرافهم وذلك لأن جهاز تحذيرهم من الألم لا يعمل. وهم بذلك يدمرون أنفسهم دون أن يعلموا. وربما كان بإمكان د. براند تصميم جهاز بسيط كبديل يمكن أن ينبّههم من الأخطار التي تحدق بهم.

وفي هذا الأمر، كان على د. براند أن يفكر مثل الله الخالق، ومتوقعاً ماهي احتياجات الجسم. وللمساعدة اتفق مع ثلاثة أساتذة: في الهندسة الاليكترونية، ومهندس في البيولوجي والعديد من الباحثين في الكيمياء الحيوية. وقرر الفريق التركيز على أطراف الأصابع وهي أجزاء الجسم الأكثر استخداماً ولهذا فهي أكثر عرضة لإساءة الاستعمال. وطوروا نوعاً من العصب الصناعي وهو بمثابة محول للطاقة حساس للغاية ويمكن لبسه باليد كالقفاز. وعندما يتعرض للضغط، يُرسل هذا العصب الاليكتروني تياراً كهربياً والذي يديره يطلق علامة تحذير.

وواجه د. براند ومساعديه مشاكل فنية كبيرة. وكلما ازدادت دراستهم للأعصاب، كلما ازداد عملهم تعقيداً. بأي مستوى من الضغط يجب على جهاز الإحساس أن يوجه تحذيره؟ كيف يمكن لجهاز الإحساس الصناعي أن يميز بين الضغط المقبول وغير المقبول؟ كيف يمكن تثبيته ليسمح بممارسة أنشطة مثل لعب التنس؟

وأدرك د. براند أيضاً أن الخلايا العصبية تُغير منظورها عن الألم لكي تقابل وتسدد احتياجات الجسم. وبسبب الضغط الناتج عن الالتهاب يمكن للأصبع المصاب أن يكون حساساً للألم عشرة أضعاف الإحساس العادي. ولهذا السبب، فالأصبع المتورم يشعر بالخطر وكأن الجسم يطلب منك وقتاً لتساعده على الشفاء. وترفع الخلايا العصبية صوتها عالياً طلباً للشفاء. واستطاع هؤلاء العلماء الذين حصلوا على هذا التمويل الجيد أن يضاعفوا هذا العمل البطولي مع التكنولوجيا الحديثة.

ويكلف جهاز الإحساس الصناعي مبلغ ٤٥٠ دولاراً للجهاز ويمكن أن يحمي يداً واحدة أو قدماً واحداً، ولكن كل جهاز جديد سوف يبلى ويتآكل بسبب الأكسدة بعد استعماله لبضع مئات من المرات. وكل شهر يحوز د. براند وزملاؤه على التقدير الكبير لهذا الجهاز الهندسي لشبكة الألم بالجسم الإنساني، والتي تحتوي على عدة مئات من الملايين من الأجهزة الحساسة والتي تعمل على صيانة نفسها بنفسها خلال حياة الإنسان الذي يتمتع بصحة جيدة.

وفي بداية الأمر، بحث د. براند عن طريقة لجعل جهاز الألم الصناعي يعمل بدون أن يؤلم المريض. وقد قرأ شكاوي العديد من الفلاسفة ضد العالم المخلوق. لماذا لم يخلق الله جهازاً عصبياً يحمينا ولكن بدون جوانب الألم؟ وكانت هذه فرصته لتحسين التصميم الأصلي بنظام حماية لا يسبب الألم.

في البداية، حاول فريقه أن يُرسل إشارةً سمعية من خلال سمّاعة إشارة تحدث صوتاً عندما تتلقى الأنسجة الضغوط العادية ثم يرتفع الصوت عندما يقترب الخطر. ولكن كان من السهل تجاهل هذه الإشارة. فإذا ربط مريض بيدٍ مصابة مسماراً بالمفك بقوة وتوقفت إشارة التحذير العالية، فسوف يتجاهلها ويستمر في عمله. وحدث هذا مرات عديدة. أما الناس الذين لا يشعرون بالألم فلا يمكن إقناعهم لكي يثقوا في هذا الجهاز.

ثم تلا ذلك محاولة الفريق عمل ومضات ضوء، ولكنهم تخلصوا منها بسرعة لنفس السبب. وأخيراً لجأوا إلى الصدمات الكهربية وذلك بطرق القطب الكهربائي لتسكين الجزء الحساس بالجسم مثل الإبط. وكان لابد من إجبار الناس على التجاوب، إذ لم يكن التنبيه للخطر كافياً. وكان على الحافز أو المنبه أن يكون غير سار تماماً مثل الألم.

ويقول د. براند: "واستنتجنا أيضاً أن الإشارة يجب أن تكون سهلة الوصول بالنسبة للمريض، فحتى الأذكياء من الناس إن أرادوا أن يفعلوا شيئاً قد يتسبب في تنشيط الصدمة، فسوف يُطفئون الجهاز، ثم يفعلون ما يريدون، ثم يشغلونه ثانية عندما لا يكون هناك أي خطر من تلقّي إشارات غير سارة. إنني أتذكر كيف فكرت في مدى قدرة الله العظيمة في وضعه للألم بعيدًا عن قدرة الإنسان للوصول إليه".

وبعد خمس سنوات من العمل لآلاف الساعات وإنفاق ملايين من الدولارات، تخلى براند ومعاونيوه عن المشروع تماماً. فجهاز إنذار يصلح لاستعمال يد واحدة هو

مكلف للغاية، وقد يتعرض للكثير من الأعطال الميكانيكية وغير كاف لإيقاف الحساسية الشديدة. والنظام الذي أحياناً يطلقون عليه "الخطأ العظيم الذي ارتكبه الله" معقد للغاية حتى أن أكثر التكنولوجيا تقدماً لا تستطيع أن تقلده.

ولهذا يقول بول براند بكل الصدق والأمانة "شكراً لله من أجل الألم" وقد نُعرِّف الألم بأنه شيء غير سار ولكنه هو الذي يجبرنا بأن نسحب أصابعنا عن الموقد. وهو الذي يحمينا من الدمار. ومالم تتطلب إشارة التحذير استجابة، قد لا نلتفت إليها.

إستمع إلى ألمك

إن الاستجابة النموذجية للأمريكيين تجاه الألم هو أخذ قرص من الأسبرين عندما يشعرون بأقل نوع من الألم لإسكاته. وهذه الطريقة تتعامل مع أعراض المشكلة. ونحن لا نستطيع إيقاف نظام التحذير بدون الاستماع إلى التحذير ذاته.

ومن الأمثلة التراجيدية لشخص لم يلتفت إلى التخدير الذي ظهر، أنّ لاعبًا في فريق كرة سلة وهو نجم يدعى بوب يروس أراد أن يلعب مع فريقه بالرغم من إصابته البالغة في الكاحل. ولأن يروس كان لاعباً مهماً للفريق، فقد حقنه الطبيب بدواء Marcaine وهو قاتل للألم وحقنه في ثلاثة أماكن مختلفة في قدمه. وبدأ يروس اللعب في المباراة، ولكن بعد بضع دقائق وهو يجري في الملعب سُمعت صرخة وسقط يروس على أرض الملعب. بالرغم من أنه لم يشعر بألم، فقد كُسرت عظمة الكاحل. وعندما حاول الطبيب أن يُبطل ويلغي تحذيرات الألم بالمخدر، تسبب ذلك في كسر قدم يروس وتوقف عن اللعب تماماً.

والألم ليس خطأ عظيمًا من قبل الله كما يقول البعض. بل إن الإحساس بالألم هو هبة من الله ولكن لا يريدها أحد. وأكثر من أي شيء آخر، يجب أن ننظر إلى الألم على أنه شبكة اتصالات. ومثلما أنقذني جهاز الإنذار من

فقدان توازني عندما كنت في حفل الأوركسترا، فكذلك تقف شبكة جهاز الإحساس بالألم بغرض الحماية من أية إصابة تهدد الإنسان.

هناك فرق بين الإحساس بالألم والألم في حد ذاته، فأحياناً يتحول الألم إلى بؤس شديد. فالشخص الذي يعاني من الشلل والتهاب المفاصلِ أو السرطان يتمكن منه الألم بقوة حتى أن أية لحظة يشعر فيها بالراحة تجعله وكأنه يحيا في السماء. ولكن بالنسبة لمعظمنا، فإن شبكة الألم هي بمثابة حماية يومية لنا. لقد صممها الله بطريقة مؤثرة للإبقاء على الحياة على هذا الكوكب الذي يبدو رديئاً في بعض الأحيان.

ويقول د.براند:"إن الشكوى الوحيدة المشروعة التي يمكن أن تثيرها ضد الألم هي أنه لا يمكن إيقافه. فيمكن أن يصبح خارج نطاق السيطرة، مثل حالة مريض السرطان، الذي على الرغم من أنه سمع التحذير، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لعلاج الألم. وكطبيب يمكنني القول بأن أقل من ١ ٪ من الألم هو من هذا النوع الذي لا يمكن السيطرة عليه. ٩٩ ٪ من كل الآلام التي يعاني منها الناس تستمر لفترة قصيرة ويمكن علاجها بالأدوية أو الراحة أو تغيير أسلوب الحياة".

والفكرة المدهشة التي تقول بأن "الألم هبة" لا تجيب على الكثير من المشاكل المرتبطة بالمعاناة. ولكنها تُعتبر نقطة البداية لمنظور واقعي وحقيقي عن الألم والمعاناة. وكثيراً ما تمنعنا الصدمة العاطفية التي يسببها لنا الألم الشديد عن إدراك قيمته الحقيقية.

"الذي لم يختبر الجُرح يسخر من آثاره"

وليم شكسبير، روميو وجولييت

Nice

٣

جحيم بلا ألم

إن كنا نعاني من ألم فنحن لا نريده. لماذا أنفق د. براند وشركاؤه وقتاً طويلاً ومزيداً من الطاقة في تجاربهم لمحاولة خلق الألم لكي يوقفوه؟

لقد تعلُّمت الكثير من الحقائق عن تصميم شبكة الألم. وأرى أنها "هبة" من الله. ولكن المعرفة بمفردها لم تكف للتغلب على مقاومتي الغريزية للألم. وكانت لديّ شكوك قوية حتى أمضيتُ أسبوعاً في لويزيانا مع د. براند، صاحب الحملة ضد الألم.

بدأ د. براند في تقييم قدر الألم بمعيشته وسط مرضى الجزام. وهو الذي اكتشف أن مرضى الجذام يعانون من هذا المرض لسبب بسيط وهو أن لديهم عيبًا في جهاز أو نظام الألم.

وكلمة جذام تستحضر لأذهاننا صورًا مبالغًا فيها مثل: أصابع متآكلة وقصيرة، جروح متقيحة، أرجل مقطوعة، ملامح وجه مشوهة. وقد صورت لنا القصص وأفلام السينما مثل Ben Hur، Papillon مرض الجذام على أنه يسبب عذاباً وألماً لا يُحتمل. إنه من أقدم الأمراض

وأكثرها إثارة للخوف والفزع. ولقرونٍ طويلة كان على المرضى أن يصرخوا "أبرص أبرص" عندما يقترب إليهم أي شخص.

وصحيح أن مرض البرص مرض قاسٍ ولكن ليس بقسوة معظم الأمراض. ومن بادئ الأمر هو يعمل كالمخدر ويهاجم خلايا اليد المتألمة والأقدام والأنف والآذان والعيون ويُفقد الاحساس. وقد يعتقد أحدهم أنه ليس بهذا السوء. والناس تخشى معظم الأمراض بسبب الألم الذي تسببه، فما الذي يجعل مرضاً بلا ألم مرعباً بهذا القدر؟

ومع ذلك، فصفة فقدان الحس لهذا المرض هي التي تتسبب في تدمير الأنسجة. واعتقد الناس لآلاف السنين أن المرض ذاته يُسبب القرحة التي تصيب الأيادي والأقدام والوجه والتي قد تؤدي إلى العدوى وفقدان الأطراف. وأثبتت أبحاث د. براند التي أجراها في الهند، أن هذا الرأي رأي خاطيء. وأن السبب في تدمير الأنسجة هو أن جهاز التخدير من الألم في الجسم قد تعطل.

كيف يظهر هذا الأذى أو الضرر؟ سأل د. براند نفسه هذا السؤال آلاف المرات وهو يعالج الأيادي المريضة بالجذام للقرويين الهنود. وبدا له الأمر كما لو أنه معركة خاسرة. فكان يضمد الجراح ويربطها ولكن يعود المرضى بعد بضعة شهور وهم يعانون من أضرار أكثر. ومثل كل الذين عملوا في مجال هذا المرض، افترض أن المرض يعمل مثل الفطر إذ يدمر الأنسجة بلا تمييز.

وبدأ د. براند يسأل مرضاه عن أية أنشطة يقومون بها قد تساعد على نمو المرض. وفي إحدى المرات شاهد وهو مرتعب شخصًا مصابًا بالجذام مد يده إلى فحم مشتعل ليأخذ حبة بطاطس تركها أحدهم. وبدأ يعالج القروح في يد المريض والتي تسبب فيها الفحم المشتعل وليس البرص. ولأن هذه القروي المريض لا يشعر بالألم عرّض نفسه لهذه الإساءة البالغة.

وتتبع د. براند المرضى حول مركز علاج الجذام في الهند. ماالذي سيفعلونه أيضاً لكي يؤذوا أنفسهم؟ ورأى أحدهم يعمل في إحدى الحدائق والدم يسيل من يده، ورأى براند مسماراً يبرز في الخشبة التي يمسك بها الرجل ولكنه لا يشعر به. ومرضى جذام آخرين يلمسون النار بأيديهم أو يسيرون على زجاج مكسور بأرجل عارية. وبدأ د. براند في وضع نظريته الأساسية التي تقول بأن البرص يتسبب أساساً في تخدير المريض وبطريقة غير مباشرة يدمر أنسجته. ومع ذلك، كان يحتاج إلى أدلة أكثر لكي يغير تقاليد طبية استمرت لعدة قرون.

وفي أحد الأيام وسط هذا البحث الميداني، ذهب د. براند ليُحضر بعض الأشياء من مخزن خلف المستشفى. وحاول أن يفتح الباب ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب الصدأ الذي كان يعلو قفل الباب. وفي تلك اللحظة، جاء صبي مريض يعاني من سوء التغذية وعمره عشر سنوات. أحب براند الولد لروحه المرحة وتعاونه.

وقال الولد: "يادكتور... دعني أحاول فتح الباب" وأخذ الولد المفتاح وأداره بالقفل بكل قوة وانفتح الباب. وذهل د.براند. كيف استطاع هذا الولد الصغير والضعيف والمريض أن يفتح الباب بكل هذه القوة؟.

ورأى د.براند بعينيه السبب. هل هذه نقطة دم على الأرض؟ وعندما فحص أصبع الولد اكتشف أنه عندما ضغط على المفتاح تمزق لحمه حتى العظام ولكن الولد لم يشعر بشيء. وهو أيضاً لا يشعر بأن أصابعه تتقطع عندما يرفع حجراً ثقيلاً أو يثني عُمْلة معدنية بأصابعه.

بعد هذه الحادثة، ضاعف د. براند مجهوداته لكي يختبر نظريته عن البرص على أنه سبب ثانوي وليس أوليًا للإصابة. وبدأ يقيس أصابع مرضاه كل يوم وحاول معرفة سبب كل قرحة وقطع. وعلم أن مرضاه يعيشون في خطر داهم لأنهم لا يشعرون بالمرض.

أما إصابات القدم فهي سهلة التفسير. فإن التوى كاحل

وتمزقت الأربطة والعضلات، فبكل بساطة سوف يتكيف ويمشي وهو يعرج مستنداً على عصا. فجهاز تحذير الألم في جسمه لم يعلن له أنه بحاجة إلى راحة كامله أو أنه في احتياج لأن يذهب للطبيب للعلاج، وبذلك سوف تصبح الإصابة دائمة. ومع ذلك، فمعظم الإصابات المحيرة تظهر بالليل. كيف تختفي أجزاء الأصابع والأطراف والمرضى نيام؟ ووجد د.براند الإجابة: فالفئران تأتي إلى العنابر الموجودة في الهواء الطلق وتقضم أطراف المرضى وأصابعهم وهم لا يشعرون بالألم. ولذلك أمر د. براند بأن كل مريض يترك المستشفى يأخذ معه قطة للحماية الليلية.

وعندما استمعتُ لهذه القصص المرعبة من د. براند، فهمت بسهولة قوله:"شكراً لله من أجل الألم". فبالنسبة له يمثل"الألم" موهبة الله العظيمة والتي لولاها ما استمر في أبحاثه وساعد الكثيرين من المرضى عبر كل العالم. ازاد د. براند أن يشاركها مع خمسة عشر مليون مريض بالبرص في الهند.

وبعدما قضى د. براند عشرين عاماً في الهند، انتقل إلى مركز أبحاث الجذام في مستشفى كارفيل في لويزيانا. وهناك برعاية خدمة الصحة العامة.

والتقيت بدكتور براند لأول مرة في مستشفى كارفيل، وكانت زيارةً قد غيرت للأبد تفكيري عن الألم. وبسبب الآثار السيئة التي يتركها المرض، فقد اشتروا الأرض بادعاء أنها ستكون بحيرة للبط حتى لا يشك السكان في المشترين وغرضهم الحقيقي وتبلغ مساحة الأرض ٣٣٧ فداناً، وتحتوي على ملاعب للجولف ومنتجعات طبية حديثة. والآن يقوم الناس بزيارتها في رحلات ثلاث كل يوم.

ويتمتع المكان ببيئة ممتعة ومبانٍ معدة للمرضى الذين يستخدمون الكراسي المتحركة، ويتمتع المرضى بعلاج مجاني وأفضل الأدوية والرعاية الطبية. وتمكنوا من السيطرة على المرض الآن ومعظم الحالات يمكن

علاجها في مراحلها الأولى. ولكن الأمر المرعب في الأمر كله والذي مازال موجوداً، هو فقدان الشعور بالألم. بُنيت المستشفى في مكان بعيد يصعب الوصول إليه. وقد بُنى المستشفى في عام ١٨٩٠ على أرض كانت مستنقعاً بالقرب من شواطيء المسيسبي.

زيارة إلى كارفيل

قمت بزيارة مريض في عيادة كارفيل. وفي حلقة نصف دائرية جلس د. براند وطبيبان وممرضة وأمامهم شاشة كمبيوتر. وقاموا معًا بفحص ثلاثة مرضى يعانون من مشاكل صحية.

دخل المريض الأول وهو من هاواي واسمه Lou، ولاحظتُ أنه يعاني من تشوهات أكثر من أي مريض آخر في المكان. وقد حضر إلى مستشفى كارفيل في مرحلة متأخرة من المرض، إذ قضى المرض على جفون العين ورموشها مما شوه منظر الوجه. وتسيل الدموع بصفة دائمة كما لو أنه يبكي باستمرار.

وأخبرني د. براند أن "لو" أصبح أعمى بسبب نقص إحساسه بالألم مما تسبب في إيقاف عمل الرموش التي تغلق وتفتح وبسبب هذا جفت الدموع تدريجياً. إن منع العمى هو التحدّي الحقيقي في كارفيل. وبعض المرضى فقدوا بصرهم لأنهم غسلوا وجوههم بأيدي فقدت الإحساس ولم تحذرهم من المياه المغلية التي يستخدمونها وذلك لفقدان مراكز الاحساس بالألم لوظيفتها.

وبالإضافة إلى معاناته من العمى، كان "لو" يعاني من آثار جانبية كثيرة كنتيجة لمرض البرص فتآكلت قدماه وأصبحتا بدون أطراف بسبب إهمال الإصابات والعدوى. وامتلأت يداه بالشقوق والبثور. ولكن مشكلته الرئيسية التي جاء من أجلها إلى المستشفى هي مشكلة نفسية أكثر منها جسدية.

شعر "لو" بأنَّ باباً قد أُغلق بينه وبين العالم. فلا يستطيع

أن يرى الناس. ولأنه فقد الإحساس فلا يشعر بأي ملامسة إنسانية. وآخر حاسّة لديه لم تتأثر بالمرض هي حاسة السمع وهذا هو مصدر خوفه. فهم يجربون معه عقاراً جديدا للعلاج ولكنه يؤثر على السمع.

وبصوت مرتعش أخبر "لو" المجموعة أنه يحب كثيراً آلة Autoheerp ويمكنه أن يعزف عليها بعض الألحان التي تعلمها في طفولته وأحلامه عندما كان صغيراً. ولأنه كان مؤمناً تقياً، فقد رنم ترانيم شكر لله وكان يتطوع بالترنيم في كنيسته. ولكي يلعب على آلته الموسيقية، كان عليه أن يطرقها بإبهامه الذي مازال ينبض ببعض الإحساس. واستطاع أن يميز الاختلاف في النغمة ليختار الوتر الصحيح.

ولكن إبهامه لم يكن به حساسية كافية تمكنه من الضغط العالي. ولأنه كان يعزف لساعات طويلة تضرّر إبهامه وظهرت به بعض القروح، وكان يخشى المجيء إلى العيادة حتى الآن وتساءل: "هل بمكنكم أن تجدوا طريقة تساعدني على الاستمرار في اللعب على آلتي الموسيقية بدون فقدان يدي؟".

وفحصت لجنة الأطباء يد "لو" على الشاشة واستخدموا جهاز الرسم الحراري، وهو الجهاز الذي تستخدمه الأقمار الصناعية.

وعلى الجهاز ظهرت يد "لو" كما لو أنها مخدرة ذات لون أخضر ضارب إلى الصفرة. وأكثر الأجزاء برودة تظهر على أنها خضراء أو زرقاء. أما اللون الأحمر، فهو إشارة إلى وجود عدوى: واندفع الدم إلى الموقع ورفع درجة الحرارة. واللون الأصفر أيضاً يشير إلى خطورة شديدة. وكان من السهل عليهم أن يروا الجزء المتبقي والنافع في إبهام "لو"، لأن الاستخدام المستمر سبب الالتهاب في كل المنطقة وهو الآن يظهر باللون الأصفر الملتهب.

وقد أحدث هذا الجهاز ثورة في العلاج بمستشفى كارفيل لأنه ولأول مرة قدم نوعاً من نظام الإنذار لمن لا يشعرون

بالألم. ولكن لسوء الحظ فإن هذا الجهاز يكتشف الخطر بعد فترة الضغط والمعاناة وليس أثناءها. فالشخص الذي يتمتع بجهاز إنذار صحيح يطلب العلاج فوراً لحظة شعورة بالألم. ولكن "لو" لم يتمتع بهذا الامتياز. فهو لن يعرف متى تدمر العدوى الجزء المتبقي النافع في إبهامه.

وصممت اللجنة الطبية قفازاً مناسباً ليد "لو" ليريحه أثناء العزف. وأعطاه د. براند محاضرة عن حاجة إبهامه إلى الراحة وأن يلبس القفاز طوال الوقت وأن يحضر للمستشفى كل بضعة أيام. ولكن بعد ما ترك "لو" المستشفى، عبّر أحد الأطباء عن تشاؤمه وقال: "إن "لو" يكره القفاز. فسوف تلفت النظر إلى يده، وسيفقد الملامسة الطبيعية لآلته الموسيقية، وربما يستخدمه ليوم واحد ثم يتخلص منه".

وبدأ "لو" في الابتعاد عن الناس لأنه فقد النظر والسمع وتلاشت تدريجياً لدية حاسة اللمس. وبدأ حُبه للموسيقى يتبدّد. وربما يأتي للمستشفى بعد بضعة أسابيع لأن العدوى قد تقضي على الجزء الحساس المتبقي في إبهامه بل وقد يفقد إبهامه. ولأن جهاز إنذار الألم في جسده لا يعمل، فقد لا يأتي "لو" إلى المستشفى طلباً للعلاج.

ممسحة وحذاء

دخل الغرفة مريض آخر يدعى هتكور. وعلى الرغم من عدم وجود تشوهات في وجهه كتلك التي كانت لدى "لو"، إلا إنني أحاول التحكم في انفعالاتي عند رؤية هؤلاء المرضى. فقد تعودت الآن على رؤية الألوان التي تظهر على شاشة الجهاز عند فحص المرضى. وكان وجه هتكور ذا لون أزرق. وعندما لاحظ د. براند انفعالي همس في أذني قائلاً: إن هتكور أظهر مقاومة لعقار Sulfone الذي نستخدمه في علاجهم ويستخدم فريق العلاج دواءاً جديداً وتصادف أنه ذا لون أزرق. وقد فقد هتكور أجزاءً من لحمه بسرور (بسبب تجربة العلاج الجديد) أملاً في إيقاف انتشار البرص في باقي جسمه.

وأجاب هتكور - وهو مريض متعاون للغاية - على كل أسئلة اللجنة التي تعالجه بجدية وعمق وبلهجة سكان تكساس. ولم يعان من أي مشاكل منذ آخر فحص أجرى له. ومع ذلك، فإن جهاز الفحص أظهر لوناً أحمر وهو دليل على وجود بقعة حمراء خطرة في الأنسجة بين الإبهام والأصبع الأمامي. وجزء صلب في إصبعه كان يُخبأ علامات خارجية للمرض ولكن تحت كل هذا يوجد تقيح.

وسألته اللجنة في محاولة لمعرفة نشاطه اليومي. كيف يحلق ذقنه؟ ويرتدي حذاءه؟ هل يعمل؟ هل يلعب الجولف؟ وعرفوا من خلال الحديث، أنه أثناء اليوم يقبض على شيء ما بكل حزم وشدة بين الإبهام والسبابة. ولو لم يكتشفوا هذا الأمر ويحذرونه منه، لتدهورت حالة يده.

وفي النهاية، تعرف هتكور على المشكلة. فبعد عمله كل يوم على خزينة الكانتين، كان يساعدني في نظافة المكان. واتضح أن حركة يده للأمام والخلف وهو ممسك بالممسحة قد قضت على الإحساس عند عصر الممسحة، كل هذا تسبب في تدمير الأنسجة الداخلية للإبهام. وبهذا تغلبوا على المشكلة.

وشكر هتكور مجموعة الأطباء. وطلب أحد الأطباء من مشرف الكانتين أن يُسند لهتكور عملاً آخراً.

وجاء مريض آخر يُدعى جوزيه والذي كان يرتدي ثياباً فاخرة. فالبنطلون به ثنايا ظاهرة والقميص من القطن والحذاء أسود اللون له شكل تجبيري مشوه لم أر مثله.

وكان حذاء جوزيه هو المشكلة. وهو يرتدي بدقة تصل إلى حد الوسوسة لأنه يعمل طوال الوقت كبائع للأثاث في كاليفورنيا. وحاول الأطباء إقناع جوزيه بأن يستعمل حذاءً أكثر راحة لقدميه ولكنه رفض. فوظيفته ومظهره أكثر أهمية من حالة قدميه.

وعندما خلع الحذاء والشراب شاهدتُ أسوأ إصابة

شاهدتها على الإطلاق. وبعد سنوات من هذا المرض، امتص جسمه نسيج العظام وهو يسير الآن على ما تبقى منها ويسير مثل شخص أعرج. وأظهر جهاز الفحص أن المشكلة ما زالت قائمة. ولفت د. براند انتباه جوزيه إلى البقع الصفراء اللامعة التي تُظهر مدى شدة المرض.

ومن الطبيعي أن مثل هذا الشخص يغير طريقة السير ويستخدم حذاءاً جديداً أكثر راحة لقدميه. ولكن جوزيه لم يشعر بمدى خطورة المشكلة ورفض بأدب نصيحة الأطباء كما رفض حذاءهم الطبي الذي اعتبره حذاء تدريب للأعرج. وكانت ملامح الوجه واليدين عادية، وأصر على أنه لن يدع قدميه تخونانه.

وأخيراً، استدعى د. براند صانع الأحذية وطلب منه عمل بعض التعديلات التي يمكن أن تريح قدميه بعض الشيء.

وفي نهاية مواعيد العيادة وبعد أن غادر آخر مريض، قال د. براند: "إننا ننظر إلى الألم على أنه المانع العظيم لسعادتنا. ولكنني أرى أنه يعطي الحرية. انظر إلى هؤلاء الرجال. لقد حاولنا جديًا أن نساعد Lou على اللعب على آلته الموسيقية (Autoheerp). كما أن هتكور لم يتمكن من تنظيف الكانتين بدون أن يؤذي نفسه. وجوزيه لم يتمكن من ارتداء ما يشاء. ولهذا، كان بحاجة إلى هبة الألم".

لامبالاة مميتة

البرص ليس هو المرض الوحيد الذي يُعطل الواقي من الألم. فقد طبقت الأبحاث في مركز كارفيل على حالاتٍ مرضية أخرى تعوزها الحساسية. وفي حالات متقدمة، فقد مرضى السكر الإحساس بالألم وواجهوا نفس المخاطر. وفقد الكثيرون أصابعهم وأطرافهم كنتيجة لإصابات خطيرة. كما أن مدمني الخمر والمخدرات يمكن أن يقضوا على حساسيتهم: وفي كل فصل شتاء يموت البعض من مدمني الخمورمن جرّاء تعريض أجسادهم للبرد القارس.

ومع ذلك، فقد وُلد بعض الناس بشبكة ألم معصوبة، وجاء البعض منهم إلى كارفيل طلباً للعلاج. كما أن ضحايا الحالة النادرة التي تُعرف باسم "اللامبالاه الفطرية (الخلقية) للألم" لديهم نظام تحذير من نفس النوع إذ لا يشعرون بالألم. وبالنسبة لهم، فإن وضع اليد على موقد مشتعل يعطي نفس الإحساس عند تمريرها على أسفلت الطريق.

وهذه اللامبالاه الفطرية تطرح مشاكل خطيرة في تربية الأطفال. فقد أخبرتنا إحدى الأسر عن حادثة مرعبة حدثت عندما ظهرت لدى ابنتهم الصغيرة أسنان أربع. فعندما سمعت الأم طفلتها في الغرفة المجاورة تضحك، ذهبت لتراها فلعلها اكتشفت لعبة جديدة تلهو بها. ولكن الأم صرخت بأعلى صوتها لأنها رأت طفلتها قد قضمت طرف أصبعها وتلعب في الدم الذي يسيل من الإصبع.

كيف توضح خطر أعواد الثقاب والسكاكين والأمواس لمثل هؤلاء الأطفال؟ وكيف تعاقبهم؟ فعندما رأت البنت الصغيرة مدى تأثير ما فعلته على أمها بدأت تلعب بعدم اكتراث. وكلما حاولت الأم منع ابنتها من أن تفعل شيئًا ما، فإنها كانت تضع إصبعها في فمها وتقضمه. وإلى أن بلغت سن السادسة عشر كانت قد قضمت كل أصابعها.

وقد سجلت القصص الطبية حوالي مائة حالة من مثل هذه الحالات الخطيرة. فقد أمسكت طفلة عمرها سبع سنوات بأنفها وحركتها بعنف حتى تقيحت ثقوب أنفها. وفي نوبة غضب، قامت فتاة إنجليزية تبلغ من العمر ثماني سنوات بخلع كل أسنانها ماعدا ثمانية وأخرجت عينيها من مقلتيهما. ومثل هؤلاء الأطفال المرضى يمكن أن يدفعوا دبوساً في أصابع أصدقائهم.

ولكن عدم الإحساس بالألم يحكم على مثل هؤلاء الناس بأن يعيشوا في خطر دائم. فيمكن أن يقوم بليِّ الرسغ أو الكاحل دون أن يدري أو يقضم لسانه أثناء مضغ اللبان. كما يمكن أن تتدهور حالة المفاصل لأنهم يفشلون في رفع

ثقل أثناء نومهم أو وقوفهم. وقد فقدت سيدة حياتها لأنها لم تشعر بآلام صداع بسيط، وقد كان تحذيراً لأعراض مرض خطير.

ومثل هؤلاء الناس يمكنهم أن يحتملوا الجراحة بدون مخدر، ولكن كيف يعرفون أنهم بحاجة للجراحة؟ وبينما يستطيع الشخص الصحيح أن يشعر بأعراض المرض مقدماً مثل الذبحة الصدرية أو آلام المصران الأعور، فمثل هؤلاء الناس لا يشعرون بشيء. فبينما يستجيب معظم الناس لحُظيًّا للألم، فأولئك الذين يعانون من اللامبالاه الفطرية يجب أن ينتبهوا إلى أبسط الإشارات ويفكروا ملياً في الاستجابة المناسبة. (الإحساس بوخز خفيف في المعدة ... هل هذا يعني أن مصراني الأعور قد انفجر).

وقبل زيارتي إلى كارفيل حاولت الكتب الطبية إقناعي بقيمة الألم. وبدأت أقتنع بهذا - حتى في حالة كلوديا كلاكستون، لم يكن الألم هو أصل المشكلة - ولكن المرض ذاته هو السبب. فكان الألم مجرد الطريقة المخلصة والأمينة للجسم لتخبرها أن الخلايا السرطانية وأشعة الكوبالت هي التي تؤذيها. ولولا هذه التحذيرات، لماتت كلوديا وهي لا تعلم بوجود المرض.

أما الأسبوع الذي قضيته في كارفيل، فقد ترك لديّ ذكرياتٍ لا تُمحى. وفي كل مرة أحاول أن أجدف على الله بسبب الألم، أتذكر "لو" وعيونه التي تدمع باستمرار، والبثور التي في وجهه، وفقدان حاسة اللمس، واشتياقه إلى وسيلة تمكنه من الاستمرار في العزف على آلته الموسيقية وهي حبه الأخير في الحياة. إن الألم يسمح لنا بأن نحيا حياة الحرية والنشاط. وإن كنت في شك من ذلك، قم بزيارة لمركز البرص ولاحظ بنفسك عالمًا بدون ألم.

ليس الألم أمراً سيئاً نحاول تجنبه بأي ثمن. إنه يخدمنا في كل يوم بآلاف الطرق، وهو الذي يجعل الحياة على هذا الكوكب ممكنة. فإن كنا نتمتع بصحةٍ جيدة، تُنبِّهنا خلايا الألم إلى الوقت الذي نذهب فيه إلى الحمام، ومتى نرتدي

أحذيتنا، ومتى نخفف قبضتنا على ممسحة التنظيف، ومتى نرمش بأعيننا. وبدون الألم سوف، نعيش حياة مملوءة بالاضطهاد وعدم القدرة على الدفاع ومواجهة مخاطر لا نشعر بها. والبيئة الوحيدة الآمنة لشخص لا يشعر بالألم، هو أن يمكث في السرير طوال اليوم... ولكن حتى هذا الأمر يسبب قرحة الفراش.

"كم هو فردي واستثنائي هذا الشيء الذي يُدعى السرور والمرح، وكم هو مرتبط بطريقة غريبة بالألم الذي قد نعتقد أنه عكس السرور... ومع ذلك، فالشخص الذي يسعى وراء أحدهما سيضطر لأخذ الآخر... لأنهما جسدان ولكنهما مرتبطان معًا بنفس الرأس".

"سقراط"

٤

الكرب والابتهاج

عندما نُواجه بالحقائق، سوف يعترف معظمنا بأن الألم - البعض منه على الأقل - له غرض وهدف وهو في نفس الوقت مفيد. ولولا جهاز التخدير الذي يمنحه الألم، لظلت المخاطر المختفية هيَ حياتنا اليومية. ومع ذلك فقد نُهمل وننسى العلاقة الوثيقة التي تربط بين الألم والسرور. ويعمل هذان الإحساسان معًا بطريقة قريبة للغاية حتى أنه يصعب علينا التمييز بينهما.

ويعتبر الألم مكوّنًا أساسيًا لخبراتنا الهامة. هل يبدو هذا الأمر غريباً؟ قد يكون هذا، لأن الثقافة الحديثة ربطتنا برسائل مضادة. فقالوا لنا إن الألم هو نقيض السرور. فإن شعرت بصداع بسيط، تخلّص منه فوراً بمزيل سريع وقوي للألم. وإن تساقطت القطرات من أنفك (كنتيجة للبرد أو الإنفلونزا)، استخدم سبراي يمنع ذلك. وإن أصبتِ

بنوع من الإمساك قم بزيارة مخزن أدوية واختر من الأشياء الكثيرة المعروضة نوعًا من الحلوى أو السوائل أو الأقراص أو حقنة شرجية.

وسأعود إلى ما قاله تيلش عندما انتقد الأمريكيين في "نظرتهم القاصرة إلى المعاناة". نحن المحدثون قد عزلنا أنفسنا عن مسار التاريخ البشري، الذي دائماً يقبل الألم كجزء أساسي في الحياة. وحتى عهد قريب عندما كانت تظهر أية نظرة متوازنة للحياة، كان على من يذكرها أن يذكر الأسباب التي جعلته يعتبر الألم أمراً عادياً. والآن يبدو وكأنه يدخل عنوة.

ودعني بسرعة أضيف أنني اشتريت كتلة من اللحم من مخزن للبقالة مكيف الهواء وكنت أرتدي حذاءًا يحمي قدمي من الشوارع الجانبية في شيكاغو. وبعملي هذا أدركت أن مثل هذه الرفاهية تعطيني منظوراً للعالم والألم لم يكن موجوداً في أي قرن آخر ولازال لا يدركه ⅔ سكان العالم. فأنا - مثل معظم الأمريكيين - أميل إلى النظر إلى الألم على أنه إحساس يمكن السيطرة عليه بالتكنولوجيا. وهذه النظرة المشوهة تشجع فكرة أن الألم والسرور على النقيض تماماً. وأسلوب حياتنا يؤكد لنا ذلك كل يوم.

ونأمل جورج والد، الحاصل على جائزة نوبل، في هذه الحقيقة وقال: "إنني الآن أبلغ ٦٩ عاماً ولم أر شخصاً وهو يموت. ولم أكن في منزل فيه شخص يموت. ماذا عن الميلاد؟ وقد دعاني مؤخرًا في العام الماضي طبيب مُولد، كي أرى للمرة الأولى مولد طفل. فكر في هذا الأمر، إنها من أعظم الأحداث في الحياة ولكنها ابتعدت كثيرًا عن تفكيرنا. وأحيانا نأمل أن نحيا حياة مُشبعة عاطفياً في حين أننا نحرص على القضاء على مصادر أعمق للعواطف الإنسانية. إن لم تختبر الألم، يصعب عليك اختبار الفرح".

المخ الذى يعانى من الطنين

يُشبه المخ الإنساني في بعض الجوانب مكبر الصوت الأليكتروني وهو يُنسق السلك الداخل إليه من مصادر مربكة ومحيرة. وبدلاً من ماكينات VCR، وأطباق التسجيلات المضغوطة والأشرطة، لدينا مصادر أخرى داخلة للمخ مثل اللمس والرؤية والسمع والتذوق والشم. وفي الجسم السليم، الألم هو مجرد واحد من مصادر كثيرة داخلة مهيأة لأن تُصدر إنذاراً في حالة وجود أية أمور غير عادية.

فإذا ابتدأ إحساس أي عضو يضعف، فإن المخ أوتوماتيكياً يرفع الصوت عالياً. وأحياناً لا يشعر الأبرص بفقدان حاسة اللمس إلى أن تُفقد تماماً، ويعوض المخ ذلك بزيادة النبضات إلى أن يموت جهاز الإحساس ولا يطلق أية نبضات.

وتحزنني كثيراً الثقافة الحديثة، فبينما تحاول أن تخفض صوت الألم، فإذا بها باستمرار ترفع الصوت من كل المصادر الأخرى. فلدينا آذان: تزعجها الأصوات المرتفعة للغاية حتى نفقد السمع. قارن الموسيقى التي كانت تُسمع مابين القرن ١٩-١٢ بما يسمعه معظم الناس اليوم. ولدينا عيون: يؤذيها العالم بالأضواء المبهرة والألوان الفوسفورية حتى غياب الشمس. ولدينا الأنف: فعندما نشم الرائحة الكيميائية من بيوتنا وذرات التلوث في الخارج، فسوف نندهش من الرائحة التي سيكون عليها العالم الطبيعي الذي نعيش فيه.

نحن نستخدم كلمة "رُجم بالحجارة" للناس الذين تهاجمهم الإحساسات وغالباً بسبب مؤثر كيمائي حتى أنهم كادوا أن يفقدوا الحس تماماً. وأفضل استخدام كلمة "طنين" بعد أن استخدمنا تشبيه مكبر الصوت الذي بالمخ. وفي مثل هذه البيئة ذات التكنولوجيا العالية، من السهل على الشباب أن ينخدعوا بالملذات الكاذبة بدلاً من الحقيقية، وأن يعتبروا الحياة كما لو أنها مباراة فديو، غير معتقدين أنه لا يمكن الوصول إلى السرور إلابذل الجهد والمعاناة. بل يعتقدون أن المتعة والفرح هما شيء يمكن أن تفعله أنت، كأن تذهب مع مجموعة للاستمتاع معًا في حديقة عامة.

وتوضح مشكلة المخدرات في الولايات المتحدة هذا النموذج: إذ تفتح المنبهات الكيميائية لذهن وخيال من يتعاطاها عالماً جديداً لجيل لم يتعلم كيف يُقيّم بطريقة صحيحة العالم الذي نعيش فيه. وليس كافياً أن نسير على شاطيء مستنقع ونستمع إلى أصوات الضفضع والخنافس، ونراقب السلحفاة أو نشتم رائحة الورود البرية حيث الطبيعة الغامضة. وعوضًا عن ذلك، نحن نرى كل هذه الأشياء على شاشة تلفزيون ملون بإشعاع ذي تردد منخفض. ونعتقد أننا وصلنا إلى قمة إفرست ورجعنا، ونحن في الحقيقة لم نتسلق أية جبال.

وإحلال هذه البدائل والأحاسيس الصناعية بدلاً من الطبيعية هي بمثابة ناقوس يدق جسم الإنسان. وإحساساتنا يمكن أن تضمر تماماً مثل العضلات. وقد أثبت العلماء الفرنسيون هذا الأمر في تجربة أجروها في غُرف مظلمة ومنعزلة قام فيها المتطوّعون بالسباحة في مياه فاترة. ولعدم وجود منبه خارجي، لم تجد الحواس ماتنقله للمخ وأصبحت في حالة سكون. وبدأ الناس يقلقون ويتضايقون وبعد فترة وجيزة بدأ وافر الهذيان. وكذلك الطيارون على ارتفاعات عالية والحرّاس العسكريون في الأماكن المنعزلة يعانون من الهلوسة والهذيان. وعندما يُحرم المخ من أية إشارات حساسة من الجسم يختلق إشاراته الخاصة.

وعلى الجانب، الآخر فمن خلال الاستخدام المنتظم، يمكن لحواسّنا أن تنمو وتزداد استجاباتها. وكذلك الأعصاب. وبعض العلماء قالوا من خلال نظريةٍ ما إنَّ أطراف أصابعنا تزداد حساسيتها بسبب اعتمادنا الدائم عليها منذ طفولتنا وطوال العمر. وبالمثل، يمكن أن تزيد حساسية (البشرة) بتمرير فرشاة نايلون على ذراعك يومياً. وعندئذ، سوف يكتشف سطح البشرة مدى أوسع من الإحساس بالمتعة والألم.

كما أن السيرِ حافي القدمين يساعد على تغيير إحساس البشرة وخاصة إذا مشيتِ على رمل شاطيء أو على الحشائش. وهذا الأمر يُغذي المخ بإحساس هو في حاجة

إليه وهو هام جدا للنمو الصحي للمخ.

ولهذا السبب، يقترح د. براند أن الأطفال يجب تربيتهم على مراتب خشنة وليس على الأسرة المريحة. فإحاطة الأطفال بكل ماهو ناعم يعوق نموهم العصبي ويُحد من مدى قدرتهم على فهم العالم من حولهم. ويعترف براند أيضاً أن زوجته لم تشجعه على ربط سلك شائك حول الحظيرة النقالة التي يلعب فيها طفله. أليس هذا نوعًا من القسوة؟. وكان القصد من ذلك هو تدريب الطفل ليقبل عالماً حيث توجد أشياء معينة (أشياء حادة أو موقد ساخن) خارج حدوده وقد تكون مؤلمة. وكلما ازداد تدليلك للأطفال كلما انعزلت إحساساتهم عن الحياة الحقيقية.

وقد حاول د. براند أن يتبع هذا المبدأ خلال حياته حتى عندما اقترب لآخر أيامه. وقال:"في فترة من فترات العمرِ اعتقدت أن الألم هو عكس السعادة. وكنت أرسم رسماً توضيحياً للحياة وهو عبارة عن رسم بياني ذي قمة على كل جانب ومكان منخفض في الوسط. القمة اليسرى تمثل خبرات الألم والحزن المؤلم. والقمة اليمنى تمثل السعادة والابتهاج. وبين الاثنين توجد الحياة العادية الهادئة. وأعتقد أن هدفي من ذلك هو أن أتوجّه بحزم نحو السعادة وأبتعد عن الألم. ولكنني الآن أرى الأمور بطريقة مختلفة. فلو رسمتُ مثل هذا الرسم البياني اليوم، فسوف يكون به قمة واحدة في المنتصف وما حولها سهول. هذه القمة هي الحياة التي يلتقي فيها الألم والسرور، والسهول المحيطة هي النوم أو اللا مبالاة أو الموت.

الألم والسرور

تستخدم الطبيعة نفس جهاز الإحساس العصبي الذي ينقل رسائل الألم ليحمل أيضاً رسائل الفرح والسرور. وعلى مستوى الخلايا فإن قرْصة البعوض(أمر غير سار) ودغدغة المداعبة (أمر سار) يتشابهان، والفرق هو في أن هذه الدغدغة والمداعبة تتضمنان تحريك شيء ما يؤثر عليك وعلى بشرتك وأصبعًا يتهزهز على مناطق

حساسة. ونفس جهاز الإحساس العصبي هذا يقوم بإطلاق استجابات مشابهة إلى المخ ولكننا نترجم أحدها على أنه سار والآخر على انه غير سار.

ولايحتوي الجسم على "جهاز إحساس" خاصّ بالسرور والفرح. فأعصاب الإحساس التي بأصابعك والتي تنقل إلى مخك معلومات عن الحرارة أو الصدمة الكهربية الخفيفة أو درجة من الخشونة لسطح خشن هي نفسها التي تشعر بنعومة القطيفة والستان. وحتى الإحساسات التي تُنتج المتعة الجنسية هي نفسها التي تحمل رسائل الخطر والتحذير. إن إثارة المناطق الجنسية ينتج عنه مزيد من اللمس والضغط على الخلايا (وهذا يوضح سبب الحساسية الشديدة لهذه المناطق للألم)، ولكن لا توجد خلايا مخصصة للسرور. فالطبيعة ليست مسرفة.

وبعض أنواع الألم - حك الجلد بالأظافر لإيقاف ألم قرصة ناموسة، أو الألم الحاد المفاجيء لعضلة بسطتها بعد عمل شاق طوال اليوم - قد نتخيلها على أنها أكثر سروراً من أن نعتبرها غير سارة. وبعد التزحلق طوال اليوم فوق الجبال، أتوق إلى جاكوزي ساخن جداً. وأنتظر لبضع دقائق ثم أخفض يدي أو رجلي بنشاط في الماء. ثم أشعر بلسعة ألم. وأنسحب، ثم أحاول ثانية، وتصل المياه للكاحل ويقل الألم، وتدريجياً أنزل في الماء. ونفس المياه التي سببت لي ألماً في البداية هي التي أستمتع بها الآن. وتستريح عضلاتي التي تعبت طوال اليوم. (المراهم تقوم بنفس الدور وتعمل بنفس المبدأ، فهي تُزعج البشرة وتُلهب الإحساس في البداية. فيندفع الدم لموقع التدليك ثم يجلب الراحة والاسترخاء للعضلات).

وهذه العلاقة الوثيقة بين الألم والسرور هي حقيقية ليس فقط على مستوى الخلايا ولكن في خبرات كثيرة تشمل الجسم كله الذي يعمل معًا. وغالبًا يأتي السرور العظيم بعد المعاناة الطويلة.

ذهبتُ ذات مرةٍ إلى غابات ويسكونسن الشمالية في

رحلة دبرتها مجموعة *Outward Bound program* ومثل هذه البرامج تُقدم علاجاً سريعاً لأي شخص يشعر بالعزلة عن العالم الطبيعي أو عن الألم. وكنا نستيقظ في الرابعة صباحاً ونتسلق صخرة بدون استخدام أي قفاز، ثم نجري في سباق ماراثون في الغابة، ثم نقتحم المركز الرئيسي للذباب الأسود. ولم أشعر بأي تعب في نهاية اليوم وأنا أدخل الكيس الخاص للنوم الذي مازال مبللاً من ندى الليلة الماضية. ورغم ذلك، فإنني أنام وقتاً كافياً.

وما أتذكره الآن عن هذا الأسبوع هو كيفية تأثيره على إحساساتي التي يبدو أنها بُعثت للحياة مرة أخرى. فعندما أتنفس، يمكنني أن أتذوق الهواء بطريقة تختلف تماماً عن تلك التي كنت أتذوق بها الهواء حول منزلي بشيكاغو. ولاحظتُ أشياء بعيني وآذاني كنت سابقاً أتغاضى عنها.

وفي إحدى المرات، بعد أن قضينا فترة بعد الظهر في نزهة طويلة وكنا نسير على التراب والحرارة، أخذنا فترة راحة قصيرة. وقام فرد من المجموعة بتتبع نحلة عسل إلى مكان صغير مزروع بالفراولة التي لا تصلح للبيع في أي بقالة محترمة لأنها كانت صغيرة الحجم ومغطاة بالتراب. ولكنني اقتربتُ من الخلية وملأت يدي من العسل وأكلته وقد اندهشت للغاية من طعمه اللذيذ. كانت هذه الفراولة الصغيرة أحلى فراولة أكلتها حتى الآن. ونهلت من عسل الخلية أكثر وأكثر وملأت أكياساً من البلاستيك لآكلها بعد الظهر.

وفي باديء الأمر، اعتقدت أنني اكتشفت نوعاً جديداً من الفراولة والذي قد يُحدث ثورة في صناعة الأغذية. ولكن تدريجياً أدركت أن السبب في الاستمتاع بهذا العسل هو حالتي النفسية والجسدية وليست الفراولة. فعملية استخدام جسدي وارتباط كل الحواس معًا أطلق في داخلي مستوى جديداً من اليقظة للسرور والمرح. وماكنتُ لأتمتع بهذا الطعم اللذيذ للفراولة إلا بعد أن قضيتُ أولاً رحلة طويلة سيراً على الأقدام في التراب وتحت الحرارة.

ويعرف الرياضيون جيداً قيمة هذه الأخوة. ولتراقب بطلاً من أبطال رفع الأثقال وهو يقترب من قضيب الحديد ويأخذ نفساً عميقاً ويحرك عضلاته ثم ينحني ويستعد ويتنفس بعمق ثانية ويشد عضلاته بقوة ثم يبدأ في الرفع. وترى علامات الألم على وجهه. فكل جزء من الثانية يقضيه لرفع هذا الثقل فوق رأسه يرسم علامات المعاناة على وجهه كما لو أن عضلاته تصرخ طلباً للراحة.

ونجح، فهو يلقى بقضيب الحديد بكل قوة على الأرض ويقفز في الهواء مصفقاً بيديه فرحاً. وفي جزء من الثانية حل الابتهاج والفرح محل المعاناة والألم. فلا وجود لواحد بغير الآخر. اسأل هذا البطل عن رأيه في الألم وسوف يحملق فيك بنوع من الحيرة. لقد نسى فعلاً كل الألم لأن الابتهاج والفرح قد ابتلعه.

وصف Lin Yutang فلسفة صينية قديمة في كتابه "My Country & My People" (وطني و شعبي) فقال: "أن تشعر بالجفاف والعطش في يوم حار وأرض متربة - وأن تشعر بنقاط المطر على بشرتك العارية - أليست هذه هي السعادة. وأن تشعر بحكة في مكان خاص في جسدك - وتتخيل أنكِ تركتِ أصدقاءك وذهبت إلى مكان اختباء حيث يمكنك أن تحك جلدك - أليست هذه هي السعادة". وفي القائمة الطويلة التي كتبها Yutang عن خبرات السعادة، يرتبط الألم بالفرح.

وتحتوي اعترافات القديس أوغسطينوس على صفحة مشابهة ومتميزة إذ يقول:"ما الذي يسري داخل أرواحنا إذا شعرت بفرح عظيم إن وجدت أو استرددت الأشياء التي تحبها أكثر من شعورك بامتلاكك لهذه الأشياء دائماً". ويواصل أوغسطينوس حديثه عن جنرال منتصر والذي يشعر بالرضى العظيم عندما يزداد الخطر، والبحّار الذي يبتهج في البحار الهادئة بعد اجتيازه للعواصف العاتية، والرجل المريض الذي شُفيَ فيسير في فرح لم يختبره قبل المرض. ويخلص أوغسطينوس للقول: "في كل مكان يسبق الفرح العظيم معاناة عظيمة". ومثل كل آباء الكنائس

الآخرين، كان أوغسطينوس يعلم أن حرمان بعض الحواس - من خلال الصيام - يُقوي الحواس الأخرى. والاختبارات الروحية تنتعش وتقوى في البرية.

وعندما أتقدم في العمر أتمنى أن لا أقضي أيامي بين أوراق جافة، أو موضوع تحت جهاز للتنفس يحميني من المخاطر الموجودة في العالم الخارجي، بل أتمنى أن أكون في ملعب للتنس أمارس اللعب بكل قوة أو في رحلة طويلة مع الأصدقاء. وباختصار، أتمنى ألا أعزل نفسي عن الألم حتى لا أحرم من الشعور بالفرح.

يعرف كل من الرياضيين والفنانين أن فترة طويلة من المعاناة والمجهود تسبق كل الإنجازات الإنسانية القيمّة. فقد قضى ميخائيل أنجلو سنوات طويلة من التعب والشقاء لرسم اللوحات التصويرية على الجدران والسقوف بكنيسة Sistine التي منحت الكثيرين المتعة الفنية والسرور منذ ذلك الوقت وحتى الآن. وأي شخص قام ببناء خزانات في مطبخ أو اهتم بالخضروات المزروعة بالحديقة يُقدر هذه المعاناة" والسرور اللذين يتبعان هذا الألم يمتصّانه وينسياه إياه. وفقد استخدم الرب يسوع ولادة الطفل كمثل لذلك: تسعة شهور من الانتظار والإعداد والعمل المكثف والمتواصل ثم يأتي الفرح بالمولود (يو ١٦: ٢١).

أجريتُ مرة حديثاً مع رولين جراهام Rolin Greeham، أصغر شاب أبحر حول العالم بمفرده. وبدأ رحلته البحرية وعمره ستة عشر عامًا. وأثناء الرحلة، تعرض لعاصفة شديدة في المحيط مزقت السارية إلى نصفين. وكاد أن يُوقف الرحلة بسبب تسرب الماء لقاربه. وأجتاز في مرحلة شديدة من اليأس بالقرب من خط الاستواء حتى أنه أفرغ علبة من الكيروسين في القارب وأشعل عود ثقاب ليدمر كل شيء. (وإذ بعاصفة شديدة هبّت فجأة جعلته يغير وجهة نظره وعاد للقارب وأطفأ النار وواصل رحلته).

وبعد خمس سنوات أبحر رولين إلى ميناء لوس أنجلوس لكي يتقبل تحية الجماهير التي كانت بالقوارب رافعة

الأعلام بمن فيهم أيضا مراسلي الصحف. وقد أنسته لحظة الفرح هذه كل ماعاناه أثناء الرحلة. ولم ينس هذه المشاعر على الإطلاق. إن معاناته طوال رحلته حول العالم هي التي منحته فرح الانتصار. لقد بدأ رحلته وهو في السادسة عشر وعاد رجلاً في الحادية والعشرين.

وهذا الإنجاز العظيم قد منح رولين الشعور والإحساس بالصحة والقوة، واشترى قطعة أرض زراعية في مونتانا، وبنى بها حجرة صغيرة من كتل خشبية أعدها بنفسه وحاول الناشرون ومنتجو الأفلام أن يغروه بعمل رحلات عامة حول البلاد والاتفاق على أحاديث تلفزيونية، وأن يضعوا باسمه حساباً بالبنك، ولكن رولين رفض كل هذه العروض.

ونحن الذين نعيش الحياة العصرية الحديثة في بيئة نتمتع فيها بكل وسائل الراحة، نلوم إحساسنا بالألم الذي نُطلق عليه عدونا الأعظم. فإن استطعنا إزالة الألم من الحياة، فلسوف نكون سعداء. ولكن، كما توضح تجارب رولين، لا يمكننا تجزئة الحياة بهذه الصورة السهلة. فالألم جزء من حواسنا وهو مقدمة ضرورية لأية أفراح أو إنجازات. وليس مفتاح السعادة في تجنب الألم بأي ثمن بل في تفّهم دوره كنظام تحذيريٍ واقٍ نُسخِّره لمصلحتنا وليس ضدنا.

وينطبق هذا المبدأ ليس فقط على الألم بل وأيضاً على"أعداء" آخرين. فعندما أواجه عدوًا أسأل نفسي: هل يمكنني أن أجد فيه سبباً للشكر؟ ولدهشتي، وجدتُ أن الإجابة في غالب الأحيان هي بالإيجاب.

فمثلاً، ماذا عن الخوف، لماذا نشكر من أجل الخوف؟ وأنا أعلم الحالة النفسية التي تحدث بسبب الخوف: فالجسم يستخدم كميات دقيقة وصغيرة من الأدرينالين لزيادة سرعة ضربات القلب واحتكاك البشرة ويرفع زمن رد الفعل ويعطي مزيداً من القوة، وكل هذا يحدث في جزء من الثانية أثناء الشعور بالخوف. وأحاول أن أتخيل رياضة مثل التزحلق أسفل التلال بدون الاستجابة الواقية

من الخوف التي تحميني من التهور الأحمق. والخوف - مثل الألم - يقوم بنفس دور نظام الإنذار والتحذير ولكن الفرق هو التصرف قبل وقوع الأذى وهذا من مصلحة الإنسان.

سأل أحدهم الطبيب السويسري والكاتب بول تورنييه *Paul Tournier* كيف يساعد مرضاه على التخلص من الألم. فأجاب: "أنا لا أفعل ذلك. فكل شيء له قيمة في الحياة يبعث على الخوف. اختيار المدرسة، اختيار الوظيفة، الزواج، أن يكون لك أولاد، كل هذه الأمور تبعث على الخوف وإن لم يكن كذلك فلا قيمة لها".

ولنفكر في عدو آخر: الإثم والشعور بالذنب، استجابة إنسانية عالمية يريد الناس أن يلغوها من حياتهم. ولكن حاول أن تتصور عالماً بدون هذا الشعور، أو مجتمعًا بدون أي ضابط على السلوك.

ويُعرِّف نظام القضاء الأمريكي سلامة العقل بأنها القدرة على التمييز بين الخير والشر. وعالم بدون هذا الشعور بالذنب سوف ينحدر نحو الجنون.

إن الشعور بالذنب هو رسالة ألم إلى الضمير تُعرِّفه بأنه يوجد خطأ ولابد من التعامل معه. وهنا نجد أنفسنا أمام خطوتين ضروريتين: أولاً، يجب على الشخص أن يحدد سبب الشعور بالذنب تماماً كما نحدد موضع الألم. ةغالبًا ما تتعامل المشورة الحديثة مع عملية اجتثاث الأسباب الزائفة للشعور بالذنب. ولكن ذلك لن يحدث إلاباتباع طريقةٍ ما للخلاص من هذا الشعور بالذنب والإفلات من آلامه.

وما يحدث لنا كنتيجة للشعور بالذنب - مثل الألم - هو نبضة تدفعنا للخلاص من هذا الإحساس الغير سار. ومع ذلك، فهذا يتضمن الهدف الأكثر أهمية وهو التعامل مع مصدر المشكلة. وعلى المدى الطويل، ليس من مصلحتك أن تتخلص من مشاعر الشعور بالذنب مالم تدعها أولاً تقودك نحو الغفران والمصالحة. والشعور بالذنب في حد ذاته - مثل الألم - لا يضلك: فكلاهما يقودك نحو اتجاه معين،

فالأعراض تتطلب اهتمامك العاجل.

كما أنني أفكر في عالم لا يعاني من ألم الوحدة. أليست الصداقة والحب هما نتيجة الإحساس الطبيعي داخلنا بالحاجة للآخرين، وهو الدافع الذي يحفظنا من أن نكون ناسكين. ألا نحتاج إلى قوة الوحدة لتبعدنا عن العزلة وتقودنا للتعرف بالآخرين؟

وأنا هنا لا أقصد التقليل من المعاناة الحقيقية في هذا العالم. ومع ذلك، عندما يحدث أمر سيئ ونشعر أننا لا نسيطر على المأساة ذاتها، فإنه في الواقع يكون لدينا بعض السيطرة على استجاباتنا. وقد نندفع في مرارة وغضب ضد مظالم الحياة التي حرمتنا الفرح والسرور. أو قد نبحث عن الخير في مصادر غير متوقعة حتى ولو في أعدائنا الظاهرين.

ومنذ فترة وجيزة، سمعتُ عن استفتاء أُجري على مجموعة من كبار السن في لندن. وكان السؤال الموجه لهم هو: "ماهي أسعد فترة في حياتك؟" أجاب ٦٠٪ منهم وقال: "فترة الحرب". في كل ليلة تُلقي الطائرات أطنانًا من المتفجرات على المدينة، وتحول المباني الحضارية إلى حطام، والآن يتذكر الضحايا هذا الوقت بنوع من الاشتياق والحنين. ففي هذه الأيام المظلمة والمخيفة تعلموا أن يجتمعوا معًا ويحاولوا الوصول إلى هدف موحد. وتعلموا صفاتٍ مثل الشجاعة والمشاركة والأمل.

عندما يحدث لي أمر سيئ ـ سواءً كان سوء تفاهم مع زوجتي أو أحد أصدقائي أو شعور بالذنب لأنني قصّرت في أداء مسئولية معينة ـ أحاول النظر إلى هذا الأمر تمامًا كما لو كنت أتعامل مع ألم عضوي في جسدي. وأعتبره إشارة لي بأنني أحتاج إلى تغيير شيء ما. وأحاول أن أشكر لا من أجل الألم في حد ذاته بل من أجل فرصة الاستجابة لكي أتخلص من هذا الشيء السيئ.

الاندهاش من السعادة

لقد جذب يسوع الانتباه بكل حكمة وبراعة إلى طبيعة الحياة في الآية التي تكررت في الأناجيل وتحتوي على تناقض ظاهري "من أراد أن يخلص نفسه فَلْيُهلكها ومن يُهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها" (لو٩: ٢٤). ومثل هذه الآية ضد فكرة "تحقيق الذات" في علم النفس الحديث، الذي اتضح أنه ليس حديثاً بالقدر الكافي. وتقدم المسيحية النظرة المستنيرة التي تقول بأن تحقيق الذات وإشباعها ليس من خلال إرضائها، بل من خلال خدمة الآخرين. وهذا يأتي إلى آخر توضيح لمبدأ الألم والسرور وهو : فكرة المسيحية عن الخدمة.

وخلال عملي كصحفي، التقيتُ بأنماطٍ مختلفة من البشر ويمكنني تقسيمهم إلى نوعين: نجوم وخدم. وتشتمل فئة النجوم على لاعبي كرة قدم مشهورين، وممثلين وموسيقيين ومؤلفين مشهورين، وشخصيات هامة تعمل بالتليفزيون وماشابه ذلك.

ومثل هؤلاء الناس هم الذين يسيطرون ويتحكمون في مجلاتنا وتليفزيوناتنا. ونحن نتودد لهم ونتأمل في كل دقيقة من حياتهم: الملابس التي يرتدونها والأكل الذي يتناولونه، ونظامهم اليومي الذي يتبعونه والناس الذين يحبونهم ومعجون الأسنان الذي يستخدمونه.

ومع ذلك، يجب أن أقول لكم إنهم من أكثر الناس الذين رأيتهم بؤساً. فمعظم زيجاتهم فاشلة. ومعظمهم يعالجون علاجًا نفسيًا. وهؤلاء الذين يُظهرون أنهم أبطال عظام تعصف بحياتهم شكوك ذاتية يصعب الشفاء منها.

وقضيتُ أيضاً أوقاتاً مع الخدم. وأناس مثل د. بول براند، الذي عمل لمدة عشرين عاماً بين أفقر الفقراء، مرضى البرص بالهند. أو الذين يعملون في مجال الصحة وتركوا وظائف بمرتبات مغرية لكي يخدموا في إرساليات ميندينهال Mendenhall في مدينة بلاكووتر

في ميسيسبي Blackwater. أو موظفي الإغاثة في الصومال والسودان وأثيوبيا وبنجلادش أو في أفقر مناطق العالم وأكثرها معاناة. أو أولئك الحاصلين على درجة الدكتوراه والمنتشرين في غابات أمريكا الجنوبية ليترجموا الكتاب المقدس إلى لغات غامضة.

إنني أقدر وأحترم هؤلاء الخدم الذين أعتبرهم نماذج وقدوة للآخرين. ومع ذلك، فإنني لستُ على استعداد لأن أحسدهم. ولكنني الآن وأنا أفكر في المجموعتين جنباً إلى جنب، النجوم والخدم، يبزغ الخدم بكل وضوح على أنهم المحبوبون. إنهم يعملون بأجور منخفضة لساعات طويلة بدون أي "تصفيق" "مهدرين" مواهبهم ومهاراتهم بين الفقراء وغير المتعلمين. ولكنهم أثناء عملية بذل حياتهم في الخدمة، فإنهم يجدونها. إنهم يتمتعون "بالسلام الغير موجود في هذا العالم".

وعندما أفكر في الكنائس العظيمة التي قمت بزيارتها، فالذي يتبادر لذهني ليس صورة كاتدرائية في أوربا. لقد أصبحت مجرد متاحف الآن. ولكن عوضًا عن ذلك، أفكر في الكنيسة الصغيرة في كارفيل، وفي كنيسة دهاناتها فاتنة وسقفها يسرب المياه وهي بمدينة Newark، أو كنيسة خاصة بإرسالية في سانتياجو مصنوعة من كتل إسمنتية وألواح حديدية مموجة. وفي تلك الأماكن، الموجودة وسط البؤس الإنساني، رأيتُ مسيحيين مؤمنين تسودهم المحبة.

ويقدم مركز البرص في كارفيل في لويزيانا مثلاً رائعاً وعملياً لهذا المبدأ. فقد اشترى مندوب حكومي الملكية ووعد بتنميتها، ولكنه لم يجد أحداً لتنظيف الطرق، أو تصليح حجرات المرضى العبيد أو تنظيف البالوعات، لأن وصمة عار البرص أبعدت كل الناس بعيدًا.

وأخيراً، مجموعة من الراهبات "Sisters of Charity" "أخوات عمل الخير" تحركن إلى كارفيل لتمريض مرضى البرص. وهن يستيقظن ساعتين مبكراً قبل شروق النهار. ويلبسن زيهن الأبيض، ويعشن في نظام أكثر من ذلك

الذي لجنود المارينيز. ولكن هن فقط اللائي أثبتن رغبة حقيقية في العمل. فحفرن الحفر ووضعن أساس المباني، وحوَّلن كارفيل إلى مكان صالح للإقامة،وطوال الوقت يمجدن الله ويُدخلن السرورو الفرح إلى قلوب المرضى. وربما تعلمن أعمق مستوى للألم والفرح معًا في الحياة، وهن في هذه الخدمة المضحية.

فإن أمضيتُ حياتي بحثاً عن السعادة في المخدرات والراحة والرفاهية، فسوف تهرب مني. "السعادة تهرب من الذين يطاردونها". وسوف تأتي إليَّ على غير توقع كنتيجة غير متوقعة وشيء إضافي مدهش لشيء ما استثمرت نفسي فيه. وفي معظم الأحيان يحتوي هذا الأمر على الألم. ومن الصعب جدًا أن نتخيل الفرح بدون الألم.

الجزء الثاني

هل الألم

رسالة

من الله؟

"تخيل مجموعة من الناس يعيشون جميعاً في نفس المبنى. نصفهم يعتقدون أنه فندق والنصف الآخر يعتقدون أنه سجن. وأولئك الذين يعتقدون أنه فندق، ينظرون إليه كمكان لا يُحتمل، أما الذين يعتقدون أنه سجن، قد يقررون أنه مكان مدهش ومريح حقاً. ومايبدو مبدأ قبيحاً قد يُريحك ويقويك في النهاية. وأولئك الذين يحاولون أن تكون لهم نظرة متفائلة عن هذا العالم قد يصبحون متشائمين: والذين لهم نظرة صارمة وعابسة عنه يصبحون متفائلين".

سي. إس. لويس *God in the Dock*

٥

كوكب يتأوه

لنعتبر هذه الأرض هي بيتنا. ودع عينيك تستمتع باللون المتدرج البديع لشمس الأصيل عند غيابها في أحد أيام الصيف. وسر بأطراف أصابعك على رمال مبللة ثم قف ساكناً واشعر برذاذ المياه أثناء المد والجذر بالمحيط. وقم بزيارة حديقة بها فراشات ملونة واستمتع بألوانها الرائعة وهي تطير. سوف تجد أن الإيمان بخالق محب أمر سهل بين هذه المخلوقات الجميلة.

ومع ذلك، فالشمس التي تغطي الغسق بالكثير من الألوان يمكنها أيضاً أن تُجفف التربة وتشققها في أفريقيا وتتسبب في جوع وموت الملايين. كما أن إيقاع وتناغم الأمواج المتكسرة على الشاطيء يمكنها - إذا أثارتها عاصفة - أن تحطم حائطاً يتسبب في الموت وتمحو قرى على الشاطيء.

وكما الفراشات الغير ضارة ذات الألوان المتنوعة التي ترفرف بين الزهور البرية والتي تعيش لمدة أسبوعين في المتوسط قبل أن تستسلم (تموت) للوحشية المروعة هي أيضًا في نظام سلسلة غذاء الطبيعة. إن الطبيعة هي أختنا الساقطة. والأرض ـ بالرغم من أنها معرض الله ـ هي خليقة صالحة ولكنها انحنت.

انظر إلى الجنس البشري. فالوطن الذي نشأ فيه باخ، وبيتهوفن، ولوثر، وجوتة هو الذي أعطى أيضاً هتلر، وايخمان. والبلد التي عملت بحقوق الإنسان هي أيضاً التي تسببت في العبودية والحرب الأهلية. ونحن كجنس بشري وكأفراد، بداخل كل منا حكمة وإبداع، وأيضًا، تنافس، وخداع، وكبرياء، وأنانية.

وهكذا الأمر مع الألم. فقد يبدو صديقاً حميماً وموثوقاً فيه. فبالمنظور المحدود للمهندس الكيميائي، يري أن شبكة الألم في الإنسان هي من أعظم أعمال الله في خلق الإنسان فالجهاز العصبي، الذي يحمل بصمة العبقرية، ينال الإعجاب والرهبة، عندما يرى لوحات الفنان رمبرانت الرائعة.

ومع ذلك، فنحن ننظر للألم ليس من خلال الميكروسكوب بل من خلال علامات مرفوضة للبؤس الشخصي. فإن أرجعت كل إشارة تحذير إلى سبب محدد، فقد تبدو شبكة الألم منطقية ومصممة تصميماً حسناً. ولكن إن عُدتَ بذاكرتك وتطلعت إلى كل البشرية ـ المجاعات، نزيف الدماء، مرض السرطان الذي يتسبب في موت الكثيرين ـ هنا سوف تظهر مشكلة.

وتشتمل "مشكلة الألم" على ماهو أكثر من الاستجابات المخلصة للخلايا العصبية. ماذا عن الآثار الجانبية للألم عندما يعتصر النفس ويقودها لليأس وفقدان الأمل؟ لماذا يصاب بعض الناس بالتهاب المفاصل، السرطان، عيوب خلقية، بينما آخرون يعيشون أصحاء لفترات طويلة؟ وقد لخص الشاعر وليم بالاك *William Blake* الوجود البشري كما يلي:

أمي تئن، وأبي يبكي،

عندما جئت إلى عالم خطير....

ويُحب الفلاسفة المناقشات الشاملة للمعاناة الإنسانية، كما لو أن الألم الإنساني يمكن وضعه في مرجل عظيم ويُقدم إلى الله ونقول له: "هاهو ألم ومعاناة البشرية على كوكب الأرض. ماهو سبب كل هذا البؤس؟". ولكن إيفان كارامازوف المذكور في رواية ديستوفسكي استنتج أن الألم يأتي لشخص ما في وقت ما، ومعاناة شخص ما والتي لا يستحقها ـ كطفل يضرب صدره بقبضة يده ـ تثير المشكلة بطريقةحادة.

ربما قُصد بالألم أن يكون نظاماً تحذيرياً واقياً وبطريقة كافية، ولكن شيئًا ما قد حدث لهذا الكوكب الذي نعيش عليه حتى أنه أصبح لا يمكن السيطرة على الألم. إننا بحاجة إلى كلماتٍ غير التى نعرفها كيما يمكننا التعبير عن آلام هذا العالم ومشاكله ومعاناته: ربما كلمة "ألم" تعني الشبكة التي تحمي الجسم وكلمة"معاناة" البؤس الإنساني. وعلى أية، حال فإن مريض البرص لا يشعر بالألم ولكنه يعاني كثيراً.

ومع أن بعض الناس لا يعانون من الآلام الجسدية الحادة، إلا أن كل واحد لديه صورة من صور المعاناه التي لا تتركه: عيب في الشخصية، علاقات منهارة، ذكريات مؤلمة منذ الطفولة أو شعور خانق بالذنب. ولكي نفهم المعاناه، يجب أن نبتعد عن الميكروسكوب وترتيباته للخلايا العصبية التي تطيعه مستجيبة لأي منبه أو مثير، وننظر إلى وجه الإنسان الحزين والمتألم. وهنا يتحول السؤال من: "أين الله في وقت الألم؟" إلى "أين الله عندما لا يتوقف الألم؟" كيف يسمح الله بمثل هذا الألم المكثف والظالم؟

أفضل عالم ممكن

تناقشَ الفلاسفةُ معًا لعدة قرون في السؤال: "هل الأرض

هي أفضل العوالم الممكنة؟"". وجاء الموضوع من الافتراض بأنَّ الله كلي المعرفة وكلي القوة وكلي المحبة، لذا كان من الطبيعي أن يخلق مكاناً رائعاً لخلائقه. ولكن تطلع حولك إلى بعض ملامح كوكبنا- فيروس الإيدز، وأمراض أخرى مثل Down's Syndrome، & Spina bifida poliomyelites، وستجد أيضاً العقارب وذباب تسي تسي القاتل، والزلازل والعواصف المدمرة. ألم يكن في إمكان الله أن يعمل شيئاً أفضل من ذلك؟ وكما قال فولتير بسخرية: "إن كان هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، فماذا تشبه العوالم الأخرى؟"".

في الأزمنة السابقة، حاول اللاهوتيون المسيحيون مثل القديس أوغسطينوس وتوما الإكويني أن يبرهنوا أن الله قد خلق أفضل عالم ممكن. واليوم، ونحن في القرن ٢١ وما نشاهده من رعب تصنعه الطبيعة أو يصنعه الإنسان، يمكن للمفكرين الشجعان فقط أن يؤكدوا هذه المقولة.

وبكل تأكيد، أنا لا أحاول أن أثير قضية أن الأرض تمثل أفضل العوالم الممكنة. ولكن السبب الذي دعاني لأن أنفق مزيداً من الوقت في دراسة حيوية الألم هو أنني أعتقد أن الفلاسفة المحدثين قد يفشلون في تقدير وتقييم الصعوبات التي تتضمنها عملية الخليقة. فهم يفترضون أن كل ما يجب على الله أن يفعله هو تحريك عصا سحرية لكي يُزيل كل متاعب الحياة الموجودة على الأرض.

ولكي تكون وجهة نظرهم مقنعة، يحتاج نُقَّاد هذا الكوكب لأن يصفوا عالماً أعلى، به نظام متكامل للقوانين الطبيعية التي يمكن أن تقلل من معاناة البشر. تخيل بعض الإمكانيات. لماذا لا نتخلص من البكتريا؟ سوف يكون هذا الأمر كارثة: لقد تعرف العلماء على ٢٤,٠٠٠ نوع مختلف من البكتريا؟ وعدد قليل منها فقط يُسبب الأمراض. لو تخلصنا من البكتريا، فلن نتمكن من هضم الطعام. كذلك الأعاصير الاستوائية عرفت كلاً من بنجلادش والهند؛ أن نظام مناخ الأرض يعتمد على مثل هذه الكوارث الكبيرة وإن توقفت هذه الأعاصير الاستوائية، توقف المطر أيضاً.

وتتضمن عملية الخلق اختيارا من بدائل. فإذا انكسر فخدي أثناء التزحلق، فقد أرغب في عظام أقوى. وربما كان من الممكن عمل عظام أقوى، ولكن في هذه الحالة، سوف تكون العظام أكثر كثافة وثقلاً وقد لا أتمكن من التزحلق على الإطلاق. وإذا كانت أصابعي أكثر كثافة وتحمّلا، فالكثير من الأنشطة البشرية- مثل العزف على البيانو- سوف تُصبح مستحيلة. وكان على الخالق أن يقوم بهذه الاختيارات الصعبة بين القوة والحركة والوزن والحجم.

وكان للدكتور بول براندر رأي في مثل هذه الاختيارات الصعبة عندما كان يحاول تصميم جهاز لقياس الإحساس بالألم لحماية أيدي مرضى البرص. وهذا ماعرفه:

"كلما تعمقتُ في دراسة القوانين الطبيعية - الذرة، الكون، العناصر الصلبة، الجزئيات، الشمس، وتفاعل كل التقنيات اللازمة للإبقاء على الحياة - يصيبني الذهول. كل الخليقة سوف تنهار لو أن واحداً فقط من هذه العوامل أُزيل من مكانه. وبعض الناس يعتقدون أن كل التصميم والدقة البالغة في الطبيعة حدثت بالصدفة، وإذا تقاذفت ملايين الجزئيات مع بعضها البعض لفترة كافية فسوف تنقلب خلية عصبية. ولمثل هؤلاء الناس، أقترح عليهم أن يتأملوا ولو لمرةٍ واحدة، أيّ صدفة يُمكن أن تفعل هذا.

لقد قضيتُ معظم حياتي في مجال جراحة اليد. وبإمكاني أن أملأ غرفة كبيرة بكتب تشرح الطرق الفنية المختلفة لإصلاح وعلاج إصابات اليد. ولكنني لم أر طريقًا واحدة تقترح طريقة لتحسين يد صحيحة وسليمة. فالتصميم رائع والألم هو جزءٍ من هذا التصميم. ٩٩ ٪ من الأيدي كاملة تماماً وعادية. ولكن الإحصائيات قاصرة على الغير حساسين للألم: ٩٩ ٪ منهم يعانون من عيب في التكوين أو قصور في الأداء لأن شبكة الألم لديهم

لا تعمل بطريقة مناسبة".

وكثير من معاناة كوكبنا تحدث بسبب مبدأين وضعهما الله في الخليقة: عالم مادي يسير طبقاً لقوانين طبيعية صارمة، وحرية إنسانية.

والتزام الله بهذين المبدأين - وكلاهما جيد - سمح بإمكانية إساءة استخدامهما. فمثلاً، المياه نافعة لنا ولكل الخليقة بسبب "ليونتها"، وحالتها السائلة، وجاذبيتها المحددة. ومع ذلك، فنفس تلك الخواص لها القدرة على إغراقنا أو قد تغرق آخرين.

ومثل آخر عن الخشب. إنه يحمل ثمار الأشجار، ويُساند الأوراق التي تعطي الظلال، وتأوي الطيور إليه. وحتى لو قطعناه من الشجر، فهو ذات قيمة. كما أننا نستخدمه كوقود ليدفئنا، كما نستخدمه في بناء المنازل وعمل الأثاث. أما خواصه الأساسية فهي الصلابة، القابلية للاشتعال - وهذه الخواص تساعدنا على الاستفادة منه.

ولكن حالما تزرع شجرة لها مثل هذه الخواص في عالم به أناس يتمتعون بالحرية، فأنت بذلك تسمح بإمكانية إساءة الاستخدام. فقد يأخذ مثل هذا الإنسان الحر جزع شجرة ويحطم به رأس إنسان آخر. وسأفترض أن الله يستطيع أن ينزل في كل مرة ويحول خواص الخشب إلى تلك التي للإسفنج حتى لا تؤذي الآخرين. ولكن ليس هذا هو دوره في العالم. لقد وضع الله قوانين ثابتة يمكن أن تتحول إلى فساد وشر بسبب سوء استخدام الحرية.

(قد يكون في ذهن الله مثل هذه الحجة في حديثه في نهاية سفر أيوب. فبعد أن استمع إلى شكاوي أيوب في ٣٥ أصحاحًا، ظهر أخيراً واهتز أيوب من أعماقه عندما أعطى الله أوصافاً رائعة للعالم الذي خلقه. وأشار الله بكبرياء للملامح الغير عادية للخليقة، ثم أعطى أيوب فرصة ليقترح بعض التحسينات. هل سيهتم أيوب ويقترح كيف يدير العالم بطريقة مختلفة؟ وقد تقول إنَّ كلاً من الله وأيوب سيقارنا خلاصة ما يتوصلان إليه - ولتخمن من

الذي سيربح؟).

هل الله مسئول إلى حد ما عن معاناة هذا العالم؟ بطريقة غير مباشرة، نعم. ولكن عندما تُعطي طفلاً حذاءً للتزحلق، وأنت تعلم أنه قد يسقط أثناء التزحلق، فهذا أمر يختلف تماماً عن أن تطرحه أرضاً على الجليد.

وفي عالم يسير وفقًا لقوانين ثابتة ويسكنه بشر أحرار - يتمتعون بهبَّة رائعة وهي شبكة الألم الواقية - لكن يتعرض لسوء استعمال، هل كان بإمكان الله أن يخلق هذا العالم بطريقة أخرى؟ هل كان بإمكانه أن يُبقي على بعض فوائد شبكة الألم بدون عيوب؟ وهنا يظهر تساؤل ...هل يمكن أن يعمل نظام التحذير من الألم بطريقة مؤثرة لو استبعدنا عنصر المعاناة؟ ومن واقع تجارب د. براند وخبرة المرضى الذين لا يشعرون بالألم، عرفنا أن مجرد الألم لا ينبهنا بل يجب أن يؤلمنا حتى نفعل شيئاً إزاءه.

وبإمكان أي شخص أن يجادل للأبد فيما إذا كان بإمكان الله أن يصمم عالمنا بطريقة مختلفة. مفتاح لإيقاف الألم؟ عواصف إستوائية أم أعاصير؟ فيروس واحد أقل، أم ثلاثة أنواع من البكتريا؟ لا أحد منا يعرف الإجابة على هذه الأسئلة أو السؤال السابق عن كيفية دخول فيروس معين إلى العالم. (هل هو نشاط مباشر لله؟ أم نتيجة للسقوط وعمل الشيطان؟ هل هو تحول جيني؟ أم ماذا؟!). ولكن مثل هذا التخمين يُواجه بإجابة الله المباشرة على السؤال: "هل الأرض تمثل أفضل شئ من كل العوالم الممكنة؟" والإجابة: لا!.

الحيوانات البرية

يعزو الكتاب المقدس دخول المعاناةً والشر للعالم إلى صفةٍ عظيمة ولكنها مرعبة، ألا وهي الحرية الإنسانية. ما الذي يجعلنا مختلفين عن الدولفين، وفأر المسك، والدب الرمادي؟ فقط الإنسان (بوصفه نوعا بيولوجيا) استثنى من نماذج الخليقة التي تتصرف طبقاً لغريزتها. فنحن كبشر

لدينا القدرة على العزم والتصميم الذاتي بطريقة حقيقية.

وكنتيجة للحرية التي نتمتع بها، أدخل الإنسان شيئاً جديداً لهذا الكوكب ـ ثورة ضد التصميم الأصلي الذي صنعه الله. ولدينا مجرد لمحات باهتة عن صورة الأرض التي كان الله يقصدها لهذا العالم، ولكننا لا نعلم أن البشرية قد حطمت هذا القالب. ويقول جْي. كي. تشيسترتون J.K.Chesterton: "إننا نتحدث عن الحيوانات المتوحشة، ولكن الإنسان هو الحيوان المتوحش الوحيد. الإنسان هو الذي تحطم. وكل الحيوانات الأخرى مستأنسة وتتبع باحترام القبيلة أو النوع الذي تنتمي إليه".

الإنسان متوحش لأنه المخلوق الوحيد على هذه الأرض الذي يستطيع أن يقف على قدميه ويرفع قبضة يده ويقول لله: "سوف أفعل ما أريد أن أفعله لأنني أريد ذلك". وكنتيجة لهذا، فإن مسافةً كبيرة تفصل هذا الكوكب ومن عليه عن الله. لقد سمح لنا الله بهذه الحرية لكي نفعل مانريد ونتحّدى كل قوانين الكون. ويقول تشيسترتون: "عندما خلق الله العالم أطلقه حراً. ولم يكتب (الله) مايمكن أن نسميه قصيدة شعرية بل كتب مسرحية، وأعد لها بالكامل، والتي تُركت بالضرورة للممثلين ومديري المسرح من البشر، ومنذ ذلك الحين، حولوها إلى نوع من الفوضى والعبث".

ويستخدم اللاهوتيون كلمة "السقوط" ليلخصوا التمزق الكبير للخليقة بسبب التمرد الأول عندما دخلت الخطية إلى العالم. ويُعطينا الأصحاح الثالث من سفر التكوين ملخصاً عن نتائج هذا التمرد، ولكنه كافٍ ليوضح لنا أن كل الخليقة، وليس الجنس البشري فقط، قد تمزقت. وكما قال الشاعر الإنجليزي ميلتون Milton في قصيدته "الفردوس المفقود" لقد شعرت الأرض بالحرج، والطبيعة من مقعدها تتنهد من خلال كل عملها وأعطت علامات الغضب والعداوة لقد فُقد الجميع.

وعبر الرسول بولس عن هذا الأمر بما يأتي: "لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله. إذ أخضعت

الخليقة للبطل. ليس طوعا بل من أجل الذي أخضعها. على الرجاء. لأن الخليقة نفسها أيضاً ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله" (رومية ٨: ١٩ - ٢٢).

إن الألم والمعاناة المتكاثرة على الأرض هما نتيجة لسوء استخدام الإنسان للحرية. فعندما يختار الرجل والمرأة ما هو ضد الله، فسوف يفسد عالمهم الحر إلى الأبد. وكما رأى بولس هذا الأمر، فمنذ سقوط كوكب الأرض ينبعث عن كل سكانه سيل مستمر من التردد المنخفض لإشارات القلق والضيق والحزن. ونحن الآن نعيش على كوكب "يئن".

ولهذا، فإنَّ نقاشًا يتناول ظلم المعاناة يجب أن يبدأ بحقيقة أن الله غير مسرور بحالة كوكبنا. وقصة الكتاب المقدس، من التكوين إلى الرؤيا، هي قصة خطة الله لإعادة خليقته إلى حالتها الأصلية من الكمال. ويبدأ الكتاب المقدس وينتهي بنفس المنظر: جنة، نهر، مجد الله الواضح وشجرة الحياة. ويقع كل التاريخ البشري مابين الجزء الأول من سفر التكوين والجزء الأخير من سفر الرؤيا، ومابين الاثنين يشتمل على النضال من أجل استعادة ما فُقد.

إنه لخطأ مأساوي أن نحكم على الله وأعماله بالحالة الحاضرة للعالم. ففي وقت من الأوقات، ربما كان هذا العالم "هو أفضل عالم ممكن" ولكنه ليس كذلك الآن. ولا ينقل لنا الكتاب رسالة أكثر تأكيداً من أن الله "غير مسرور" بحالة الخليقة وحالة الإنسانية.

تخيل السيناريو التالي: اقتحم مخربون أحد المتاحف التي تعرض لوحات بيكاسو من المرحلة التي يطلقون عليها "الفترة الزرقاء". وبدافع التخريب، رشوا ألوانًا حمراء على اللوحات ومزقوها بالسكاكين. ومن الظلم أن نعرض هذه اللوحات ـ كمثل لعبقرية بيكاسوا المبدعة وهي ممزقة بهذه الصورة ـ كمثل لعبقرية هذا الفنان. وهذا ما حدث لخليقة الله. لقد علق الله علامة "مُدان" على الأرض ووعد بالدينونة والاسترداد. وهذا العالم الذي أفسدته

الخطية والمعاناة والذي مازال قائما هو مثل لرحمة الله وليس لقسوته.

البوق

ما الذي يمكن أن يستخدمه الله ليلفت انتباهنا؟ ماالذي يُقنع البشر - نحن الذين بدأنا التمرد - بأن الخليقة لا تسير وفق قصد الله؟

قال سي. إس. لويس: "الألم هو البوق الذي يستخدمه الله. فهو يهمس لنا في مسراتنا، ويتحدث إلى ضمائرنا، ولكنه يصيح في آلامنا التي هي البوق الذي يستخدمه لكي يُوقظ عالمًا أصم". وكلمة "البوق" مناسبة، لأن الألم في طبيعته يصرخ. عندما يُجرح طرف إصبعي أو يلتوي الكاحل، يعلن الألم بصوت مرتفع إلى المخ أن أمراً خاطئاً قد حدث. وبالمثل، فوجود الألم على هذه الأرض هو صيحة لكل منا أنه يوجد خطأ ما. إنه يوقف سيرنا ويجبرنا على التفكير في قيمٍ أخرى.

تخبرنا القصة الخرافية عن الحيوان "Watership Down" عن مستعمرة للحيوانات البرية التي أخذت من مكانها بسبب إقامة مشروعات بناء. وبينما كانوا يتجولون في المكان الجديد، التقوا صدفة بأرانب جديدة ضخمة وجميلة ذات شعر لامع ومخالب وأسنان براقة. وسأل الحيوان البري هذه الأرانب: كيف تعيشون هذه الحياة الطيبة؟ ألا تبحثون عن الطعام؟ فأجابت الأرانب المستأنسة بأن الطعام يُقدم لهم في صورة جزر وتفاح وقمح. وأن الحياة هنا رائعة.

ومع ذلك، فبعد بضعة أيام. لاحظت الأرانب البرية أن أسمن أرنب مستأنس اختفى. فقالت الأرانب المستأنسة إن هذا أمر يحدث بين الحين والآخر. ولكننا لا نسمح لهذا الأمر أن يعطل حياتنا، إذ يُوجد الكثير الذي يمكننا أن نتمتع به. وأخيراً، وجدت الأرانب البرية أنَّ الأرض امتلأت بالفخاخ وأن الموت أصبح "كسحابة فوق رؤوسهم".

وفي مقابل حياتهم المريحة، أغمضت الأرانب المستأنسة عيونها بإرادتها عن حقيقة واحدة وهي: قرب حدوث الموت.

ويمكننا أن نأخذ درساً أخلاقياً من هذه الخرافة. يمكننا. مثل تلك الأرانب السمينة - كما يفعل بعض الناس - أن نؤمن بأن الهدف الوحيد من الحياة هو أن نحيا حياة مريحة. رفه نفسك، إبنِ منزلاً جميلاً، استمتع بالطعام الجيد، مارس الجنس، عش حياة طيبة. وهذا هو الهدف من وجودك على الأرض. ولكن وجود المعاناة يُعقدً أسلوب الحياة بطريقة كبيرة - مالم نختر أن نلبس نظارة سوداء مثل الأرانب المستأنسة.

ومن الصعب أن نصدق أن العالم الذي نعيش فيه هو بهذه الصورة، بينما ثلث سكانه لايجدون مايأكلونه كل ليلة. ويصعب علينا أن نصدق أن قصد الحياة هو أن نشعر بأننا في حالة طيبة، بينما نرى المراهقين يموتون على الطرق السريعة. وإذا حاولت الهروب إلى الله، فإن المعاناة والموت هما بالقرب مني، يرعبونني ويذكرونني بأن الحياة خاوية وفارغة إذا كان هذا العالم بهذه الصورة التي أعرفها.

إن المعاناة هي "إشاعة من الأعالي" أحياناً تكون في صورة همس خفيف وأحياناً أخرى تصرخ وتقول بأن حالة البشرية كلها في ضلال. يوجد خطأ في حياة الحرب والعنف والمأساة الإنسانية. والذي يريد أن يقنع بهذا العالم وأن يصدق أن الهدف الوحيد من الحياة هي المتعة، يجب أن يسير واضعاً قطعة قطن في أذنيه، لأن صوت بوق الألم مرتفع للغاية.

منذ ثلاثة قرون، انشغل عالم الرياضيات الفرنسي بليز بسكال *Blaise Pascal* عن بعض أصدقائه الذين كان يبدو عليهم تجنب أهم قضايا الحياة. ووصفهم في هذه المحاكاه الساخرة:

"أنا لا أعرف من وضعني في هذا العالم، ولا

ماهو العالم. ولا من أنا، أنا في جهل عظيم بكل شئ .... وكل ماأعرفه هو أنني يجب أن أموت حالاً، ولكن الذي. أعرفه أنني لا أستطيع الهروب من الموت.

وكما أنني لا أعرف متى أتيت، كذلك لا أعرف إلى أين أذهب. أعرف فقط، أني عندما أترك هذا العالم سوف أسقط للأبد إما في مكان للإبادة أو بين يدي إله غاضب دون أن أعرف في أي من الحالتين سأكون للأبد. هذه هي حالتي المملوءة بالضعف وعدم التأكد. ومن كل هذا، أستنتج أنني يجب أن أقضي كل أيام حياتي بدون الاهتمام والاستفسار عما يجب أن يحدث لي. وربما أجد حلاً ما لبعض شكوكي ولكن لن أرهق نفسي في البحث عن ذلك".

وهز باسكال رأسه في حيرة من أمر هؤلاء الناس الذين يشغلون أنفسهم بالأمور التافهة أو حتى بأمور هامة، وطوال الوقت يتجاهلون أهم الأمور على الإطلاق. وقال Pascal: "إنه شئ ساحر مهم وسبات خارق للطبيعة".

وتحاول بعض الأديان الأخرى أن تُنكر كل الألم أو ترتفع فوقه. أما المسيحية، فتبدأ بالتأكيد على وجوده كبرهان على حالتنا الساقطة. وقد يرفض الإنسان التفسير المسيحي لأصل المعاناة ـ أنها دخلت إلى العالم كنتيجة لحرية الإنسان الناقصة ـ على أنها غير مرضية. ولكن على الأقل، فإن فكرة أن العالم عظيم ولكنه سقط تتماشى مع مانعرفه عن الحقيقة. إنها تناسب الطبيعة المزدوجة لهذا العالم ولنا نحن أيضاً.

إننا نشبه الأحياء الباقين من سفينة محطمة، مثل Crusoe الذي ألقيّ على الشاطيء مع جثث من أرض أخرى. إن هذا الوجه من المسيحية هو الذي جعل تشيسترتون يقول: "قال لي الفليسوف الحديث مرة تلو الأخرى أنني في المكان الصحيح. ومازلت أشعر بالاكتئاب حتى في

القبول والإذعان. ولكني سمعت أنني في المكان الخاطئ، وترنمت روحي بفرح مثل العصفور في الربيع". وقد أخبره المتفائلون أن العالم هو أفضل عالم يمكن وجوده، ولكنه لا يستطيع قبوله. وبالنسبة له، فقد أصبحت المسيحية ذات معنى لأنها صرّحت بكل حرية بأنه تُرك في كوكب متمرد.

وأضاف تشيسترتون قائلاً: "الأمر الهام هو أن المسيحية عكست تماماً السبب للتفاؤل. واللحظة التي تحولت فيها الصورة إلى صورة عكسية توقف فجأة الشعور بالراحة. وكنت أطلق على نفسي أنني متفائل، لكي أتجنب تجديف التشاؤم. ولكن كل تفاؤل هذا العصر أصبح زائفاً ويصيب الإنسان بخيبة أمل لهذا السبب، حتى أنه يحاول باستمرار أن يثبت أننا منسجمون في هذا العالم. ويؤسس التفاؤل المسيحي على حقيقة أننا لا ننسجم أو نتفق مع هذا العالم الذي نعيش فيه".

وينتج عن بوق الألم أحياناً أثر عكسي: يمكنني أن أثور ضد الله لأنه سمح بمثل هذا البؤس. ومن الناحية الأخرى، يمكن للألم ـ كما فعل مع تشيسترتون أن يقودني إلى الله. وأصدق الله عندما يقول إنَّ هذا العالم ليس هو نهاية كل شيء، بل إنَّ الله يعد مكاناً كاملاً لأولئك الذين يتبعونه في طريق الألم على الأرض.

ومن الصعب أن تكون إنساناً. فنحن نعتقد أننا قادرون على إدارة عالمنا هذا بدون أن يزعج بوق الألم آذاننا. لهذا فنحن مخطئون، وتثبت ذلك قصة جنة عدن. فالرجل والمرأة، في عالم بدون معاناة، ثارا ضد الله.

ولهذا، فنحن الذين جئنا بعد آدم وحواء لدينا اختيار. ويمكننا أن نثق في الله. أو نلومه ـ ولا نلوم أنفسنا ـ من أجل هذا العالم.

سماع الصدى

إن كان لديك أي شك في قيمة بوق المعاناة والألم،

أنصحك بزيارة إلى عنبر للرعاية المركزة في إحدى المستشفيات. وهناك سوف تجد كل فئات البشر: الغني، والفقير، والجميل، والأبيض، والأسود والذكي، والغبي، والروحي، والملحد، وأصحاب الياقات البيضاء والزرقاء. وعنبر الرعاية المركزة هو المكان الوحيد الذي يتساوى فيه الجميع بدون أية تفرقة.

وفي ذلك المكان، يتحد كل الزائرين في هدف واحد: الاهتمام أو الانزعاج على قريب أو صديق يموت. وهنا تختفي كل الفوارق الاقتصادية وحتى الدينية. ولن ترى أية آثار للتوتر العنصري. وفي بعض الأحيان، يواسي الغرباء بعضهم بعضاً أو يبكون معًا في هدوء وبدون أي خجل. الجميع يواجهون الحياة في أمر ضروري مرتبط بها. وكثيرون يطلبون القسيس لأول مرة في حياتهم. إن بوق الألم قوي للغاية حتى أنه يجعل هؤلاء الناس يركعون على ركبهم ليفكروا في السؤال الهام عن الحياة والموت.

أعتقد أن هذه هي قيمة بوق المعاناة والألم. وينبعث من هذا الكوكب "أنين" مستمر، صيحة من أجل الفداء والرجوع إلى الله، ولكننا غالباً ما نصم آذاننا تجاه الرسالة إلى أن تخبرنا المعاناة أو الموت لكي نتذكر هذا. وأنا لا أقول بأن الله يسمح بالمعاناة بسبب قيمتها كبوق إنذار. (كما أنني أؤمن بأنها تحمل رسالة محددة - "أنت تعاني كنتيجة لهذا العمل" - وهذا ماسيوضحه الفصل التالي). ولكن بوق الألم يعلن رسالة عامة من الألم والأسر لكل البشرية.

الشاعر جون دون الذي عاش في القرن السابع عشر وجد نفسه يستمع لبوق الألم. طرده حماه الغضوب من وظيفته. وفي يأس توجه دوني إلى الكنيسة التي عينته قسيساً لإحدى الكنائس، وبعد عام توفيت زوجته آني تاركة له سبعة أطفال. وفي عام ١٦٢٣، ظهرت بقع على جسده، وشُخص على أنه مرض يُدعى الطاعون الدبلي.

وانتشر المرض وأصابه بالضعف حتى أنه وصل إلى الموت (واتضح أن هذا المرض هو تيفود وليس طاعوناً).

ووسط هذا المرض كتب دوني سلسلة من التأملات الروحية عن المعاناة والتي اعتُبرت من أكثر التأملات تأثيراً على المشاعر والتي كُتبت في هذا الموضوع. وكتب هذا الكتاب وهو في سرير المرض مقتنعاً بأنه سيموت بعد قليل.

وفي هذه التأملات التكريسية يدعو دوني الله لكي يعمل. وعندما يتذكر حياته السابقة، لا يجد لها معنى. وبعد أن قضى طول حياته في تساؤلات حائرة، وصل أخيراً لمكان حيث يستطيع أن يخدم الله، والآن وهو في هذه اللحظة الحرجة، يصاب بمرض مميت. ولا شئ يبدو في الأفق إلا الحُمى والألم والموت. ماذا نستفيد من ذلك؟.

مامعنى المرض؟ ويقترح كتاب دوني إمكانية الإجابة. وجاءته الدوافع الأولى من خلال النافذة المفتوحة في غرفة نومه والتي سمع منها أجراس الكنيسة تدق معلنة عن وفاة شخص ما. وتساءل دوني للحظة ما إذا كان أصدقاؤه - وهم الذين يعرفون حالته - قد أمروا بدق الأجراس معتقدين أنه مات. ولكنه بسرعة أدرك أن الأجراس تدق لموت أحد جيرانه بالطاعون.

وكتب دوني التأمل رقم ١٧ في كتابه عن معنى أجراس الكنائس، وهي من أجمل الفقرات التي كُتبت في الأدب الإنجليزي: (...لا ترسل أحداً لكي تعرف لمن تدق الأجراس.. إنها تدق من أجلك أنت). لقد أدرك أنه بالرغم من أن الأجراس تدق لموت شخص آخر، إلاأنها تذكرك بما تحاول أن تنساه أو تتناساه هو أننا جميعاً سنموت.

"عندما يموت شخص ما، فهذا لا يعني أنَّ فصلاً قد تمزق من الكتاب بل تُرجم إلى لغة أفضل، ويجب أن يترجم كل فصل هكذا، والله يوظف العديد من المترجمين، البعض يُترجم بكبر السن، آخرون بالمرض، والحرب والعدالة، ولكن يد الله موجودة في كل ترجمة وسوف تربط معًا كل أوراقنا المبعثرة ثانية لتلك المكتبة حيث سنجد كل كتاب مفتوح على الآخر... ولهذا، فالجرس ينادينا جميعاً،

ولكنه يناديني أنا أكثر لأنني قريب من الباب بسبب مرضي".

وفي فترة ثلاثة قرون قبل مجئ سي. إس. لويس، استخدم دوني عبارة مختلفة عن "الألم، بوق الله" لكي يعبر عن نفس الفكرة: قدرة الألم على اختراق الدفاعات العادية والروتين اليومي. فقال: "ياإلهي إنني أحتاج إلى رعدك، فموسيقاك لن تخدمك". وبالنسبة له، أصبحت الأجراس التي تدق مقدمة لصدى موته. فالبنسبة للشخص الميت، كانت فترة، وانتهت الحياة. وبالنسبة لـ دون - المتمسك بالحياة - كانت علامة استفهام نافذة. هل هو على استعداد للقاء الله؟

وكان صوت الأجراس بمثابة منحنى عجيب في مسار أفكاره. ودفع بوق (رعد) الألم دوني لأن يعيد فحص حياته، وماراه كان يشبه ذات الرؤيا.

وقال مرة في اجتماعه بالكنيسة، كما لو كان يرثي نفسه:"إنني الإنسان الذي رأى العذاب" وأصبح من الواضح الآن أنَّ أشد فترات المرض ألماً كانت أكثرها في النمو الروحي. فالتجارب تُطهّر من الخطية وتنمي الشخصية، كما أن الفقر علمه الاعتماد على الله وخلصه من الطمع، وساعده الفشل على التخلص من الطموح العالمي. وظهر نموذج واضح: ممكن أن يتحول الألم إلى منقذ ويقود إلى الخلاص من الخطية.

وعندما تغير تفكير دوني، قاده لأن يفكر في الظروف الحاضرة. هل يمكن الخلاص من هذا الألم؟ إن المرض حرمه من القيام بأعمال حسنة كثيرة، ولكن بكل تأكيد، فإن ضعفه الجسدي لم يوقف نموه الروحي. فكان لديه الوقت الكثير للصلاة: وجرس الكنيسة ذكّره بجاره الذي مات والمعاناة الأخرى الكثيرة في لندن. وتعلم التواضع والثقة والشكر والإيمان. وتخيل أنه رأى رؤيا فقويت روحه، وقام من الفراش وسار في الغرفة كل هذا حدث وهو نائم على السرير.

وباختصار، أدرك دوني أن حياته، حتى وهو على سرير المرض، لم تكن بلا معنى. ووجه طاقته للنشاط الروحي: الصلاة والاعتراف بالخطية، كتابة تأملات روحية، وحوّل تفكيره من ذاته إلى التفكير في الآخرين.

وكانت كتابة التأملات التكريسية بمثابة نقلة كبيرة في مشاعر دوني تجاه الألم. وبدأ بالصلاة لكي يزول هذا الألم، وانتهى بالصلاة لكي يقوده الألم للخلاص والفداء، وتعلم الآخرون من خلال معاناته. ومثل هذا الفداء، قد يأخذ شكل وصورة الشفاء المعجز - وكان يأمل في ذلك - ولكن حتى ولو لم يحدث هذا، يستطيع الله أن يأخذ جمرة ملتهبة ومن خلال نيران المعاناة يصنع منها ذهباً مُصفى بالنار.

"يمكنني أن أقرأ ألمي وحزني كرسالة من الله لتصحيح أخطاء فيّ أو كنوع من الرحمة، وأعترف أنني لا أعرف كيف أقرأها. كيف يجب عليّ أن أفهم هذا المرض؟ ولم أتمكن من الوصول إلى نتيجة بالرغم من أن الموت سيُنهي حياتي. فإن كان الألم حقًا رسالة تصحيح، فسأعتبره نوعًا من الرحمة. ومع أن الألم قد يبدو وكأنه رسالة تصحيح، فليس لديّ برهان أعظم من رحمتك أكثر من أن أموت وأنا مؤمن بك، وبهذا الموت سوف أتحد معك أنت يا من مت من أجلي".

جون دون، *Deuotion* "تأملات تكريسية"

٦

ماذا يقول الله لنا عبر الألم؟

كتب محرر بمجلة تايم "Time" مايلي من مدينة يوبا Yuba في ولاية كليفورنيا:

جلس الزوجان ـ وهما أمريكيان من أصل أسباني ـ تحت حرارة الشمس في مدافن سوتير Sutter، يحيط بهما الأقرباء الباكون، وقد تشابكت أيديهما وهما يحملقان بغباء في التابوت البرونزي الذي يحتوي على بقايا جثة ابنهم بوبي البالغ من العمر سبعة عشر عاماً. وحضر الدفن ستة من زملائه بالمدرسة ووضعوا الزهور البيضاء على التابوت. أما ابنة خالته، فقد ألقت بنفسها على التابوت وهي تنتحب. وبكى الكثيرون من الذين حضروا مراسم

الدفن. وكل مافعله والد بوبي هو أنه هز رأسه تأثرا بالمشهد ثم تحرك هو وزوجته ببطئ نحو السيارة الليموزين وغادرا المكان.

وفي نفس المدافن، نظرت مدام هاري بعيون جافة إلى تابوت ابنها وهو يُدفن في عيد ميلاده السادس عشر. كما أن باميلا إنجستروم التي كانت ترتدي فستاناً ذا خطوط زرقاء وبيضاء ـ هدية من والدتها ـ ماتت في اليوم التالي لعيد ميلادها الثامن عشر. واشتمل الأموات أيضاً على التوأم شارلين إنجل Sharlene Engle وعمرهما ١٨ عاماً واللتين كانتا تحبان أن تغنيا أغنيات تؤلفها أمهما مثل:"استيقظ وابتسم في الشمس المشرقة "Wake & Smil in the Sunshine" "أفتخر بأمريكا Take Prid in America"، وبعد الجنازة وضعوا علامة "للبيع" على سيارتهما لبيعها.

لقد حزن على موتهما حوالي ١٥ ألف مواطن. وكان بالأتوبيس ٥٣ عضواً من جوقة المدرسة الثانوية ومعهم المشرفة Christina Estabrook. وغاص الأتوبيس لمسافة ١١ ٢/٢١ قدمافي الأرض.

وانقلب بهم وحطم السقف كل المقاعد بمن عليها من التلاميذ. وقال كيم كينيون أحد الناجين وعمره ستة عشر عاماً والتي ماتت صديقته التي كانت تجلس بجواره قال وهو يبكي: "سمعتُ أحدهم يصرخ ويقول: "ياإلهي". كما أضاف (١٨عاما) بري مارتن "لقد اختلط الصراخ والأنين بالأذرع والأرجل والأشلاء المبعثرة". وكان عدد القتلى ٢٩ والجرحى ٢٥.

لقد درس الأولاد والبنات معًا بالمدرسة الثانوية. وفي بداية العام، قدموا عرضاً لمسرحية "Fiddler on the Roof" وقبل تخرجهم بثلاثة أسابيع، ذهبوا لحفلة راقصة أقاموها في السبت الماضي. والآن، يذهب أصدقاؤهم إلى المدرسة ويتجولون فيها بحزن إلى أن يصلوا إلى غرفة المدير ليقرأوا قائمة بأسماء الذين ماتوا وأصيبوا في هذا

الحادث. وقال سَيد كارين هيس Said Karen Hess مدير المدرسة: "هذه هي المرة الأولى التي نفقد فيها أصدقاء حميمين".

لماذا مدينة يوبا

لماذا لم تكن مدن أخرى مثل: سالينا، كانساس، تشاركستون، جيورجيا، ردجيوود، نيو جيرسيلماذا بالذات جوقة المنشدين بالمدرسة الثانوية؟ وليس أي فريق آخر؟

إنه حادث مروري عادي يحدث كل يوم وإن كان مروعًا تلك المرة ولكنه ليس مثل الزلزال الذي حدث في باكستان أو الفيضان الذي حدث في كاليفورنيا أو حتى غرق المعدية في مانيلا. ومع ذلك، فإن مأساة تحطم أتوبيس يوبا يجعل مثل هذه الأسئلة تطفو على السطح.

لماذا بالذات هؤلاء الـ ٢٩ شاباً وشابة يموتون على الطريق السريع بهذه الطريقة الشنيعة؟ هل أراد الله أن يقول لهم شيئاً؟ أم أنه أراد أن يرسل تحذيراً أو تنبيهًا لآبائهم أو أمّهاتهم أ وأصدقائهم وكل ما يحث لهم بصلة أن أفيقوا فإن الموت قادم وأنا واثقٌ أنك إن كنتَ من تلاميذ هذه المدرسة، لتبادرت كل هذه الأسئلة إلى ذهنك. وإن كنتُ من أحد الناجين، فسوف تتساءل لماذا لم أمت أنا في حين أن كثيرًا من أصدقائي قد ماتوا.

هل نزل الله من السماء وتسبب في انحراف عجلات الأتوبيس وحدث ما حدث؟ هل رسم الله خطًا بالقلم الأحمر عبر خريطة أنديانا ليحدد مكان العاصفة التي حدثت؟ وهناك يقول: أُخرّب هذا المنزل، اقتل هذا الطفل الذي عمره ست سنوات، تخطي المنزل التالي... إلخ. هل لله برنامج على الأرض يشابه مايحدث في ألعاب الفيديو، ويستخدم في تجاربه باستمرار؟ هل هذا هو أسلوبه في عقابنا ومكافئتنا نحن ضحاياه الذين لا حول ولا قوة لهم؟

إن وضع هذه الأسئلة بهذه الطريقة يبدو تدنيسًا للمقدسات. ولكنها لفترة طويلة أزعجتني وكان الأصدقاء

الحزانى يوجهونها إليّ كالسهم. وكل هذه التساؤلات عن الله هي جزء عالمي من خبرات الألم والمعاناة. ولديّ كتاب عنوانه "نظريات المرض Theories of Illness" يتحدث عن ١٣٩ مجموعة من القبائل حول العالم، وجميعهم فيما عدا أربع فقط، يؤمنون بأن المرض هو دليل على عدم رضى الله أو الآلهة التي يؤمنون بها.

إن للألم قيمةً كبيرة في حماية أجسادنا، ومعظم الناس يفهمون ذلك. وللمعاناة قيمة أخلاقية لعرض حاجتنا كمخلوقات فانية على كوكب يئن. ومعظم المؤمنين المسيحيين يقبلون فكرة أن الله يتحدث إلى الجنس البشري من خلال بوق الألم. وهذا الألم لا يأتي إلينا عامة، بل بطريقة محددة: آلام في ا لأعصاب أو في سحابة عاطفية من الأسى والحزن.

شاهدت ذات مرة مقابلة تلفزيونية مع ممثلة مشهورة في هوليوود والتي غرق حبيبها في ميناء بالقرب من لوس أنجيلوس. وكشفت تحريات الشرطة أنه سقط من اليخت في منطقة خطرة. ونظرت الممثلة إلى الكاميرا، وغطى الحزن ملامحها الجميلة وتساءلت: "كيف يمكن لإله محب أن يسمح بهذا؟".

ربما لم تفكر هذه الممثلة في الله لمدة شهور أو سنوات. ولكن فجأة، لأنها واجهت الألم، فقد انفجرت غاضبة ضد الله. وبالنسبة لها ولمعظم الناس، يأتي الشك سريعًا بعد الألم كرد فعلٍ عكسي. ويضع الألم معتقداتنا الأساسية عن الله على المحك. فعندما أصاب بالألم، لا أستطيع أن أمنع نفسي من التساؤل: ما الذي يريد الله أن يقوله لي من خلال هذا المرض؟ أومن خلال موت صديق؟ هل لديه رسالة خاصة بي؟

أثناء حضوري مأدبة أشار واحدٌ من الضيوف الجالسين بجواري على المائدة إلى الزلزال الذي حدث منذ فترة وجيزة في أمريكا الجنوبية. سألني بجدية وأمانة: "هل تعلم أن نسبة المسيحيين الذين ماتوا أقل كثيراً من نسبة غير

المسيحيين؟" فسألت عن المسيحيين الذين ماتوا - وماذا فعلوا لكي يستحقوا الموت مع الوثنيين؟ وتعجبت من ملاحظته الدقيقة - في مدرج روما القديم أثناء الاضطهاد: المسيحيون ٤ والأسرى ٣.

وفكرت أيضاً في المآسي التي يبدو أنها تستهدف المسيحيين: مذابح الأمريكيين، حادث الأتوبيس الذي كانت تستقلة جوقه الترنيم بالكنيسة، الفيضان الذي اكتسح الحملة الكرازية كولورادو، تحطم سد عند شلالات توكود عند كلية الكتاب المقدس. إن الإيمان بالله لا ليس تميمةً ضد الأسى والألم.

كما أنه ليس ضماناً ضد الشك والخيانة. وكونك مسيحياً مؤمناً فهذا أمر يعقد القضية. فإذا كنتِ مؤمناً بوجود الصدفة البحتة في عالمنا،فما الفرق إذى بين أتوبيس يتحطم سواء كان من مدينة يوبا أو كان من سالينا Salina؟ ولكن إذا كنت تؤمن بعالم تحكمه قوة الله الذي يحبك، فالأمر يختلف تماماً.

ماذا يقول الكتاب؟

غالبًا ما ينطوي الاضطراب العقلي الناتج عن الألم إلى حدٍ كبيرعلى القضية الهامة وهي "السبب". فإن كان الله حقيقة هو المسئول عن كل معاناة العالم فلماذا هو ظالم ومتقلب الرأي؟ هل هو سادي المزاج يتلذذ برؤيتنا نتلوّى من الألم، ويسحق الكائنات البشرية كأعقاب السجائر؟.

وإذ بحثتَ في الكتاب المقدس على إجابةٍ لهذا السؤال: "من الذي فعل هذا؟" فسوف تجد إجاباتٍ مختلفة. ولكي أوضح هذا، أعطيت أحياناً الكتاب المقدس لأفراد في مجموعة، وطلبت منهم أن يقرأوا فقرة ويعلقوا على الإجابة التي تعطيها هذه الفقرة على السؤال والقضية التي هي "السبب".

في سفر التكوين (٣٨: ٧) يشير بوضوح إلى أنَّ الله هو السبب المباشر في معاناة عير "وكان عير- بكر يهوذا-

شريرا في عيني الرب. فأماته الرب". وفي لوقا (١٣: ١٠ - ١٦) نجد أن الشيطان أو (روح شريرة) هو السبب المباشر لضعف المرأة لمدة ثماني عشرة سنة. كما أن الرسول بولس يسمي معاناته، الشوكة في الجسد، "ملاك الشيطان".

وفي أيوب (٢: ٤ - ٧) ويعرض أيوب سببين: الشيطان هو السبب في الألم ولكن بعد أن حصل على موافقة الله.

وفي أمثال (٢٧:٢٦) تؤكد هذه الآية على النتائج الطبيعية لتصرف الإنسان: لو اتبعت نموذجاً شريراً فسوف، تعاني يوماً ما منه من يحفر حفرة يسقط فيها.

وكما وضحت في الفصل الأول أنني فكرت في كتابة هذا الكتاب لصداقتي مع كلوديا كلاكستون وانزعاجي من النصيحة المشوّشة التي أسدى بها إليها أصدقاؤها المؤمنون!. وبمراجعتنا لهذه النصوص الكتابية، هل بها أي نوع من الشك يدعو الناس لإعطاء نصائح مربكة؟ ويمكنني أن أسجل عشرات الآيات الكتابية التي تقدم تفسيرات مختلفة لسبب المعاناة المحددة، ولكن لم أجد حتى الآن في الكتاب المقدس أية نظرية تكون مدعاةً لحدوث الألم.

ويقدم العهد القديم على وجه الخصوص كثيرًا من المواقف - كالضربات العشر على مصر - التي يتدخل فيها الله بطريقة معجزية في التاريخ البشري لكي يُعاقب الشر.

وقد درست هذه الأمثلة بالتفصيل، ومع ذلك لم أتمكن من اقتراح نظرية موحدة، ولكن يمكنني أن أقدم ملاحظتين عامتين:

(١) تحذر الكثير من الفقرات في العهد القديم من النتائج المؤلمة التي تتبع أعمالاً محددة. ويوضح عالِم الكتاب المقدس الألماني كلاوس كلوك Klaus Klock بطريقة مقنعة أن سفر المزامير والأمثال ومعظم أسفار العهد القديم تقدم هذه الفكرة: "الأختيارات الخاطئة تؤدي إلى نتائج مؤلمة".

ويذخر سفر الأمثال بمثل هذه النصائح "الكسل يُلقي في الثبات والنفس المتراخية تجوع" (أم ١٩: ١٥). ويرى هؤلاء المؤلفون أن الله أقام الإنسان والمجتمعات الإنسانية لكي يعملوا طبقاً لمبادىء ثابتة. فالأمانة والصدق والمحبة تُعطي نتائج طيبة أما الغش والكذب والطمع تُعطي نتائج سيئة.

(٢) توضح بعض الآيات في العهد القديم أن الله هو السبب في معاناة الإنسان كعقاب لسلوكه الخاطيء. وتمتليء الأسفار النبوية بتحذيرات من الدينونة القادمة. ولكن لنتأمل في ذلك عن قرب. فعادة ماتتبع تنبوآتهم بالموت والهلاك تحذيرات سابقة طويلة وواضحة. فكل من عاموس وأرميا وأشعياء وحبقوق وهوشع وحزقيال وضّحوا قوائم مؤثرة للشر والخداع الذي يستوجب العقاب.

وفي كل مرة يعلن الأنبياء أن الله سوف يوقف عقابهم إذا عاد إسرائيل وتاب ورجع إلى الرب. أما إذا استمروا في تمردهم فسوف يسحقهم. ومن هذا يتضح أن العقاب والدينونة يأتيان من الله، ولكنهما على أي حالٍ من الأحوال ليسا ظلمًا ناتجًا عن نزوة أو هوى. وكانت العقوبة في العهد القديم متسقة مع "العهد" الذي كان بين الله وإسرائيل وتحدث بعد كثير من التحذير.

وأتفق مع الرأي الذي يقول بأن العهد القديم مملوء بنماذج التفكير التي تنادي بالثواب والعقاب، وتقدم الحياة على أساس هذا المبدأ: "افعل الخير فتكافئ، وافعل الشر فتعاقب". ومع ذلك، فلا أعتقد أن هذا المبدأ يُطبق اليوم. وفي كتابي: "خيبة الرجاء مع الله Disappointment with God" ناقشت "القواعد" التي تحكم علاقة الله مع شعبه إسرائيل وكيف أنها كانت علاقة فريدة من نوعها حتى أنه لا يمكننا - ولا يجب أن نتوقع - أن نحاكيها نضاهيها.

ولنفكر في مبادىء العهد القديم في ضوء نوعية الأسئلة التي يسألها الناس اليوم. فعندما نجتاز تجربة أو ضيقة معينة نتساءل: لماذا أنا؟" وسألت كلوديا كلاكستون نفس

السؤال وكذلك الأصدقاء والأقرباء الحزانى في حادثة مدينة يوبا، وأيضاً الممثلة التي فقدت حبيبها. ألفا سيارة تسير تحت المطر في الطريق السريع ... لماذا سيارتي أنا هي التي تصطدم بالكوبري؟ العديد من الناس يتزحلقون على الجليد طوال اليوم لماذا أنا بالذات تُكسر ساقي وتضيع أجازتي؟ ونوع نادر من السرطان يصيب واحدًا في المائة لماذا أبي بالذات يكون أحد الضحايا؟.

ويعذب الناس المتألمون أنفسهم بمثل هذه الأسئلة، إلا أن الكتاب المقدس يقدم لنا بعض الإرشاد في هذا الصدد. وفي الملاحظة العامة الأولى، قلنا إنَّ بعض الأعمال المعينة قد تؤدي إلى نتائج مؤلمة، وينطبق هذا المبدأ بكل قوة على أيامنا هذه. فالشخص الذي يتزحلق خلف الحدود الآمنة ويتجه نحو المناطق المعرضة للسقوط يضع حياته في خطر. والشخص الذي يسرع بسيارته أثناء سقوط المطر يعرض حياته للخطر. كما أن الشخص الذي أكل أطعمته مقلية يعرض جسمه لمخاطر صحية.

ويذهب سفر الأمثال إلى أبعد من هذه الأمثلة البسيطة ويوضح لنا أن لأعمالنا بُعدًا أخلاقيًا سيؤثر على صحتنا وراحتنا على الأرض. كما أن سلوكياتنا الحديثة - التدخين، ممارسة غير شرعية للجنس، تعاطي المخدرات، إفساد البيئة، الشراهة - كل ذلك له نتائج مؤلمة ومباشرة علينا. ويدرك العلماء ذلك ويعلنون عنه على نطاق واسع. إن المبادىء، التي وضعها الله في الخليقة، تُطبق على المسيحيين وغير المسيحيين. وتوضح جداول التأمين هذه الحقيقة: فولاية أوتاه utah، التي هي مكان طائفة المورمون الذين يهتمون بصحتهم بها أقل معدل لأمراض القلب، بينما نيفادا Nevada الولاية المجاورة لها، التي بها الإنحلال الأخلاقي، بها أعلى معدل.

ماذا عن المبدأ الثاني، الذي فيه يتدخل الله بصورة مباشرة لمُعاقبة الأشخاص على السلوك الخاطيء؟ لقد اندهشتُ كثيراً عندما رأيت المؤمنين يطبقون هذا المبدأ بتعميم وبلا تفكير. إنهم يقومون بزيارة غرف المرضى

بالمستشفيات حاملين معهم هذا الذنب، فيقولون للمريض (لابد أنك ارتكبت خطأ تستحق عليه ما أنت فيه) واتهام ("ربما لأنك لم تُصلّي بالقدر الكافي).

ولكن هناك فرقًا كبيرًا بين المعاناة التي نواجهها - إصابة أثناء التزحلق، نوع نادر من مرض السرطان، حادث أتوبيس، - والمعاناة كعقاب كما هو موصوف في العهد القديم الذي كان الله فيه يحذرهم مرات عديدة قبل عقابهم. وفي الحقيقة ولكي يكون كلامنا مؤثرًا، تحتاج العقوبة طفلاً صغيراً. فلن يستفيد الوالدان كثيراً إن تجسسوا على أطفالهم في أوقات غير متوقعة أثناء اليوم ثم يضربونهم بشدة دون أي تفسير. إن مثل هذه التصرفات الحمقاء، تنتج طفلاً عصبيًا وليس طفلاً مطيعاً.

وعرف شعب إسرائيل لماذا عاقبهم الله، فقد حذرهم الأنبياء بإسهاب شديد. كما أن ملك مصر عرف تماماً لماذا لم يمنع الله الضربات العشر عن أرضه: فقد أخبر بها الله مسبقاً، وقال له السبب، ووضح له أن تغيير فكره وقلبه يمكن أن يوقف هذه الضربات. وهنا نرى أن الألم يأتي بعد تحذيرات كثيرة ولا أحد يجلس بعد ذلك ويسأل: "لماذا؟" فهم يعرفون جيداً لماذا يعانون.

هل يمثل هذا النموذج مايحدث لمعظمنا اليوم؟ هل لدينا رؤية مباشرة من الله تحذرنا من كارثة قادمة؟ هل معاناتنا الشخصية تحتوي على تفسير واضح من الله لنا؟ إن لم يكن الأمر كذلك، يجب أن نتساءل ما إذا كان الألم الذي يشعر به معظمنا - السرطان، حوادث المرور - هو عقاب من الله. وإن كان كذلك، فإننا نحصل في واقع الأمر على رسائل مربكة ومحيرة، إذ يبدو ظهور المرض والألم بطريقة عشوائية، ولا يرتبط بأي فضيلة أو رذيلة.

وأقول بصراحة، إن لم يكشف لنا الله هذا الأمر بكل وضوح، فسوف نفعل حسناً إذا بحثنا عن نماذج كتابية أخرى. ويحتوي الكتاب على بعض القصص عن أناس تألموا وعانوا ولم يعاقبهم الله.

ما الذي يقوله يسوع؟

يؤمن المسيحيون أنه بمجيء المسيح، قد دخل الله بصورة كاملة إلى التاريخ البشري. فلم يعد "بعيدًا هناك" يأتي أحياناً في مسيرة التاريخ ليغير بعض الأشياء. إنه الآن يسكن في أجساد البشر الذين على الأرض، وجعل نفسه موضوع القوانين المادية وحدود هذا الكوكب. ولهذا، فإن أفضل مفتاح لدينا لمعرفة كيف يشعر الله تجاه الألم البشري هو أن ننظر إلى استجابة يسوع.

ولم يُعط يسوع على الإطلاق شخصاً فقيراً أو متألماً حديثاً عن "قبول نصيبه في الحياة" أو "أن يأخذ الدواء الذي أعطاه إياه الله". ويبدو أنه حساس للغاية تجاه أنين ومعاناة الناس ويجول بينهم ليشفيهم. وهو يستخدم قوّته الخارقة للطبيعة ليشفيهم، لا ليعاقبهم.

وكانت معجزات الشفاء من أكثر الأمور التي تُدخل السرور إلى الجماهير التي تحيط به، ومع ذلك، رفض يسوع أن يجعلها محور خدمته، بل استخدم الشفاء الجسدي "كعلامات" لحقٍ أكثر عمقاً من مجرد الشفاء. وفي بعض الأحيان، كان يبدو أن يسوع يرفض أن يتدخل، قائلاً لتلاميذه إنه قدم هذه العلامات (الشفاء ...إلخ) فقط لأن الناس في حاجة إليها. وفي معظم الأحيان، كان يُسكت انتشار الإشاعات عن معجزاته. وفي مناسبات معينة، تعمد يسوع أن لا يتدخل في النظام الطبيعي للأمور، فمثلاً لم يستدع الملائكة ليخلصوه في أشد ساعات الألم.

هل يقول لنا الرب يسوع أنه ليس جيداً أن يتدخل الله في عالمنا على أساس يومي؟ والأمر الهام هو ملكوت السموات - أليس عمل الروح في داخل قلوبنا وعقولنا أمرًا مذهلاً يُظهر قوة الله؟ لقد تواضع الرب يسوع وجاء لأرضنا لكي يُحدث تغييرات أساسية في القوانين الطبيعية التي تحكم هذا الكوكب. أو بالحري إعادة تشكيل الجهاز العصبي للإنسان ليجري تحسينات في التصميم الأول،

وهو نفسه اتخذ شبكة الألم بكل ملامحها الغير مرغوب فيها. وعندما واجه الألم، كان رد فعله مثلنا: إتسم بالخوف والفزع.

كيف تعامل الرب يسوع مع السؤال: "من هو المسئول عن المعاناة؟". ونجد أوضح إجابة على هذا السؤال في (لوقا ١٣). ومرة أخرى - تماماً مثل العهد القديم - نجد العديد من الإجابات. *فمثلاً في عدد ١٦ يعلن الرب يسوع أن الشيطان هو سبب الآلام التي عانت منها المرأة لمدة* ١٨ سنة. وفي نهاية الأصحاح يحزن يسوع على مستقبل أورشليم: ومثل أنبياء العهد القديم، استطاع أن يرى أن ثورتها وعنادها سوف يجلبان عليها المعاناة.

ولكن في بداية هذا الأصحاح، سُئل يسوع عن "حادثتين" أثارتا الكثير من المناقشات المحلية. واحدة منهما حدثت تحت ضغط سياسي، التي فيها قتل الجنود الرومان أعضاء في أقلية دينية، ثم حادثة الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم. وعندما أدرس الكتاب المقدس، لا يمكنني أن أجد موقفاً آخر أكثر شبهاً لنوعية المعاناة التي نعانيها نحن الآن. إن يهود القرن الأول يتساوون مع حادثة أتوبيس مدينة يوبا أو حادثة سقوط سقف الاستاد.

وكانت إجابة الرب يسوع مهمة وذكية. فلم يُعطهم إجابة كاملة بحسب تفكيرهم، السؤال عن السبب. ولم يوضح لهم شيئًا واحدًا: إن ذلك لم يحدث نتيجةً لفعل أخطاء محددة:"أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا. كلا أقول لكم....أو أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس في أورشليم. كلا أقول لكم" (لوقا ١٣: ٢ - ٥).

لا يحتاج أي من أقرباء هؤلاء الناس الحزانى لأن يقف ويتساءل ما سبب هذه الكارثة، فقد وضح يسوع أن الضحايا لم يفعلوا شيئاً غير عادي لكي يستحقوا ماحدث لهم. فهم مثل الناس الآخرين. هو لم يقل هذا، ولكن ربما

سقط البرج لأنه لم يكن مبنيا بطريقة جيدة. وأثق أن يسوع كان سيعطي إجابة مشابهة لما حدث في مدينة يوبا "هل تعتقدون أنهم خطاة أكثر من المراهقين الآخرين؟" وربما تحطم الأتوبيس بسبب خطأ السائق أو عيب في ميكانيكا السيارة نفسها.

ولكن الرب يسوع لم يتوقف عند هذا الحد. فقد استخدم الحادثتين ليشير إلى حقائق أبدية تترابط بكل شخص:"إن لم تتوبوا فجميعكم ستهلكون" ثم يذكر مثلاً عن رحمة الله التي لها حدود. وهو يشير إلى أننا نحن (من شاهد ومن سمع المأساة) علينا أن نأخذ درساً مما حدث. فيجب أن توقظنا المأساة لكي نكون على استعداد فربما يحدث لنا نفس الشئ أو ربما حادثة إرهاب سياسي. ولهذا، فالكارثة تربط معًا كلاً من الضحية والمتفرجين وتدعوهم إلى التوبة وتذكرنا بحياتنا القصيرة هنا.

هل الله هو السبب؟

حضرت مرة خدمة تعزية في جنازة لوفاة فتاة مراهقة في حاث سيارة. وبينما كانت أمها تبكي، كانت تردد الكلمات الآتية:"لقد أخذها الرب للبيت السماوي. لابد وأن له قصدًا من ذلك أشكرك يارب". وأحياناً أخرى عندما كنت أزور المؤمنين المرضى، أسمعهم يتساءلون: "ماالذي يريد الله أن يعلمني إياه؟ كيف يكون لديّ الإيمان الكافي لكي أتخلص من هذا المرض؟ كيف أقنع الله لكي ينقذني؟".

ربما يكون كل هؤلاء الناس مخطئين. وربما لا يريد الله أن يقول لنا شيئاً محدداً بالذات في كل مرة نتألم فيها. إن الألم والمعاناة هما جزء أساسي من نسيج الحياة على هذا الكوكب، والمؤمنون لا يستثنون من هذا. ولفترة كبيرة من حياتنا نحن نعلم لماذا نصاب بالمرض: قد لا نمارس الرياضة، عادات سيئة في الأكل، نصاب بالجراثيم. هل نحن نتوقع أن قوة الله تحيط بنا من كل ناحية ليحمينا عندما نواجه أية مخاطر؟.

وبحسب فهمي للأمر، فإن أسلوب الرب يسوع يتمشى تماماً مع ما اقترحته عن "الألم كبوق يستخدمه الله لإنذارنا". ويعطي الألم رسالة تحذير عامة لكل البشرية تقول بأنه يوجد خطأ ما على هذا الكوكب، وأننا بحاجة إلى تدخل خارجي أساسي ("مالم تتوبوا ..."). ولكنك لا تستطيع أن تربط بين الألم وعقاب الله.

وتوجد في الكتاب المقدس قصة قد توضح هذا الأمر بطريقة أفضل: في إنجيل يوحنا الأصحاح التاسع، يفند ويرفض الرب يسوع التفسير التقليدي للمعاناة. فعندما سأله التلاميذ عن الرجل الأعمى:"هل أخطأ هذا أم أبواه؟" وكأنهم أرادوا أن يسألوا"لماذا استحق هذا الرجل أن يُصاب بالعمى؟" فأجاب يسوع بكل حزم "لا أخطأ هذا ولا أبواه بل لتظهر قوة الله فيه".

أراد التلاميذ أن ينظروا للوراء ليعرفوا "لماذا؟" وإذا بالرب يسوع يُعيد توجيه انتباههم. وبكل إصرار وحزم أشار للأمام مجيباً على سؤال مختلف:"ماهو الهدف؟" وأثق أن هذه الإجابة تلخص رأي وأسلوب كلمة الله في مشكلة الألم. فإجابة الأسئلة "لماذا؟" بأسلوب الماضي لا تعطي إجابة محددة. ولكنها تعطي أملاً في المستقبل، حتى أن المعاناة يمكن أن تتحول إلى بهجةٍ أو نخلص منها. والمأساة الإنسانية، مثل العمى، يمكن استخدامها لإعلان عمل الله.

وفي بعض الأحيان، تماماً مثل ما حدث مع الرجل الأعمى، قد يظهر عمل الله وقدرته من خلال معجزة درامية. وأحياناً لا يحدث ذلك. ولكن في كل الحالات، تقدم المعاناة لنا فرصة لإظهار عمل الله ومجده في حياتنا.

"هناك في السجن عندما كنت أستلقي على القش المتعفن، شعرت في داخلي بأول حراك للخير والصلاح. وتدريجيا، اكتشفتُ أن الخط الذي يفصل بين الخير والشر، لا يمر عبر الحالات التي يجتازها الإنسان، ولا بين طبقات المجتمع، ولا بين الأحزاب السياسية، ولكن من خلال كل قلب إنساني بل ومن خلال كل القلوب البشرية ...لقد أنعشتُ روحي وأنا في السجن، وقلت بدون أي تردد: مبارك أنت أيها السجن لأنك كنت مرحلة في حياتي".

"ألكسندر سولجنستين"

٧

لماذا نحن هنا؟

قد يبدو أن الكتاب المقدس يُعطي إشارات مختلطة عن سؤال السبب. ولكن من أكثر علاجات الكتاب المقدس شمولاً هو موضوع المعاناة والذي احتوى على رسالة لا تخطيء. وظهرت هذه الإجابة في سفر أيوب الذي في وسط العهد القديم.

وإن كانت قصة أيوب من أقدم القصص في الكتاب المقدس، فإننا نقرأها وكأنها حدثت بالأمس لأنها تواجه مباشرة مشكلة الألم التي تُعذب القرن الذي نعيش فيه.

وفي الفترة الأخيرة، حاول مؤلفون مثل آرتشيبالد ماكليش، و موريل سبارك Archibald MacLeish, and Muriel Spark أن يُعيدو سرد قصة أيوب.

أيوب، الذي كان أكثر الناس استقامة وروحانية في عصره، أحب الله بكل قلبه. وفي الحقيقة، قد اختاره الله ليؤكد للشيطان مدى الأمانة التي يمكن أن يصل إليها البشر. وإذا كان هناك أي شخص لا يستحق المعاناة من أجل أعماله، فهو أيوب.

ولكن ماالذي حدث؟ سلسلة لا تُصدق من الكوارث المدمرة نزلت على أيوب، وأي واحدة منها تكفي لسحق أناس كثيرين.

فقد حطمت الغارات والنيران واللصوص والعواصف كل مزارعه وممتلكاته. ولم يبق من أسرته الكبيرة إلا زوجته. والجزء الثاني من التجارب كان ضرب أيوب بالقروح.

وهكذا وفي ظرف ساعاتٍ، انسكبت على أيوب كل عذابات الجحيم، إذ فقد ثروته وصحته. وبدأ أيوب من شدة الألم يحك قروحه ويئن. وإلى حد ما تمكن من احتمال ألمه. ولكن الذي آلمه كثيراً هو الشعور بالخيانة. وحتى الآن كان يؤمن في إله محب وعادل. ولكن ماحدث له على أرض الواقع لا يقول ذلك. وبدأ يسأل أسئلة غاضبة وهي نفس الأسئلة التي يسألها المتألمون. لماذا أنا بالذات؟ ماهي خطيتي؟ ما الذي يريد الله أن يقوله لي؟

وفي هذا الجو المؤلم، بدأ أيوب وأصدقاؤه يناقشون الغموض الموجود في الألم. واستعرض أصدقاؤه الأتقياء معرفتهم الواسعة. عندما هدأوا، كانت مناقشاتهم متشابهة: "ياأيوب، الله يحاول أن يقول لك شيئاً. لا أحد يعاني بلا سبب. فالعقل والمنطق يقولان أن الله العادل يعامل الناس بالعدل. فهو يُكافيء أولئك المطيعين والأمناء. ويُعاقب الذين يخطئون. ولهذا، فلتعترف بخطيئتك، وسوف يرفع عنك الله هذه الآلام".

اقترحت زوجة أيوب عليه أن يلعن الله ويموت. ومع ذلك، لم يقبل أيوب أيًا من الاقتراحين. وعلى الرغم من أن ماحدث له لا يتمشى مع عدالة الله، فهو لم يُنكره. أين

يستطيع أن يجد أيوب الإجابة؟ وفي يأس بدأ أيوب يعتقد أن الله سادِي المزاج وقال عنه إنه "يستهزيء بتجربة الأبرياء" (أيوب ٩: ٢٣).

وفي وجه هجوم أصدقائه اللفظي ناقض أيوب نفسه، وفي بعض الأحيان اتفق مع مايقولونه. ولكنه عندما يفكر في الحياة، تذكر أموراً عن الظلم الذي وقع عليه. فيزدهر اللصوص ويسمنون، بينما يعيش البار في فقر وألم. وفي هذه الحياة، ليس دائماً يُعاقب ويكافئ الشر والخير.

وكانت اندفاعات أيوب تناقض مع التعقل الهاديء لأصدقائه. ولكن عندما كان يفكر ملياً في حالته الخاصة، كان يعتقد أنهم مخطئون. وعلى عكس كل الأدلة، تمسك أيوب بفكرتين متناقضتين: إنه لا يستحق أن يجتاز في كل هذه المأساة، ولكن الله لا يزال يستحق إخلاصه وأمانته. وتمسك أيوب جيدًا بمثل هذه الكلمات: "هل أنت أبر من الله؟".

وربما كانت أكثر الأجزاء إزعاجاً في هذا السفر هي مجادلات أصدقاء أيوب والتي يبدو عليها الشك كتلك التي نسمعها من المؤمنين في هذه الأيام. يجب علينا أن نبحث جيدًا عن سبب معاناتنا، لأننا نكتفي دومًا بذكر أوجاعنا. ومع ذلك، ففي سخرية عجيبة في نهاية السفر، يرفض الله كل نظرياتهم ويقول لأليفاز التيماني: "قد احتمى غضبي عليك وعلى كلا صاحبيك لأنكم لم تقولوا فيّ الصواب كعبدي أيوب" (أيوب ٤٢: ٧).

ولهذا، وحتى في العهد القديم، حيث كانت المعاناة ترتبط بعقاب الله، كان مَثَل أيوب يسطع بشدة. ويجب أن يُلغي سفر أيوب فكرة أننا عندما نعاني فهذا يعني أن الله يعاقبنا أو يحاول أن يبلغنا رسالةً معينة. وبالرغم من أن الكتاب يؤيد المبدأ العام "الإنسان يحصد مايزرعه" حتى في حياته (مزمور ١: ٣؛ ٣٧: ٢٥)، فإن سفر أيوب يُثبت أنه لا يحق لأناس آخرين أن يطبقوا هذا المبدأ على شخص معين بالذات. لا أحد يستحق أن يعاني أقل من أيوب، ورغم ذلك فقليلون هم الذين عانوا أكثر منه.

عالم يتسم بالعدل الكامل

يُركز سفر أيوب في معناه السطحي والظاهري على مشكلة الألم وهي المشكلة التي أناقشها في هذا الكتاب. ولكن في أعماق السفر توجد قضية مختلفة: إنها حرية الإنسان. فكان على أيوب أن يحتمل معاناة لا يستحقها لكي يوضح لنا أن الله يُسر أساساً في منحنا المحبة المجانية.

إنها حقيقة صعبة، يتعثر فهمها حتى على عقول الأذكياء. فمثلاً، ذهب سي. واي. يونج C.Y.Jung إلى تفسير غريب لكي يبرر لنا أسلوب الله في سفر أيوب. وكان يعلم أن الله قرر تجسد المسيح وموته لشعوره بالذنب للطريقة التي عامل بها أيوب. ودخل الله إلى العالم في المسيح لكي ينمو في وعي أخلاقي.

وهنا قد يكون يونج قلّل من قيمة المكافأة والجائزة التي وضعها الله في المحبة المجانية التي متعنا بها. وحدثت تجارب أيوب على أثر مناظرة حدثت في السماء بشأن هذا السؤال: "هل البشر أحرار حقاً؟". ويكشف الشيطان عن نفسه في الأصحاحين الأولين على أنه حسن السير والسلوك. وادعى أن الإيمان هو مجرد نتاج للبيئة والظروف. فوضع أيوب الاجتماعي يدفعه لأن يحب الله. ولذا دخل الشيطان في تحدٍ وقال لله خذ منه كل هذه البركات وسوف ينهار إيمانه. واُختير أيوب المسكين ليجتاز هذه المحنة لكي يتقرر من بعده مبدأ الحرية الإنسانية.

لم يكن الخلاف بين الشيطان والله أمراً سهلاً. وقال الشيطان لله إن أيوب أحبّك "لأنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ماله" وكان هذا بمثابة هجوم على شخص الله. وهذا يشير إلى أن الله لا يستحق كل هذا الحب لذاته، فالناس الأمناء مثل أيوب يتبعونه لأنه يعطيهم "رشوة" ليفعلوا ذلك. وبعد زوال كل هذه النعم عن أيوب، سوف يثبت صدق أو كذب ما ادعاهُ الشيطان عندما تحدى الله.

ولكي أتمكن من فهم قضية الحرية الإنسانية، فمن المفيد

أن أتخيل عالمًا يحصل فيه كل واحد على مايستحقه. ماذا يُشبه عالمٌ يتسم بالعدل الكامل؟

في مثل هذا العالم، سوف تسير الأخلاق وفق قوانين ثابتة، تماماً مثل قوانين الطبيعة. فالعقوبة على الخطأ ستكون مثل الألم الجسدي. فإذا لمست ناراً، فسوف "تُعاقب" فوراً بحرق في جسمك، فالعالم العادل يُعاقب الخطأ والخطية بكل سرعة وتأكيد. وإن مددت يدك لتسرق شيئاً من محل، فسوف تُصاب بصدمة كهربية. وبالمثل، سوف يُكافيء العالمُ العادلُ العملَ الطيب فلو ملأت استمارة IRS بكل أمانة، فسوف تشعر بارتياح وسرور داخليين.

ومثل هذا العالم الخيالي له جاذبية خاصة. فسوف يتسم بالعدل والاجتهاد وسيعرف الجميع بكل وضوح ما الذي يتوقعه الله منا. ومع ذلك، فهناك مشكلة ضخمة مع مثل هذا العالم المنظم: إنه ليس على الإطلاق مايريد الله أن يحققه على الأرض، فهو يريد منا المحبة التي نعطيه إياها لذاته وبدون أي مقابل، ونحن لا نجرؤ على التقليل من قدر المكافأة التي يرصدها الله لهذه المحبة. فمحبتنا لله لذاته (وليس لكي ننتظر عطاياه) هي شيء هام له حتى أنه يسمح لكوكبنا أن يكون سرطان شر في كونه الكبير - ولو لمدة من الزمن.

وإن سارت أمور هذا العالم طبقاً لقوانين عادلة تماماً، فلن تكون هناك حرية حقيقية. فسنتصرف بطريقة صحيحة لكي نحصل على المكافأة الفورية، وسوف تتسم كل دوافعنا لفعل الخير بالأنانية. وسوف نحب الله طبقاً لبرنامج معين وجوع فطري، وليس باختيار ذاتي في وجه البدائل الجذابة. وسوف يكون عالماً أوتوماتيكيا عملاً واستجابة. وعلى النقيض من ذلك، فإن الفضائل المسيحية سوف تنمو وتتقدم عندما نختار الله وطرقه بالرغم من التجارب أو الدوافع التي تدعونا لفعل الشر.

وعبْر كل الكتاب المقدس، يوجد تشبيه يوضح العلاقة بين الله وشعبه ويظل هذا التشبيه ظاهراً على السطح.

الله، العريس، يخطب العروس لنفسه. إنه يُريد جُهّاله. فإذا تأسس العالم على أساس أن كل خطية يعاقب عليها وكل عمل صالح يكافيء عليه، فالعالم الموازي لذلك لن يصلح. وأقرب قياس لهذه العلاقة سوف تكون امرأة يُغلق عليها في غرفة وسوف تدلل وتُعطي رشوة حتى يتأكد الذي يحبها من إخلاصها له. إن الله لا "يحفظ" شعبه. إنه يحبنا، وبذل نفسه لأجلنا، وهو ينتظر بشغف استجابتنا الحرة.

إنَّ الله يُريدنا أن نحبه بكامل إرادتنا وحريتنا، حتى وإن كان في هذا الحب نوع من الألم لنا، لأننا ملتزمون بعلاقتنا معه، وليس لمشاعرنا الطيبة أو المكافآت التي نحصل عليها. إنه يريدنا أن نتعلق به، وهذا مافعله أيوب، حتى وإن كانت لدينا الأسباب القوية لكي ننكره. وهذا، على ما أعتقد، هو الرسالة الرئيسية لسفر أيوب. لقد سخر الشيطان من الله عندما اتهم كل البشر بأنهم ليسوا أحراراً. هل كان أيوب أميناً لأن الله متعه بحياة مزدهرة؟ وقد أثبتت تجارب أيوب المؤلمة الإجابة على هذا السؤال بدون أدنى شك. لقد تعلق أيوب بعدالة الله عندما كان أفضل مَثَلٍ في التاريخ على ظلم الله. وهو لم يبحث عن الله المُعطي ليتمتع بعطاياه، فعندما زالت كل هذه العطايا واصل بحثه عن المُعطي.

وادي صناعة النفوس

إن عالماً يتمتع بعدالة كاملة لن ينتج عنه ما أراده الله هنا ـ هو أن نحبه باختيارنا وحريتنا لذاته هو ـ ولا يريده الله لنا. في الفصول الأولى من هذا الكتاب، استخدمت مثل البرص لكي أوضح قيمة الألم، وكم هو أساس للحياة على هذا الكوكب. وبطريقة مشابهة، يمكن للمعاناة أن تكون أداة ذات قيمة لتحقيق أهداف الله للبشرية.

وقد ذكرتُ أن بوق الألم يجعل من الصعب علينا أن نقبل فكرة أن الله خلقنا على هذا الكوكب الذي "يئن" لنسعى وراء المتعة واللذة. ولكن إن لم تكن سعادتنا هي هدف الله من خلقنا، فما هو قصد الله لهذا العالم؟ ولماذا يهتم بنا؟

ولكي نفهم ذلك جيدًا، دعونا نلقي نظرة تأملية سريعة على هذا المشهد. فقد قرر أب أن يُريح ابنته المحبوبة من أية آلام في حياتها ولذلك لم يسمح لها أن تخطو ولو خطوة واحدة بأقدامها، لأنها قد تسقط على الأرض. وبدلاً من ذلك، رفعها ووضعها في عربة أطفال وحركها من مكان إلى آخر. وبمرور الوقت، لم تتمكن هذه الفتاة المدللة أن تخطو على قدميها لأنها تعتمد تماماً على والدها.

مثل هذا الأب ـ بالرغم من حبه الشديد لابنته ـ سوف يفشل في أهم عمل كان يجب أن يقوم به: أن يربي فتاة مستقلة تعتمد على نفسها. وسوف يكون من الأفضل لتلك الفتاة لو أن الأب وقف على مسافة منها وتركها تسير حتى وإن تعثرت. ولنطبق هذا التشبيه على أيوب، الذي وقف وحيداً في وسط معاناته، لكنة اكتسب قوة جديدة وعظيمة وكما قال الحاخام أبراهام هيشيل *Rabbi Abraham Heschel*: "إن إيماناً مثل إيمان أيوب لا يمكن أن يهتز لأنه نتاج لهزات تعرض لها".

ويوضح سي. إس. لويس الفكرة بإسهاب أكثر في كتابه "مشكلة الألم" *The Problem of Pain* ويقول:

"نحن لانريد أباً في السماء يشبه الجد، والذي ستكون له خطة للكون تجعل الناس يقولون في نهاية كل يوم: "لقد قضينا وقتاً طيباً".

وأود أن أعيش في عالم يسير طبقاً لهذا النظام، ولكن لأن هذا لن يحدث، ولأنه لديّ سبب للاعتقاد بأن الله محبة، فقد توصلت إلى النتيجة بأن فكرتنا عن الحب تحتاج إلى تصحيح.

فإن فكر أحد الفنانين في عمل اسكتش لكي يُسلي طفلاً، فلن يتعب في ذلك كثيراً إذ بإمكانه أن يرضى عن أي مضمون لهذا الإسكتش حتى وإن لم يُحقق قصده.

ولكن نفس هذا الفنان لو فكر في الصورة العظيمة

لحياته ـ العمل الذي يحبه، فمثله كمثل، كرجل يحب امرأة أو أم تحب طفلها. فسوف تكلفه الكثير من المعاناة وخاصة إن كانت الصورة حساسة وتحتاج إلى تعديل كثير لأنه سوف يُجري عليها الكثير من التحسينات التي قد تصل إلى عشرات المرات، وكان يتمنى أن تكون في سهولة الإسكتش الذي انتهى من عمله في دقيقة. وبنفس الطريقة، من الطبيعي أننا كنا نرغب في أن يُخطط لنا الله مصيراً أقل مجداً وأقل معاناة، ولكننا في هذه الحالة نكون في محبةٍ أقل بكثير من تلك التي أرادها الله لنا".

ونعود مرة أخرى إلى هذه الموضوعات والقضايا التي ترجع في معظمها إلىالوجود الإنساني ممثلة في مجموعة من الأسئلة. لماذا نحن هنا؟ إن وجود الألم يحير بل ويثير غضب أولئك الذين يفترضون أن البشر، وهم خلائق كاملة التكوين يحتاجون إلى مكان مناسب ليعيشوا فيه. ومع ذلك، فمن وجهة النظر المسيحية ـ كما قال جون هيك في كتابه "فلسفة الدين *Philosophy of Religion*" ـ إنَّ الله يتعامل مع بشر غير كاملين. ولهذا، يجب على البيئة المحيطة على الأرض أن تربي وترعى عملية "تكوين أو صناعة الروح".

ذكرنا سابقاً بعض مميزات عالم يسير وفق قوانين ثابتة وحرية إنسانية، بالرغم من أن البشر قد يُسيئون استخدام الحرية ويُؤذون بعضهم البعض. وقد اكتشف جون Hick بديلاً آخر، فتخيل عالماً وهمياً يُصمّم لحمايتنا من الألم والشر، واستنتج أن عالماً لا أخطاء فيه سوف يقضي على قصد الله لنا. وقال: "لنفترض ـ وهذا عكس الحقيقة ـ أن هذا العالم هو جنة خالية تماماً من أي ألم أو معاناة. وفي هذه الحالة، يصعب الوصول إلى نتائج. فمثلاً، لا يمكن لأحد أن يؤذي أي شخص آخر: فسكين القاتل سوف تتحول إلى ورقة، أو طلقات الرصاص إلى هواء، وخزينة البنك التي يُسرق منها مليون دولار، سوف تمتليء بطريقة معجزية بمليون دولار أخرى، ولن يكون في مثل هذا

المجتمع أي خداع وغش ومؤامرة وخيانة. ولن يصاب أحد في حادث: متسلقي الجبال، ومصلح المداخن، أو طفل يلعب فيسقط من ارتفاع شاهق سوف يطفو على الأرض بدون أي أذى. ولن تكون هناك حاجة للعمل، ولن تكون هناك طلبات للنجدة في وقت حاجة أو خطر وهذا مايُسبب الإزعاج للناس لأنه في مثل هذا العالم لن يحتاج أحد أو يتعرض لأية مخاطر.

ولكي يسير الكون على هذا المنوال، يجب أن تعمل الطبيعة "بتدبيرات خاصة" بدلاً من السير طبقاً للقوانين العامة التي يجب أن يحترمها الناس وهي عقوبة الألم والموت. وعلى قوانين الطبيعة أن تكون مرنة للغاية: ففي بعض الأحيان، يكون شيء ماصلبًا وقاسيًا وأحيانًا أخرى لينًا ...

ويمكن للإنسان أن يتخيل مثل هذا العالم. ومن الواضح أن أفكارنا الأخلاقية الحالية لن يكون لها معنى في هذا العالم. فمثلاً، إذا كانت فكرة إلحاق الضرر بشخص ما أمرًا ضروريًا كعقوبة لخطأ ارتكبه، ففي هذه الجنة الممتعة لن تُرتكب أية أخطاء. ولن يكون هناك وجود للشجاعة والثبات في بيئة مستقرة، مثل الكرم والشفقة والحب وإنكار الذات، فكل هذه الأمور لن تتكون أو تُنشأ. وكنتيجة لهذا ـ مثل هذا العالم ـ مع أنه قد يُدخل السرور على الناس، إلا أنه لن يصلح لتطوير الصفات الأخلاقية للشخصية الإنسانية. وفي علاقته بهذا القصد والهدف، سوف يكون هذا أسوأ عالم يمكن أن يُوجد.

وعندئذ، سوف يبدو أننا إن أردنا بيئة تساعد على نمو كائنات حرة تتمتع بأفضل صفات الحياة الشخصية، فيجب أن يكون لها قدر مشترك كبير بعالمنا الحاضر. ويجب أن تعمل طبقاً لقوانين عامة وتشتمل على مخاطر حقيقية وصعوبات ومشاكل وعقبات واحتمالات ألم وفشل وحزن وإحباط وهزيمة. وإن لم يشتمل هذا العالم على التجارب والمخاطر التي يشتمل عليها عالمنا، فسوف يشتمل على مخاطر أخرى بديلة.

ولكي ندرك هذا.... يجب أن نفهم أن هذا العالم ـ بكل "صداعه والآلاف من الصدمات الطبيعية التي نتعرض لها ـ هو بيئة لم تُخطط لزيادة متعة الإنسان وتقليل ألمه، بل بالحري سوف يُستخدم كل هذا في عرض مختلف تماماً وهو "تشكيل الروح".

في بعض الأحيان، يكون من السهل على الله أن يتدخل ليمنحنا الإيمان ويساعدنا بطرق غير عادية. ولكن بدلا من ذلك، فقد اختار أن يقف أمامنا ويمد ذراعيه ويطلب منا أن نسير لكي نشارك في تشكيل أرواحنا ونفوسنا. ودائماً ماتتطلب هذه العملية كفاحاً ومعاناة.

ما هو الهدف؟

إن الفكرة التي تقول بأن الأرض هي "وادٍ لتشكيل وصناعة الروح" (وهي عبارة قالها الشاعر جون Keats) تُلقى الضوء على معظم الأجزاء الصعبة في الكتاب المقدس. فمع أن الكتاب يظل غامضاً في تحديد سبب المعاناة، إلا أنه يُعطي كثيرًا من الأمثلة. مثل الآية المذكورة في (عاموس ٤: ٦) "وأنا أيضاً أعطيتكم نظافة الأسنان في جميع مدنكم وعوز الخبز في جميع أماكنكم فلم ترجعوا إليّ يقول الرب". وفي معظم الصفحات التي كتبها الأنبياء العبرانيون، حذروا فيها الإسرائيليين بأنهم سوف يواجهون الكوارث إن أهانوا شريعة الله.

ويعمل معظمنا بمقياس للقيم يختلف عن الله. فنحن نضع الحياة في أعلى مرتبة للقيم، فالآباء الذين أسسوا الولايات المتحدة عرفوا أعلى قيمة يجب أن تسعى أية حكومة لتحقيقها وهي: "الحياة، الحرية والسعي وراء السعادة". ولكن الله يعمل من منظور آخر. فقد قدرها حق قدرها حتى أنه قال إنها "مقدسة" وليس لأحد غيره الحق في أن يأخذها. ولكن في أيام نوح ـ مثلاً ـ لم يتردد الله في ممارسة هذا الحق، وفي مراتٍ عديدة في العهد القديم، أخذ حياة الإنسان ليوقف انتشار الشر.

وبالمثل، توضح الكثير من أجزاء الكتاب المقدس أن بعض الأمور تُزعج الله كثيراً أكثر من ألم أولاده. ولنفكر في معاناة أناس مثل أيوب وأرميا وهوشع. كما أن الله لم يستثنِ نفسه من الألم والمعاناة: تأمل في الألم الرهيب الذي تعرض له عندما أخذ صورة إنسان ومات على الصليب. هل كل هذه الأمور توضح حاجة الله إلى الحب؟ أو هل تُظهر أن بعض الأشياء أكثر أهمية لله من حياة بلا ألم يتمتع بها أتباعه الأمناء؟

وكما ذكرت سابقاً، فالكتاب يغير وبإصرار أسئلتنا التي نطرحها عن الألم. إنه من وبطريقةٍ غامضة نادرًا ما يُجيب على سؤالنا المتخلف "لماذا؟". وبدلاً من ذلك، يثير سؤالاً مختلفاً ومتطوراً "ماهو الهدف؟". فهو لم يخلقنا على الأرض فقط لكي نُشبع رغباتنا ونسعى وراء الحياة والحرية والسعادة. إننا هنا لكي نتغير ولكي نشبه الله حتى أنه يعدنا لكي نقضي حياتنا هنا معه. وقد تتحقق هذه العمليةً بنماذج غامضة عن كل الخليقة: فقد يظهر السرور أحياناً في ثوب الألم، والشر قد يتحول للخير، والمعاناة قد ينتج عنها شيء ذات قيمة.

هل الله يتحدث إلينا من خلال معاناتنا؟ فمن الخطر عبر كتابي هذا وعبر الآخرين أيضًا أن نعذب أنفسنا بالبحث عن هذه الرسالة من خلال ألم أو معاناة محددة. والرسالة ببساطة هي أننا نعيش في عالم له قوانين محددة، مثل كل شخص آخر. ولكن من منظور أوسع، ومن منظور كل التاريخ ـ نعم ـ يتحدث الله إلينا من خلال المعاناة أو بالرغم من المعاناة. فالسيمفونية التي يؤلفها تشتمل على أوتار صغيرة، وتنافر أصوات وأجزاء أخرى مرهقة. ولكن الذين يتبعون قيادته من البداية بقوة متجددة سوف تتحول حياتهم إلى ترنيمة جميلة.

خطآن عظيمان

تنحدر المناقشات دائمًا عن مشكلة الألم إلى اتجاه نحو ماهو مجرد وفلسفي. فعبارات مثل "أفضل العوالم

الممكنة" "مزايا الحرية الإنسانية" "وادٍ لصناعة النفوس والأرواح" مثل هذه العبارات قد تأخذ انتباهنا بعيدًا عن المشاكل الفعلية التي يعاني منها المتألمون. ومع ذلك، فقد شعرت أنه من الضروري أن أكتشف بعض هذه القضايا لأنني أثق أن لها تأثيرًا مباشرًا وعمليًا في استجابتنا للمعاناة.

وفي الحقيقة، فإنني أعتقد أن المؤمنين مشدودين وفي خطرٍ دائم من السقوط في واحد من اتجاهين. وفي هذا الموضوع يمكن أن يكون للأخطاء في التفكير نتائج مأساوية.

الخطأ الأول، يأتي عندما ننسب كل المعاناة إلى الله، ونراها كعقوبة منه على الأخطاء البشرية. أما الخطأ الثاني، فعكس ذلك، إذ يفترض أن الحياة مع الله لن تشتمل على أية معاناة.

وقد ذكرتُ سابقاً واحدةً من النتائج السيئة للخطأ الأول. فتقابلتُ مع الكثيرين من المؤمنين الذين يعانون من أمراض خطيرة تهدد حياتهم، وقال لي جميعهم بدون استثناء عن مدى الخطر المدمر الذي يشعرون به عندما يزورهم زائر ويقول لهم "لابدّ وأنكِ ارتكبت خطأ يستحق العقاب". ففي الوقت الذي يحتاجون فيه للأمل والقوة ليحاربوا المرض، يشعرون بالذنب والشك في أنفسهم. وفرحت بما سجله سفر أيوب عن مناقشات وأحاديث أصدقاء أيوب: فهذا السفر هو بمثابة تذكرة لي بأنه ليس لديّ أي حق لأن أقف بجانب شخصٍ مريض أو متألم وأقول له: "هذه إرادة الله" حتى وإن غُلِّفت هذه العبارة بغلاف التقوى والدين.

إن الاعتقاد بأن كل معاناة هي عقوبة من الله له نتائج بعِيدة، وقد بدا ذلك، للأسف الشديد، عبر تاريخ الكنيسة. فأُعدمت النساء حرقاً لاتهامهن بالهرطقة لأنهن أخذن أدوية تخفف الألم عند الولادة. ويُذكّرهن الكهنة عند الحكم عليهن بالموت بالآية "بالوجع تحبلين وتلدين أولاداً". وعندما أكمل إدوارد جينر Edward Jenner اكتشاف

التطعيم ضد مرض الجدري واجه أعنف معارضة من رجال الدين، الذين عارضوا أي تدخل ضد إرادة الله بحسب مفهومهم. وحتى في عصرنا الحاضر ترفض الطوائف الدينية العلاج الطبي الحديث.

وركز الكتّاب المدنيون على هذا الجانب الضعيف. ففي روايته "الطاعون The Plague" يصف الكاتب ألبير كامو Albert Camus كاهناً كاثوليكياً يدعى الأب بانيلوكس وقد مزقته كارثة. هل يجب أن يكرس طاقته لمحاربة الطاعون أو يعلم شعبه بالكنيسة كيف يقبلون المرض وكأنه من الله؟ وبدأ يتناقش بقوة في هذه القضية في إحدى المحاضرات:"أكد الأب بانيلوكس للشعب أنه ليس من السهل أن يقول مايريد٠٠٠لأن هذه هي إرادة الله، ولذلك يجب أن تكون إرادتنا نحن أيضاً. ولذا فالمؤمنون فقط هم الذين يقدرون على مواجهة المشكلة بثبات٠٠٠ومعاناة الأطفال هي خبز أحزاننا، وبدون هذا الخبز ستموت نفوسنا من الجوع الروحي". هكذا كان الأب بانيلوكس يعظ، ولكنه لم يصدقٍ مايقول: وقرب نهاية الرواية ترك إيمانه بعد رؤيته طفلاً يموت بالطاعون.

ولو لم ينكر الكتاب المقدس أن المعاناة هي نتيجة خطايا معينة، ولو لم يصور أزمة أيوب بمثل هذه الكلمات الكاسحة، ولو لم يظهر ابن الله وهو يقضي أيامه على الأرض وهو يشفي المرضى ولا يعاقبهم، لكانت الكارثة التي سطرها كامو بلا حل. لأنه لو قبلنا فكرة أن المعاناة هي من الله ليعطينا درساً (وهذا ما يؤمن به الإسلام) عندئذ ستكون الخطوة المنطقية التالية هي الإذعان والإيمان بالقضاء والقدر. شلل الأطفال، الإيدز، الملاريا، الطاعون، السرطان، الحمى الصفراء... لماذا يجب أن يحارب أي شخص أيًّا من هذه الأمراض إن كانت هي وسيلة الله لكي يُعلمنا درساً؟

عندما تفشى الطاعون الأسود في إنجلترا في القرن السابع عشر، أفتى البعض بأنه دينونة من الله. ولكن مؤمنين آخرين، من بينهم أطباء ورجال دين، اختاروا أن

يظلوا في لندن لمحاربة المرض. وجمع أحد القساوسة ٣٥٠ قرويا ووضعهم في حجر صحي كإجراء وقائي وليحصر المرض بينهم ويمنعه من الانتشار في القرى المجاورة. وكان جملة من توفوا ٢٥٩ ولكنهم كانوا يخدمون بعضهم بعضاً ومنعوا المرض من الانتشار.

وفي جريدته "سنة الطاعون The Plague Year" قارن دانيال ديفو Daniel Defoe بين استجابة مؤمني إنجلترا بما فعله المسلمون. فعندما انتشر الطاعون في الشرق الأوسط، لم يغير المسلمون (الذين يؤمنون بالقضاء والقدر) سلوكياتهم بل استمروا في حياتهم العادية. ومات منهم عدد أكبر بكثير من الذين ماتوا في إنجلترا التي اتخذت الإجراءات الوقائية لمحاصرة المرض.

وفي العصر الحديث، يتجه بعض المؤمنين بقوة نحو القدرية وصاروا للإسلام والهندوسية أكثر قربًا منها إلى المسيحية. ومنذ عدة سنوات، درس الباحثون في الولايات المتحدة سبب معاناة أهل الجنوب من الأعاصير ووفاتهم بنسبة أكبر من الساكنين في المنطقة الوسطى الغربية. وبعد ماوضعوا في اعتبارهم الفوارق في مواد البناء، استنتج الباحثون أن بعض السكان المتدينين كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر وكانوا يقولون: "إذا ضربتنا الأعاصير فلتضرب، فلا أستطيع أن أفعل شيئاً لإيقافها". وعلى عكس ذلك، كان سكان منطقة الغرب الأوسط يستمعون للتقارير الجوية، ويجهزون معدات الأمان ويحمون أنفسهم.

وإذا كانت تقارير هؤلاء الباحثين دقيقة، فإنه يمكنني أن أصف هذا الاتجاه (القدرية) بأنه ضلالة وانحراف خطير عن العقيدة المسيحية. فكان يجب على أهل الجنوب أن يستمعوا إلى التقارير الطبية ويكونوا على قدر كبير من الحيطة والحذر لمحاربة هذا الخطر الداهم. وقد كان يجب على الأب بانيلوكس أن يكون في الخطوط الأمامية، وأن يضع يديه في يد الأطباء، ويحارب الطاعون. فيسوع نفسه أمضى فترة حياته على الأرض في محاربة المرض والبؤس. ولم يشر ولو مرة واحدة إلى القدر أو الاستسلام للمعاناة.

ونحن سكان هذا الكوكب "الذي يئن" لنا الحق، بل الالتزام، بأن نحارب المعاناة الإنسانية. وكل من له فكر مغاير يجب أن يقرأ مثل السامري الصالح في (لوقا ١٠) ومثل الخراف والجداء في (متى ٢٥).

لاهوت الصحة والثروة

في الأزمنة الحديثة، انحدرت بعض الطوائف الكنسية إلى اتجاه مختلف للغاية، واتجهوا نحو الخطأ الثاني الكبير. وهم يعلمون أن الحياة مع الله ليس فيها أية معاناة. ومثل هذا اللاهوت الذي يُطلق عليه "لاهوت الصحة والثروة"، يمكن أن يظهر فقط في أوقات الغنى ورغد العيش، في مجتمع به مخزون كبير من أدوية تخفيف الألم.

ومن الصعب على المؤمنين في إيران أو كولومبيا أن يكون لهم وجه مبتسم في ظل لاهوت الصحة والثروة. وقال أحد المؤمنين من أوربا الغربية: "أنتم أيها المؤمنون الغربيون غالباً ما تعتقدون أنَّ الازدهار المادي هو العلامة الوحيدة لبركة الله لكم. ومن الناحية الأخرى، تتخيلون أن الفقر، والمتاعب، والمعاناة نتيجة حتمية لعدم رضا الله. ونحن في الغرب، أحياناً مانفهم المعاناة بمنظور خاطئ. فنعتقد أنها قد تكون علامة على محبة الله ونثق في المؤمنين المُجرّبين".

ونحن اليوم، نمتدح أولئك الذين يُشفون بطريقة معجزية ونصورهم في المجلات ويظهرون في التليفزيون ويقدمون الوعد بالشفاء على أنه متاح لكل واحد عندما يطالب به.

وأنا هنا لا أقصد على الإطلاق التقليل من قدر الشفاء الجسدي المعجزي الرائع. ولكن المعجزات لاتقدم حلولاً دائمة لمشكلة المعاناة لأن معدل الوفيات النهائي هو نفسه تماماً بين المؤمنين وغير المؤمنين ١٠٠٪. فكلنا لدينا عيون معرضة لأن تحتاج لعدسات تصحيحية، ولنا عظام معرضة للكسر، ولنا أنسجة معرضة للدمار بسبب الحوادث والقنابل الإرهابية. كما أن المؤمنين معرضون

للإصابة بالسرطان أيضاً، ولهم نصيبهم الكامل في مآسي وأحزان هذا العالم.

والتأكيد في هذه الأيام على الشفاء المعجزي له آثار جانبية سيئة، إذ قد يشعر أولئك الذين لم يُشفوا وكأن الله عبر عليهم وتركهم أو لا يهتم بهم. ومنذ فترة وجيزة شاهدت برنامجاً تلفزيونياً عن الشفاء. وصفق الناس بشدة عندما اتصل أحد المرضى وقال إن ساقه قد شُفيت قبل أسبوع واحد من موعد بترها. وصاح المشاهدون وقال المسئول عن المؤتمر بكل تأثر: "هذه هي أفضل معجزة حدثت هذه الليلة". ولم أتمكن من أن أمنع نفسي من التساؤل عن أعداد الناس الذين يشاهدون البرنامج والذين ستبتر أعضاؤهم ويتساءلون بيأس وإحباط ماسبب فشل إيمانهم.

وعلى نقيض الكثيرين من الذين يبشرون من خلال التلفزيون، كان الرسول بولس يتوقع الألم والمعاناة بعد الإيمان وليس الصحة والثروة. فيقول لتيموثاوس: "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطهدون" (٢ تيمو ٣: ١٢) والشخص المريض ليس انساناً غير روحي. كما أن الإيمان المسيحي لا يمدنا بسحر يحررنا من الجراثيم، أو سد محكم يحمينا ضد مخاطر الأرض لأن هذا يعزلنا تماماً عن التعرف على العالم ـ وهذه رفاهية لم يمنحها الله لابنه.

فإذا صدقت التعليم الذي يقول بأنه لو أصبحت مؤمناً فهذا يضمن لك الصحة والثروة ـ فما حجتُكِ، وهذا هو موضوع الجدال الذي قدمه الشيطان في سفر أيوب، وقد دُحض بكل حزم.

ولكي نسترد التوازن لهذه القضية، فسوف نفعل حسناً لو تعلمنا من جديد دروس الإيمان في عبرانيين ١١. ويذكر الكاتب قائمة بالأشخاص الأمناء عبر القرون. وقد تلقى معظم هؤلاء القديسين المذكورين خلاصاً معجزياً: إسحق، يوسف، موسى، راحاب، جدعون، داود. ويذكر الجزء الأخير من هذا الأصحاح أشخاصًا آخرين عُذبوا، وسُجنوا، ورُجموا ونشروا.

ويعطينا أصحاح ١١ من رسالة العبرانيين تفاصيل عن المجموعة الثانية: الذين طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مُذلين. تائهين في براري وجبال ومغائر وشقوق الأرض. ثم يقدم الأصحاح تقييماً لأعمالهم ويقول: "فهؤلاء كلهم مشهودٌ لهم بالإيمان ولم ينالوا الموعد". ثم يضيف: "لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة".

ومنذ فترة وجيزة، فكرت في هذه القائمة من "قديسي العلي" وأنا أقرأ كتاباً بعنوان "لا تخشى الشر Fear No Evil" وهو آخر ما كتبه ديفيد واتسون David Watson وهو راع وكاتب بريطاني مشهور. أصيب هذا الرجل بسرطانٍ القولون وهو في قمة حياته الوظيفية، وإذ به يقوم بلم شمل أصدقائه المؤمنين حوله وبدأ رحلة يائسة للإيمان. ونال شهرة في وسط الحركة الكرزماتية، واقتنع هو ومعظم أصدقائه بأن الله سوف يمنحه شفاءاً معجزيا من السرطان.

وبمرور الوقت، وتزايد شدة المرض عليه، ازداد ضعفه، وفكر في نوع آخر من الإيمان، وهو الإيمان الذي زرعه القديسون المذكورون في الجزء الأخير من أصحاح ١١ في رسالة العبرانيين. وكان بحاجة إلى الإيمان الذي حفظ أيوب.

وكتب واتسون آخر كلمات كتابه في شهر يناير ومات في شهر فبراير. وتلقى كثير من الناس كتابه بخيبة أمل لأنهم كانوا يأملون في شفائه بمعجزة إلهية غير طبيعية. ولكن جي. آي. بيكر J.I.Packer الذي كتب مقدمة الكتاب بعد وفاة واتسون، اعتبر الكتاب كنوع من استعادة تقليد قديم للكتب المسيحية في "فن الموت The art of dying" فمنذ فترة قريبة، كان يُنظر لموت المؤمن كتتويج إلهي لإنجازاته وقمة حياته الصالحة. وكتب بيكر التقييم التالي:

"حقيقةً إن ديفيد ـ حتى آخر صفحة في كتابه ـ كان يأمل في الشفاء الإلهي الذي لم يتمتع به، فهذا

أمر غير مهم. إن الله في عنايته الإلهية لا يُظهر دائماً لخدامه الغرض الحقيقي للكتب التي يدفعهم لكتابتها، والفكرة الرئيسية من كتاب "لا تخش الشر" هي هزيمة الموت، لا بأن نتجاهله ولا بأن نحمي أنفسنا منه بل أن نواجهه بكل قوة ونمضي إليه عالمين أنه بالنسبة للمؤمن هو الممر والطريق إلى المجد.

لقد قاد فكر ديفيد اللاهوتي لأن يعتقد ـ حتى آخر لحظة في حياته ـ أن الله يريد أن يشفي جسده. ولكن تفكيري أنا يجعلني أقول إن الله أراد ديفيد للمنزل الأبدي، وشفاه تماماً بأخذه إلى المجد في نفس الطريق الذي فيه يوماً ما سيشفينا جميعاً. وأقول إن الصحة والحياة بالمعنى الكامل لهذه الكلمات ليس المقصود بها ما الذي تسبب في موتنا بل هل نموت ونحن في الإيمان أم لا.

"يقول البعض إننا في عيون الآلهة مثل الذباب الذي يضربه الأولاد بقوة في أيام الصيف. ويقول آخرون إنه لا تسقط ريشة من عصفور إلى الأرض إلا بإرادة الآب السماوي".

ثورنتن ويلدير *Thornton Wilder*

٨

أذرع أقصر من أن تصارع الله[1]

أنت مُستلق على سرير بالمستشفى، وتظل حياً بطريقة صناعية من خلال أنابيب مركبة في الذراع والأنف. وقد دمرت زوبعة عاصفة كل ماتمتلكه. وكل ماعملت من أجله ـ المنزل والسيارة والحساب بالبنك ـ اختفى للأبد. وفقدت العائلة، ولم يعد يزورك أحد إلا بعض الجيران السيئين. إنك متعلق بالحياة برباطٍ واهٍ.

ثم تنتقل عبر المراحل العادية للحزن، وتتلون صلاتك وأسئلتك بالمرارة وتقول: "لو أن الله شخصاً قام بزيارتي وأجاب على بعض أسئلتي ... إنني أود أن أصدقه ولكن كيف؟ فكل ماحدث لي يتناقض مع كل شيء أعرفه عن إله محب. لو تمكنت من رؤيته لأسمع تفسيره لماذا أجتاز في كل هذه الظروف الصعبة، لتمكنت من الاحتمال والصبر".

واجتاز شخص في مثل هذه الظروف وتحققت رغبته. وتلقى أيوب ـ الذي هو النموذج الأصلي والأوّلي للمعاناة رغم براءته ـ زيارةً شخصية من الله ذاته الذي أجابه من العاصفة. وتضمنت إجابة الله على تساؤلات أيوب أطول

حديث في الكتاب المقدس. ولأنها ظهرت في نهاية أكمل رسالة عن المعاناة في الكتاب المقدس، فقد تمتعت بميزة أن الله سجل فيها مايود أن يقوله لنا جميعاً بطريقة مباشرة.

أولاً، لنتذكر خلفية الرسالة وماتضمنته. ما الذي يمكن لله أن يقوله لأيوب؟ ربما وضع يده الحانية على رأس أيوب وقال له إن شخصيته ستنمو وتتقدم من خلال تجاربه. وربما أظهر نوعاً من الافتخار بأيوب الذي نال من الله انتصاراً حاسماً وربما قال له: "أنا أعلم يا أيوب أنكِ عانيتِ من معاملة ظالمة ولكنكِ تجاوزتها. وأنتِ لا تعرف ماذا يعني هذا بالنسبة لي ولكل العالم". وربما ألقى الله محاضرة عن ضرورة الحفاظ على الحرية الإنسانية، أو النتائج المأساوية للسقوط. (وربما عرّف أيوب بقيمة الألم، موضحاً له كم ستكون حياته سيئة للغاية لو أصيب بالبرص).

إن بعض العبارات الرقيقة، وابتسامة عاطفية حانية، وتفسير مختصر لما حدث، أو ربما فقط واحدة من كل هذه، كان يمكن أن تساعد أيوب. ولكن الله لم يفعل شيئاً من كل هذا. وعلى النقيض من ذلك، فقد قلب الطاولة على أيوب واندفع نحوه بكل قوة وقال،

"من هذا الذ يظلم القضاء بكلام بلا معرفة. أشدد الآن حقويك كرجل. فإني أسألك فتعلمني".

أيوب ٣٨: ٢ - ٣

ومن هناك بدأ الله يهز أيوب بقوة بسلسلة من الأسئلة - وليس الإجابات - التي تتجاهل فعلياً ٣٥ أصحاحاً تستحق مناقشة مشكلة الألم.

درس من الطبيعة

وفي حديثٍ رائع لله سُجل في الأصحاحات ٣٨ - ٤١، أخذ الله أيوب في جولة لفظية حكى فيها عن كل عجائب الطبيعة. وأنا أيضاً أعجبتُ كثيراً بهذه الصورة الرائعة،

ولكن في ذات الوقت إنتابني شعور بالحيرة. لماذا هذا الحديث في هذه اللحظة؟

إن القراء الذين يقتبسون بإعجاب شديد بعض الآيات من هذا الحديث، أو يختارون منه بعض الآيات ليعلقوها كشعارات على حوائط منازلهم، نسوا تماماً الحالة التي كان فيها أيوب وهو يسمع هذه الكلمات الفخمة: لقد كان مشرداً، بلا صديق، عرياناً، مضروبًا بالقروح وفي يأس كامل. هل هو الوقت المناسب لإعطائه درساً في تقييم وتقدير الطبيعة من حوله؟ ولماذا يستبعد الله السؤال الهام الذي يُمزق ويُعذب أيوب المسكين؟

وأمام أيوب المكتئب، نطق الله بعبارات إلهية رائعة تستحق تفكيرنا:

شروق الشمس. "هل في أيامك أمرت الصبح. هل عرّفت الفجر موضعه؟" (٣٨: ١٢)

المطر والجليد. "أدخلت إلى خزائن الثلج أم أبصرت مخازن البرد؟" (٣٨: ٢٢)

"مَنْ بطن مَنْ خرج الجماد. صقيع السماء مَنْ ولده؟" (٣٨: ٢٩)

"من يحصي الغيوم بالحكمة ومن يسُكت إزقاق السموات. إذ ينسبك التراب سبكاً ويتلاصق الدر؟" (٣٨: ٣٧ - ٣٨)

العواصف الرعدية: "من فرع قنوات للهطل وطريقاً للصواعق" (٣٨: ٢٥)

"أترسل البروق فتذهب وتقول لك هانحن؟" (٣٨: ٣٥)

الأسود. "أتصطاد اللبّوة فريسة أم تُشبع نفس الأشبال حين تزمجرفي عرينها وتجلس في عيصها للكمون؟" (٣٨: ٣٩ - ٤٠)

وعول الصخور. "أتعرف وقت ولادة وعول الصخور أو تلاحظ مخاض الأيائل؟" (٣٩: ١)

حمار الوحش. "من سرّح الفراء حرا ومن فك ربط حمار الوحش. الذي جعلت البرية بيته والسباخ مسكنه. يضحك على جمهور القرية. لا يسمع زجر السائق" (٣٩: ٥ - ٧)

النعامة. "جَنَاحُ النَّعَامَةِ يُرَفْرِفُ. أَفَهُوَ مَنْكِبٌ رَؤُوفٌ، أَمْ رِيشٌ؟ لأَنَّهَا تَتْرُكُ بَيْضَهَا وَتُحْمِيهِ فِي التُّرَابِ، وَتَنْسَى أَنَّ الرِّجْلَ تَضْغَطُهُ، أَوْ حَيَوَانَ الْبَرِّ يَدُوسُهُ. تَقْسُو عَلَى أَوْلاَدِهَا كَأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهَا. بَاطِلٌ تَعَبُهَا بِلاَ أَسَفٍ. لأَنَّ اللهَ قَدْ أَنْسَاهَا الْحِكْمَةَ، وَلَمْ يَقْسِمْ لَهَا فَهْمًا. عِنْدَمَا تُحْوِذُ نَفْسَهَا إِلَى الْعَلاَءِ، تَضْحَكُ عَلَى الْفَرَسِ وَعَلَى رَاكِبِهِ." (٣٩: ١٣ - ١٨)

الحصان: "هَلْ أَنْتَ تُعْطِي الْفَرَسَ قُوَّتَهُ وَتَكْسُو عُنُقَهُ عُرْفًا؟ أَتُوثِبُهُ كَجَرَادَةٍ؟ نَفْخُ مِنْخَرِهِ مُرْعِبٌ." (٣٩: ١٩ - ٢٠)

العقاب: "أمن فهمك يستقل العقاب وينشر جناحيه نحو الجنوب. أو بأمرك يحلق النسر ويعلي وكره" (٣٨ - ٣٩)

فالأسود والنسور والبرق والرعد والتماسيح والثيران، كل هذه صورها الله لأيوب كفنان مفتخر بما فعله. وبعد كل وصف يقول لأيوب: "هل أنت من القوة بمكان لتصنع نسخة مطابقة لهذا العمل الخارق؟ وهل لديك الحكمة الكافية لتدبير هذا العالم؟ وهل لديك ذراع قوية كذراع الله، وهل يمكن لصوتك أن يرعد مثلي؟" كما أن الله استخدم السخرية في الآية (٣٨: ٢١) "تعلم لأنك حينئذ كنت قد ولدت وعدد أيامك كثير".

وضربت كلمات الله أيوب بقوة مدمرة، ودفعته للتوبة والتسليم فقال "قد علمت أنك تستطيع كل شئ ولا يعسر عليك أمر.... ولكني نطقت بما لم أفهم بعجائب فوقي لم أعرفها". (٤٢: ٢ - ٣).

هل أجاب الله على أسئلة أيوب الخاصة بالمعاناة والظلم؟

لم يحدث ذلك. لقد تجنب عمدا أي تفسير منطقي. (إنني أنظر بسخرية إلى ما كتبه كثير من المؤلفين في كتبهم محاولين الدفاع عن مكانة الله المرموقة فيما يختص بمشكلة الألم في حين أن الله ذاته لم ير أية حاجة للدفاع عن نفسه). لماذا إذاً هذه النغمة المقاومة؟ ماالذي يريده الله من أيوب؟

إن الله يريد، وبكل بساطة، اعترافاً بالثقة. فالرسالة التي تلوح خلف هذا الشعر الرائع تنخفض تدريجيا إلى القول: "يا أيوب إلى أن تعرف أكثر قليلاً عن الكيفية التي أدير بها هذا الكون المادي، لا تخبرني عن كيفية إدارة العالم الأخلاقي."

وإذا كنا نحن، مثل أيوب، نجهل العجائب الموجودة في العالم الذي نعيش فيه، عالم يمكننا أن نراه ونلمسه، فمن نحن حتى ندين الله وحكمه لهذا الكون؟ وإلى أن تكون لدينا الحكمة الكافية لكي ندير ونخرج عاصفة ثلجية - أو حتى نصنع قطعة رقيقة من الجليد المتساقط - فليس لنا الحق لأن نقاضي الله. ولندع الشخص الذي يحاول اتهام وإدانة الله أن يفكر في عظمة هذا الإله الذي نتهمه.

فالله كلي الحكمة والقادر أن يدير هذا الكون، لديه الحكمة الكافية لكي يهتم ابنه أيوب، على الرغم من الظروف السيئة للغاية التي مر بها. الإله كلي الحكمة الذي خلقني وخلق العالم الذي أعيش فيه هو كلي الحكمة لكي يرعاني ويهتم بي.

خطأ في كتاب مشهور

إن حديث الله في نهاية سفر أيوب هو أحد الأسباب الرئيسية التي جعلتني لا أتفق مع الاستنتاجات الختامية التي قرأتها في كتاب جيد عن مشكلة الألم بعنوان، "عندما تحدث أمور سيئة لأناس صالحين". وقد كتبه الحاخام هارولد كوشنير Rabbi Harold Kushner بعد رؤيته لابنه وهو يصارع مرض progeria الذي يُسرع بإصابة

الشخص بعلامات كبر السن حتى أن الولد أُصيب بالصلع والتجاعيد والضعف ثم مات.

وفي هذا الكتاب، الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعاً، يوضح كوشنير بأنه تعلم أن يقبل محبة الله ولكنه شك في قوة الله. إنه يثق أن الله صالح، ويكره أن يرانا ونحن نعاني، ولكن ليست لديه القوة الكافية والمقنعة ليوقف مشاكل هذا العالم وأمراضه وتوجد المعاناة والألم على هذا الكوكب لأنه "حتى الله لا يستطيع أن يوقف الفوضى الحادثة في العالم" نعم الله "هو إله العدل ولكن ليس إله القوة". وبكلمات أخرى، الله يتألم كثيراً عند رؤيته لمعاناة هذا الكوكب مثل أي شخص آخر ولكن يداه مغلولتان.

وانتشر كتاب كوشنير على نطاق واسع لأن الناس وجدوا فيه ضالتهم المنشودة. فقد عبر المؤلف عما يُريدون أن يؤمنوا به وهو: الله يرغب في مساعدتهم ولكنه لا يستطيع. وعندما ندعوه لكي يحل مشكلاتنا، فإننا نتوقع منه الكثير والذي لن يحدث. وأصبحت أفكار كوشنير أمراً نود أن يكون حقيقيًا. ولكن هل هي حقيقية؟

وإذا كان كوشنير قد اكتشف حقائق مختفية عن الله، فلماذا لم يعلنها الله في حديثه لأيوب؟ وكان من الممكن أن نسمي سفر أيوب بعنوان فرعي "عندما تحدث الكوارث لواحد من أفضل الناس". فالمنظر المناخي المذكور في الأصحاحات الأخيرة من السفر، قَدَّم وبشكلٍ كامل صورةً حيَّةً لقدرة الله اللامتناهية، إن كان ذلك في حقيقة الأمر هو المشكلة. وبكل تأكيد كان أيوب سيقبل من الله هذه الكلمات: "يا أيوب، أنا آسف لما حدث لك. وأرجو أن تدرك أنه ليست لي أية علاقة بالطريقة التي تحدث بها هذه الأمور معك. كنت أتمنى مساعدتك يا أيوب ولكنني لا أستطيع ذلك".

وبدلاً من ذلك، ستجد في الأصحاحات ٣٨ - ٤١ وصفاً رائعاً ومؤثراً عن قوة الله كما ستجدها في أي موضع آخر في الكتاب المقدس. ولم يعتذر الله على الإطلاق ولو لمرة

واحدة لأيوب بأنه تنقصه القوة، بل بالحري، فإن حديثه عن النعام والثيران، والعواصف الثلجية والكواكب يؤكد مدى قوته.

وإذا كان الله ضعيفاً، فلماذا يختار أسوأ موقف ممكن ليفتخر بقوته؟ وقد علّق إيلي ويسيل Elie Wiesel بتعليق طريف عن الله كما رسمه وتصوره الحاخام كوشنير "إذا كان الله بهذه الصورة فعليه أن يستقيل وليأت مكانه من هو أكثر كفاءة".

استجابة، ليس السبب

ومع أن حديث الله لم يجاوب على أسئلة أيوب، فكذلك قد لا يُجيب على أسئلتنا أيضًا. (إذا نظرنا للوراء، فقد نجد صعوبة في فهم لماذا شعر أيوب بالرضى بهذه الإجابة الغامضة من الله، ولكننا - عندئذ - لم نسمع الله يتحدث إليه من عاصفة مرة أخرى) وفي النهاية، فإن حضور الله هو الذي ملأ هذا الفراغ. ولكن ماهي الدروس التي تنطبق علينا نحن، الذين ليس لهم امتياز سماع حديث الله شخصيًا؟

ومن وجهة نظري، يؤكد سفر أيوب النموذج الذي اتبعه الرب يسوع في لوقا ١٣ ويوحنا ٩. إذ تتضمن المعاناة قضيتين رئيسيتين:(١) السبب ـ لماذا أعاني؟ ومن الذي تسبب في ذلك؟ـ و(٢) الاستجابة غالبًا ما نرغب جميعًا وبدافع الغريزة أن نعرف سبب آلامنا قبل أن نقرر كيف تكون استجابتنا. ولكن الله لم يسمح لأيوب بهذا الاختيار. وحول انتباهه من السبب إلى الاستجابة.

ويبدو الأمر وكأن الله قد وضع حاجزاً بين منطقتين من المسئولية. فهو يقبل بطريقة كاملة مسئولية إدارة الكون بكل مشاكله. وبالنسبة لشخص مثل أيوب - الذي ركز على هذه المشاكل - نصحه الله بما يلي:"توقف عن الأنين والشكوى، فليست لديك أية فكرة عما تتحدث" أو كما عبر فردريك بويكنر Frederick Bueckner عن ذلك بالقول:

"الله لا يوضح لنا مايحدث. إنه يُفجِّر الأمر. ويسأل أيوب عن فكرته عن (الله). وهو يقول هذا ليحاول أن يشرح نوعية الأشياء التي يريد أيوب من الله أن يشرحها له وهي تشبه محاولة إينشتين ليشرح نظرياته العلمية لطفل صغير ... فالله لا يكشف عن خططه وتصميماته العظيمة. فهو بذلك يكشف عن ذاته؟".

أما عن أيوب، فلديه شئ واحد فقط يزعجه وهو: استجابته. ولم يُفصح الله عن السبب الأصلي لمعاناة أيوب، بل بالحري، حوّل الانتباه والتركيز إلى المستقبل. والآن، وقد حدثت المأساة ـ ماذا ستفعل؟ فلو اتبع سياسة اللوم فلن يصل إلى شيء، وهو بحاجة إلى ممارسة المسئولية في استجابته، وهي المنطقة التي يتحكم هو (أيوب) فيها وليس الله.

والنموذج الكتابي متسق وثابت للغاية حتى أنني يجب أن أستنتج مدى أهمية مواجهة المؤمنين الذين يعانون ليس بالسؤال: "هل الله مسؤل عن هذه المعاناة؟" ولكن: "ماهو رد فعلي إزاء هذه المأساة التي حدثت فعلاً؟" ولنفس هذا السبب، سوف أحوّل تفكيري الرئيسي في هذا الكتاب بعيدًا عن الأسئلة النظرية عن المعاناة. وعوضًا عن ذلك، سوف أوجِّه انتباهي مباشرةً إلى أمثلة شخصية لاستجابات فعلية لأناس عانوا من الألم.

إن مشكلة الألم في الكتاب المقدس هي ليست لغزاً فلسفياً بقدر ماهي اختبار لمدى الأمانة والاستجابة البشرية. وكما عبر عن ذلك قسيس في فلوريدا يدعى ستيفن براون Stephen Brown في عبارة لا يجب أن تُوخذ حرفياً، في كل مرة يُصاب فيها إنسان غير مؤمن بالسرطان، يسمح الله لمؤمن آخر أن يُصاب أيضاً بالسرطان، حتى يرى العالم الفرق بين الاثنين.

أي فرق؟ أية استجابة هي الأفضل؟ وغالباً ما يُجيب الكتاب بإجابة مزعجة: "احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة. عالمين

أن إمتحان إيمانكم يُنشيء صبرا. وأما الصبر فليكن له عمل تام لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء" (يعقوب١: ٢ ـ ٤).

"أيها الأحباءُ لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب. بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين" (ابط ٤: ١٢ ـ ١٣).

"الذي به تبتهجون مع أنكم الآن إن كان يجب أن تحزنوا يسيراً بتجارب متنوعة. لكي تكون تزكية إيمانكم وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح" (١بط١: ٦ ـ ٧).

ومن أفضل التعبيرات عن الأسلوب المثالي للكتاب المقدس تجاه الألم تظهر في الاختلاف الذي حدث بين الرسول بولس ومؤمني كورنثوس. وفي لحظة غضب، أرسل بولس رسالة قوية يقول فيها: "لأني وإن كنتُ قد أحزنتكم بالرسالة لست أندم مع أني ندمت. فإني أرى أن تلك الرسالة أحزنتكم ولو إلى ساعة. الآن أفرح لا لأنكم حزنتم بل لأنكم حزنتم للتوبة. لأنكم حزنتم بحسب مشيئة الله لكي لا تتخسروا منا في شيء" (٢ كو٧: ٨ ـ ٩).

"إن الألم يُعيدنا إلى الله" .. إن هذه العبارة البليغة لبولس هي بمثابة ملخص دقيق للدور الذي يقوم به الألم. إنها تؤكد مايقوله الكتاب عن الاستجابة وليس السبب. وهي أيضاً تناسب الدرس الذي طبقه الرب يسوع في الحادثتين المأساويتين في (لوقا ١٣)"إن لم تتوبوا (وترجعوا إلى الله) فجميعكم كذلك تهلكون"(لوقا ١٣: ٥).

ثمار الألم

"افرح وتهلل" "كُنْ مسروراً" كيف تختلف هذه الاقتراحات عن ما يقوله الزائرون للمرضى بالمستشفيات

وهم يبتسمون في وجوههم" انظر إلى الجانب المضيء في التجربة المؤلمة التي تجتازها"؟ ويمكنك أن تقرأ أكثر في نصوص كتابية أخرى لأن كل هذا النصح والتذكير يقود إلى مناقشة تُسفر عن نتائج مثمرة. فالمعاناة ينتج عنها شيء ما، إذ إن لها قيمة كبيرة لأنها تغيرنا.

وعندما استخدم الرسل كلماتٍ مثل "افرحوا" لم يقصدوا أن يقولوا كن قوياً وتصرف كأن شيئًا لم يحدث لك. كما لم يوجد في استجابات المسيح أي أسلوب أو تصرف من هذا القبيل تجاه المعاناة أو فيما قاله الرسول بولس. ولو كانت مثل هذه السلوكيات مرغوبًا فيها، سيكون الهدف هو الاكتفاء الذاتي، وليس الثقة والإيمان في الله مثل إيمان الأطفال.

كما لم توجد أية إشارة إلى تلذُّذ الإنسان بالاضطهاد والألم. وعبارة "افرحوا في الألم" لا تعني بأنه على المؤمنين أن يسلكوا بفرح حتى في المأساة والألم بينما هم يشعرون أنهم يريدون أن يبكوا. ولكن هدف الكتاب هو إلقاء الضوء على النتيجة النهائية والثمار التي يصنعها الله من خلال المعاناة في حياتنا. ولكي يصل إلى هذه النتيجة فإنه يحتاج أولاً إلى التزامنا بالثقة فيه ويظهر هذا في فرحنا أثناء الألم أو التجربة.

وتُقسّم الأعداد الواردة في (رومية ٥: ٣-٥) هذا الأمر إلى مراحل: ".. نفتخر أيضاً في الضيقات عالمين أن الضيق يُنشئ صبراً والصبر تزكية والتزكية رجاء والرجاء لا يخزي لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا". وبكل وضوح وبساطة لا يمكننا أن نكتسب صفة مثل الصبر إلا في الظروف الصعبة. فالشخص الذي يحصل دائما على ما يريد ليست لديه الفرصة ليتعلم الصبر والاحتمال. ويمكن أن يكون الضيق إحدى الأدوات التي تعلمنا مثل هذه الصفات الطيبة.

وبوجهة النظر هذه، وفي ضوء هذا المعنى، يُصبح "الفرح" ذا معنى مقبولاً. كما أن الرسول يعقوب لم يقل

"افرحوا في وسط التجارب التي تواجهونها" بل يقول "احسبوه كل فرح حينما تقعون في التجارب ... وهنا يظهر لنا أن الاختلافات في التعبير وصياغة الكلمات هامة جدًا. فواحد يحتفي بحقيقة الألم، والآخر يحتفي بفرصة نمو الحياة التي يمنحها إيانا الألم. فنحن لا نفرح أو نفتخر بحقيقة أننا في ضيق، ولكن في ثقتنا أن الألم يمكن أن يغير فينا شيئا. وقيمة الألم ليست في ذاته بل في الفائدة التي ستعود علينا. وليس الألم بحاجة لأن يكون بلا معنى، ولهذا، نحن نفرح بموضوع إيماننا وهو الله الذي يستطيع أن يجري التغيير في حياتنا.

وبعد بضعة أصحاحات من رومية ٥، يذكر الرسول بولس آيةً هامة "ونحن نعلم أن كل الأشياء تُعْمِل معًا للخير للذين يحبون الله ..." وأحياناً يُساء فهم هذه الآية ويفسرونها كالتالي "الأشياء الحسنة والطيبة فقط هي التي تحدث للذين يحبون الله" ولكن الرسول يقصد عكس ذلك. والجزء الأخير من الأصحاح الثامن يعرّف ماهي تلك "الأشياء" التي كانت في ذهنه: "شدة، ضيق، اضطهاد، جوع، عري، خطر، سيف..". ومع ذلك، وكما تتضح كل هذه الأمور في حياة بولس، استخدم الله هذه الأشياء لكي يُحقق إرادته من خلال بولس. ومن الدقة أن نقول إن الله كان يعمل في بولس من خلال هذه الظروف الصعبة وهذا أفضل من أن نقول إن الله يعمل في الظروف نفسها.

هل الله يسمح لنا بهذه التجارب في حياتنا لكي تُثمر نتائج طيبة؟ تذكر النموذج الذي ذكرناه في نهاية سفر أيوب. إن الأسئلة عن "السبب" هي في نطاق علم الله، ولا يمكننا أن نتوقع أن نفهم تلك الإجابات. وليس لدينا الحق في أن نفكر ونقول: "بعض الأقارب جاءوا للمسيح أثناء الجنازة، ولابد أن يكون هذا هو السبب لموت القريب" عوضًا عن ذلك، لابد أن ننشغل بالإستجابة. ويصر الرسول بولس وبعض الذين كتبوا العهد الجديد أنه إن كانت استجابتنا بالثقة في الله - بدون شك - فسوف يعمل فينا للصالح. وكما قال أيوب بعين البصيرة "ينجي البائس في ذله ويفتح آذانهم في

الضيق" (٣٦: ١٥).

وفكرة الثمر الذي ينتج عن المعاناة والضيق تُعطي بُعداً جديداً لاختيارنا للألم. فيجتاز البشر ضائقات ذات هدف موجه برغبتهم، كما يحدث مع الرياضيين والمرأة الحامل. وطبقاً لما جاء في الكتاب المقدس، فالاستجابة المناسبة والصحيحة للمؤمن تجاه الألم تُعطي رجاءً وأملاً مشابهاً لمريض يرقد على فراش المستشفى. وعندما نتكل على الله ونثق في أن روحه سيشكلنا على صورة الله، يدب فينا الرجاء "الرجاء الذي لا يخزي". وبكل المعنى نتحول إلى الأفضل بسبب الألم والضيق. ومع أن الألم قد يبدو أحياناً بلا معنى، فهو يستطيع أن يغير الحياة للأفضل.

أين الله في وقت الألم؟ إنه في داخلنا ـ وليس في التجارب التي تؤلمنا ـ ليساعد على تحويل السيئ إلى الصالح. ويمكننا أن نقول بكل تأكيد إنه بإمكان الله أن يُخرج من الآكل أكلاً..، ولكن لا يمكن أن نقول بأن الله يتسبب في الشر لكي تأتي الثمار الجيدة في حياتنا.

رحلة ماري

ذات مرةٍ كنتُ أناقش مع د. بول براند حالة بعض المؤمنين الذين اجتازوا في ضيقات شديدة. وبعد أن سرد العديد من القصص الشخصية، سألته فيما إذا كان الألم أرجع الناس إلى الله أم أبعدهم عنه. وبعد تفكير، قال إنه لا يمكن تعميم الاستجابات. فبعضهم اقترب من الله، وآخرون ابتعدوا بعيدًا وهم يشعرون بالمرارة. ويرجع الاختلاف الرئيسي إلى ما كانوا يُركّزون انتباههم عليه. فالذين سيطرت عليهم أسئلةً كثيرة عن سبب الضيق "ماذا فعلتُ ليحدث لي كل هذا؟ ما الذي يريد الله أن يقوله لي؟ هل يعاقبني؟" هم أولئك الذين ابتعدوا عن الله. وعلى النقيض تمامًا من ذلك، تحمل الذين انتصروا على آلامهم مسئولية شخصية تجاه استجاباتهم ووثقوا في الله على الرغم من معاناتهم. ثم أخبرني د. براند بقصة ماري فيرغيس Mary

Verghese*: "لم تكن ماري مريضة بالبرص ولكنها كانت تعمل بالرعاية الطبية في مستشفى د. براند للبرص، بالهند. وفي أحد الأيام، ذهبت في نزهة بحرية يقودها طالبٌ شاب، قد أراد أن يُظهر شجاعته. وبعد سيره خلف أتوبيس مدرسي بطيء لعدة أميال، وإذا بالسائق فجأة، وبكل غضب يقود سيارته سريعًا نحو حارة المرور، فوجد سيارة أمامه وبدلاً من أن يضغط على الفرامل ضغط على البنزين. فانحرفت العربة التي يقودها الشاب فوق الكوبري ونقلبت في حفرةٍ عميقة.

وسقطت ماري ـ هذه الطبيبة الشابة الواعدة ـ بلا حراك. وأصيبت بجروح بالغة في الوجه. وتوقفت أطرافها عن الحركة. وقضت شهرين يصعب احتمالهما. وبينما وصلت درجة الحرارة إلى ١١٠ في الخارج أثناء فصل الصيف، كانت ماري ترقد في غرفة شديدة القيظ بالمستشفى وهي ملفوفة بكل أنواع الأربطة. وواجهت ساعات محزنة من العلاج النفسي. وفي كل أسبوع، تُجري لها الممرضات اختبار قياس مدى الحساسية ولكنها فشلت في الإحساس بالدبابيس في قدميها.

وبعد ملاحظة تدهور حالتها النفسية وإصابتها باليأس، قام د. براند بزيارتها وقال لها: "لقد حان الوقت يا ماري أن تفكري جدياً في العودة لعملك كطبيبة". واعتقدت في بداية الأمر أن د. براند يمازحها، ولكنه واصل حديثه قائلاً لها إنه بإمكانها أن تزرع في باقي المرضى صفات طيبة من خلال تعاطفها معهم وتفهمها لحالتهم. وفكرت في اقتراحه لفترة طويلة، وكانت تشك في استعادة أطرافها لكي تعمل كطبيبة مرة أخرى.

وبدأت ماري تدريجياً عملها مع مرضى البرص. ولاحظ مجلس إدارة المستشفى بأنّ اليأس، ورثاء الذات والحزن قد بدأ في الاختفاء لدى المرضى عندما بدأت ماري العمل معهم. وبدأ همس مرضى البرص فيما بينهم عن الطبيبة

* وهي مأخوذة من كتاب "خُذْ بيدي Take My Hands" تأليف دورثي كلارك والسون Dorothy Clarke Wilson

التي تعالجهم وهي على كرسي متحرك وهي تعاني من إعاقة أكثر منهم ووجهها مملوء بالبثور. وفي بداية الأمر، بدأت العمل كمساعدة في قسم الجراحة وكان عملاً مرهقاً ومملاً خاصة وهي على كرسي متحرك. وقابلها د. براند في أحد الأيام وهي تدفع الكرسي بين مباني المستشفى وسألها عن حالها فقالت: "في البداية، كان الأمر صعباً للغاية ولكنني الآن أعتقد أن الحياة تستحق أن نحياها".

لقد تضمن شفاء ماري الكثير من ساعات العلاج النفسي المرهق وكذلك جراحة خطيرة في عمودها الفقري. وظلت عاجزة عن ضبط البول وكانت تقاوم آلامًا أخرى شديدة في جسدها. ولكنها الآن لديها بصيص من أمل. وبدأت تفهم أن عجزها لم يكن عقوبة من الله لكي يحبسها في حياة بائسة. بل بالحري، يمكن لهذه التجربة أن تحولها إلى قوة نافعة للآخرين كطبيبة. وقد تمكنت وهي على الكرسي المتحرك بابتسامتها المشرقة الجذابة أن تُكوّن علاقة طيبة مع المرضى المعاقين.

وأخيراً، تمكنت ماري من السير على عكازين. وحصلت على منحة علمية في معهد نيويورك الطبي ثم ترأست قسماً جديداً للعلاج النفسي في مدينة فيلور Vellore بالهند.

وأصبحت ماري مثلاً يُحتذى به لشخص لا يسأل لماذا حدثت لي هذه المأساة. ولكنها عندما توجهت نحو الله وطلبت منه معرفة الهدف من ذلك، تعلمت أن تثق فيه لتنسج تصميماً جديداً لحياتها. وبعملها هذا، حققت الكثير مما لم تكن تستطيع عمله لو لم تتعرض لهذا الحادث في حياتها.

وتقدم ماري مثلاً متناقضاً مع أناس آخرين أعرفهم وقد ابتعدوا عن الله بسبب آلامهم. إنهم يتحدثون عن أمراضهم كما لو أنها كل شيء في حياتهم. إنهم يُطلقون العنان لرثاء الذات التي تثور وتحترق تحت السطح في كل واحد منا.

يواجه الشخص الذي يعاني بعض الاختيارات. فقد يثور في غضب ويأس ضد الله. أو قد يقبل التجربة كفرصة

للفرح. وأنا لا أقصد أن أقول بأن الله يحب نوعاً معيناً من الذين يعانون ويرفض الآخر، أو أن شخصاً أكثر "روحانية" من آخر. وأعتقد أن الله يفهم أولئك الذين يرفضون ويصيحون وأيضاً الذين يتعلمون أن الألم يمكن أن يكون وسيلة لنوال نعمة من الله لتغيير الحياة. (ولنتذكر أن الله كان متعاطفاً جداً مع أيوب وأمانته أكثر من تقوى أصدقائه).

إن الله لا يحتاج إلى استجاباتنا الطيبة لنفسه لكي يُشبع بعض الجوع من الغيرة الأبوية. إنه يحول انتباهنا من التركيز على السبب إلى الاستجابة لمصلحتنا الخاصة ولا مصلحة له في ذلك. وفي الحقيقة، فإن القبول بفرح يجلب الشفاء الذاتي، ومشاعر الفرح والشكر تقلل من الضغط وتهديء الأعصاب، وتُبعد المخاوف وتساعد على تحريك الدفاعات الجسدية.

هل من المعين لنا أن نعرف بالضبط لماذا يسمح الله في لحظة محددة بالألم؟ فمثل هذه اليقظة والوعي تولد الكثير من المرارة. ولكنها تساعد حياتنا العملية عندما نرجع إلى الله في ثقة. ويمكن أن تكسر فينا روح الاكتفاء الذاتي وتخلق مستوى جديداً وعميقاً من الإيمان بالله. وتحول معاناتنا إلى صفات طيبة ذات قيمة.

"إنني لا أطلب صحة ولا مرضاً ولا حياة ولا موتاً، بل أن تنظم وترتب صحتي ومرضي وحياتي وموتي لمجدك. فأنت وحدك الذي يعلم ماهو مناسب لي، أنت السيد صاحب السلطان، افعل معي بحسب إرادتك. أعطني أو خذ مني ولكن أخضِع إرادتي لإرادتك. ياربُ، إنني أعرف شيئاً واحداً، من الصالح أن نتبعك ومن الخطأ أن نُسيء إليك. وبعيداً عن ذلك، فأنا لاأعرف الصالح من الطالح في أي شيء. ولا أعرف ماهو نافع لي، الصحة أم المرض، الثروة أم الفقر، ولا أي شيء آخر في الحياة. فهذا التمييز فوق قدرة البشر أو الملائكة وهو مُخبَّأ بين أسرار عنايتك الإلهية التي أعبدها

ولا أسعى لكي أسبر غورها أو أفهمها جيدا.

— صلاة بليز بسكال

الجزء الثالث

كيف يستجيب

الناس

للألم؟

ألألم لا يمكن أن يُنسى
يتساقط نقطة بعد نقطة
على القلب
حتى أننا في يأسنا
هناك تأتينا الحكمة
من خلال نعمة الإله.

أسخليوس *Aeschylus*

٩

بعد السقوط

إن أفكارًا عن القيمة الناتجة عن الألم والدور الهام لاستجابة الشخص المتألم قد تبدو أفكاراً طيبة نظرياً، ولكن القليل من الناس يشغلون أنفسهم بالمعاناة النظرية. والسؤال المهم هو، هل هذه المبادىء تتحقق وتعمل بنجاح في مواقف الحياة العملية؟

ولكي أتعلم أكثر عن هذا الأمر، قمتُ بزيارة اثنين من المؤمنين الذين يحاربون يومياً ضد الألم، جسدياً ونفسياً، حتى أنهم في بعض الأحيان ينتابهم غضب شديد يصعب السيطرة عليه. وكلا الاثنين انقطعا عن الحياة الطبيعية وهما في مرحلة الشباب واعتقدا أن ذلك حدث بسبب سوء الحظ. ومع ذلك، فالاثنان براين استرنبيرج و جوني أريكسون كانت لهما استجابات متناقضة. وكانت اختباراتهما مع الألم صعبة للغاية حتى أنها تستحق فصلاً كاملاً في هذا الكتاب.

في ٢ يوليو سنة ١٩٦٣ سقط براين استيرنبيرج على رأسه من ارتفاع عشرة أقدام وهذا السقوط الذي حدث في ثانية واحدة غيّر حياته وحياة أسرته. فعندما كان براين في المدرسة الثانوية، كان قد كرّس نفسه للعُبة رياضية غير شائعة وهي القفز العالي بالعصا. وأحب هذه الرياضة بما فيها من أجزاء كثيرة ـ الجري في الممر، وغرس العصا التي سيقفز بها ثم القفز بقوة مثل الكوجر (الأسد الأمريكي)، ودفع القدم الأول، والتردد الخفيف الذي يشعر به في البداية عند فقدان الوزن عند قمة القضيب، ثم النزول السريع والمخيف والقفز فوق المرتبة الهوائية.

ولم يكتف براين بالتفوق في فنون القفز العالي. فعندما عرف مدى فائدة بعض الرياضات الأخرى لجسمه، انضم لممارسة رياضة أخرى في جمنازيوم. وكل يوم تقريباً بعد انتهاء دراسته بالمدرسة الثانوية، كان يتجه إلى الجمنازيوم لممارسة أنواع التمارين التي تساعده في رياضة القفز العالي مثل القفز والنزول على الترامبولين. وتعلم كيف يلف ويحلّق ويدور عالياً في الهواء وهو مستمتع للغاية لتمكنه من هذه الحركات. وتحتاج رياضة القفز العالي إلى نظام وتحكم شديد، وقد أطلقته الرياضة حراً.

وعند التحاقه حديثاً بجامعة واشنطن، سجل براين رقماً قومياً وهو "٨′١٥". وفي السنة التالية، صنفته المجلات الرياضية بأنه الأول عالمياً في رياضة القفز العالي. وكان ذلك في عام ١٩٦٣ حيث كان جون كيندي رئيساً للولايات المتحدة، وهزم براين الروسي، وتركز عليه انتباه العالم وقد كان في التاسعة عشر من عمره.

وفي عام ١٩٦٣، كان براين يحرز انتصاراً في كل أسبوع تقريباً. ولأنه لم يُهزم في المنافسات الخارجية فقد سجل رقماً أمريكياً في المنافسات الداخلية. ثم ارتفع الرقم الذي سجله إلى "٨′١٦". وفي تتابع سريع، سجل أرقاماً جديدة "٧′١٦"، "٨′١٦" وحصل على ألقاب NCAA، AAU. واستقرت أرقام اللاعبين الآخرين أما براين فواصل صعوده.

تلك كانت أيام سعيدة بالنسبة إلى براين وعائلته التي كانت تعلم أن كل هذا المجد سيهرب لأن مثل هذه النجوم يخفت ضوؤها بسرعة. ولكن الأسرة كانت تفرح كثيراً عندما يركبون السيارة ويذهبون لرؤية براين وسط الجماهير التي جاءت لتحيته وهو يحرز هذه الانتصارات.

وتغير كل شئ في ٢ يوليو بعد ثلاثة أسابيع من تسجيله الرقم العالمي الأخير. والآن مازال براين ينافس الآخرين ولكن في منافسات يائسة ومنفردة. ثم لم يعد هناك أي ممارسة لرياضة الوثب العالي.

الحادث

وبدأت المحنة عندما نزع سترته الصوفية وصاح قائلاً: "يا أمي، أنا ذاهب لأقفز برشاقة في مكان السباق". وذهب بسيارته إلى الجامعة وبدأ تمارين الإحماء وكان فريق الولايات المتحدة يُعد لرحلة إلى الاتحاد السوفيتي، وكان تدريب براين ضرورياً للغاية. ومايلي هو وصف براين لما حدث:

"إذا كانت هناك لحظة رعب في رياضة القفز، فهي تلك التي تتجه فيها نحو الجهاز للقفز. ففي تلك اللحظة، حتى أكثر اللاعبين خبرة يُصاب بالارتباك ـ لسبب غير واضح ـ ولا ينتهي هذا الشعور حتى يقفز بأمان وينزل على المرتبة الهوائية. وحدث هذا معي عند بداية الانطلاق. وتهت عن وعْيي وأنا في الهواء واعتقدتُ أنني سأنزل على يدي ورجلي، كما حدث ذلك عدة مرات من قبل عندما يحدث هذا الارتباك. ولكن بدلاً من ذلك سقطتُ على رأسي.

وسمعتُ طقطقة في رقبتي وانتهى كل شيء. ولم أشعر بحركة ذراعي وقدمي. وصرخت قائلاً: "لقد أصبت بالشلل". صرخت بأعلى صوتي ولكنه كان ضعيفاً لأنه لم تكن هناك قوة في الرئتين. فقد أثر الشلل على تنفسي.

لم أتمكن من فعل أي شئ. ولم أستطع أن أتحرك. شعرت بالخوف في بداية الأمر ولكن لسبب ما اختفى الارتباك. وقلت لمن حولي "لا تحركوني، وإياكم أن تحركوا رقبتي". وفي هذه اللحظة عندما بدأت أن أفقد قدرتي على التنفس وأشعر بالضعف الشديد، تذكرت أنني قلت لأحد زملائي أن يمارس الإنعاش بالنفخ من فم إلى فم: "إفعل كل شئ ولكن لا تمل رأسي إلى الخلف".

وتمكن مني الألم المبرح ونحن في انتظار الطبيب. ولم يكن ألماً جسدياً: ولقد تخلصت من التفكير فيما حدث لي وبدأت أفكر في المستقبل القريب. ولم أبدأ التفكير في عدم القدرة على المشي مرة ثانية".

يعرف الأطباء القليل عن نظام الحبل الشوكي، لأنهم لا يعرفون دراسته بسهولة بدون أن يدمروا المريض. ولمدة الـ 48 ساعة الأولى، لم يعرف الأطباء ما إذا كان براين سيعيش أم لا. ولما عاش فعلاً بدأوا في التخمين إلى أي مدى سيتمكن من استرداد حركته.

ولمدة ستة أسابيع، استلقى براين في داخل إطار وأربطة معدنية بها مفصلتان عند النهاية، وهذا ساعد الممرضة لرفع براين لأعلى كل بضع ساعات ليتفادى قرح الفراش ومشاكل أخرى.

وتمكن براين مرة أخرى من تحريك رأسه خارج هذا الإطار المعدني على الرغم من أنه لم يفعل ذلك منذ فترة طويلة بسبب تذكره للصوت المرعب الذي خرج من رقبته أثناء الحادث. كما أنه استطاع أن يُقلص بعض عضلات الكتف. وقبل الحادث، كان يمتاز بعضلات كتف قوية كبطل قفز عالٍ وأما الآن، فبدأت العضلات أيضاً في الضمور. ولإيقاف هذا التدهور، وصّل الفنيون موجات كهربية لعضلاته من خلال إرسال فولت لها وهذا تسبب في انكماشها. واستغرب براين للغاية عندما رأى عضلاته تتحرك بينما لا يشعر بشئ.

ولفترة وجيزة لم يشعر بألم. وفي الحقيقة، فإن الإحساسات الصادرة عن جهازه العصبي لم تثبت له أن لديه ساقين أو ذراعين أو جذعًا. وشعر كأنه معلق كما لو كان يطفو حول الغرفة. ولم يتمكن من الشعور بالفراش الذي تحته.

وأثناء استلقائه على السرير - "الرأس" وليس أكثر من ذلك - بدأ براين يختبر هلوسة ملموسة، فتخيل ساقين وذراعين يمكن أن يأمرهما بالحركة. وسوف يركز بقوة ويقول "كرة سلة" فيرسل وعيه الباطن لمركز الأعصاب ذكرياته عن كرة السلة. فيشعر كما لو أنه ممسك بكرة السلة بين يديه. وفي بداية الأمر، كانت هذه اللعبة للمزاح لتعطيه أملاً أنه في يوم ما سيصبح الأمر حقيقة.

ولكن بعد قليل، انقلبت هذه الهلوسة ضده. فالتصقت كرة السلة بأصابعه الخيالية ولم يتمكن من تركها. وأحياناً أخرى، بدلاً من الكرة، يشعر بشفرة موس ممسكة بإصبعه. ويتخيل أن هذه الشفرة قد تُدمي يديه، ولكن كان هذا الأمر حقيقيًا تماماً لشبكة الألم لدى براين. ولفترة ما لم يتمكن من الهروب من الخيال الذي صور له أن صامولة معدنية رُبطت بشدة فوق كل إصبع من اصابعه.

وعند الليل بدأت الكوابيس: كان يرى نفسه في كوابيس مخيفة وهو يرقص على حوائط غرفته والسقف أيضاً مثل الذبابة. وكوابيس أخرى لا شكل لها ولا خطة معينة وكلها كانت تُشعره بالرعب. وبعد هذه الكوابيس يأتي الصباح، وهذا أسوأ بكثير لأنه لا يستطيع أن يستيقظ من كوابيس الحقيقة.

وكانت تنتابه لحظات من الاكتئاب العاطفي دون أي إنذار وهي أكثر قسوة من الهلوسة. وكان يرى جسمه الرياضي يضمر ويضعف. وكان ينظر لعدة ساعات لنفس الحائط، وبنفس التفكير اليائس الخيالي يحاول أن يجعل عضلاته تطيع أوامر المخ. وفي كل مرة يفشل في ذلك، يبدأ في المعاناة من نوبات عاطفية. ويصرخ في وجه الأطباء قائلاً: "...لا أعرف ماذا أفعل. لا شئ يحدث، لا يمكنني أن

أكون مقيدا وأنا مستلق بهذه الصورة، أنا منهك. حاولت أن أتحرك لمدة طويلة ولكنني لم أتمكن من ذلك..." وتحبس الدموع كلماته.

وعندما ينتابه الاكتئاب بين فترة وأخرى، تقل لديه فترات الراحة التي يتعلق بها. وقد ساندته أسرته وصديقته، كما أنه نال مواساةَ الآلاف من اليابان وحتى فنلندا. ولمدة ساعة يومياً، كان والداه يقرآن له الخطابات والبطاقات بصوت مرتفع إلى أن تغلبهم العاطفة فلا يستطيعان التمكن من الاستمرار في القراءة. وقد كتب له رجل يبلغ من العمر ٧٩ سنة مايلي: "إن جسدي ضعيف ولكن حبلي الشوكي على مايرام وكنت أود أن أعطيه لك".

كما وصلته مساندة عظيمة من مجتمع الرياضة العالمي. كما أن الاتحاد السوفيتي صك ميدالية خاصة لتكريم براين. ولعب فريق كرة القدم في مدينة كنساس مباراة لصالح براين لمساعدته في نفقاته العلاجية.

ومع ذلك، فبعد بضعة أسابيع لم تتوقف نوبات الاكتئاب. وكان أمل الأطباء في شفاء Brian ضعيفاً فكل الذين أصيبوا بمثل هذه الإصابة لم يتمكنوا من المشي ثانية. وقد أخرجت مكالمة تليفونية من ممثلين بمؤتمر الشركة للرياضيين المؤمنين Fellowship of Christian Athletes والذي انعقد في أوكلاند بولاية أورجون ... أخرجته من حالة الاكتئاب. وتحدث براين لأكثر من ساعة مع الرياضيين والمدربين. وقد عبّروا له عن إيمانهم بشفائه، وهذا بعث فيه شرارة البحث عن الإيمان.

وبعد ثلاثة أشهر من الحادث، أصبح براين مؤمناً. وأدرك أنه بدون معجزة إلهية لن يتمكن من المشي مرة أخرى. فليست هناك أية وسيلة لتحريك أطرافه. فالعصب الميت في نخاعه الشوكي يحتاج إلى عصب جديد، ولا يستطيع الطب أن يفعل هذا. ومع ذلك، فقد أدرك هو أيضاً أن الإيمان بالله ليس صفقة تجارية: "اشفيني وأنا أؤمن بك". فكان عليه أن يؤمن لأن الله يستحق إيمانه. ووافق براين أن يُقدم على هذه المخاطرة.

وعندئذ، بدأ صلاة لم تنته بعد. وقدم الطلبة لله مئات وآلاف المرات. فكل شيء في حياته يُذكره بأن الصلاة لأجله لم تستجب. وصلى بمرارةٍ وتوسل في شوق وحماس. وصلى من أجله آخرون أيضاً ٥٠٠ كنائس، طلبه بالكليات ورياضيون. ولكن لم يحن بعد وقت استجابة الصلاة.

وبعد أقل من سنة من الحادث، أخبر براين صحفيًا من مجلة "Look" "أن الإيمان خطوة ضرورية لأمرين. الشفاء واحد منهما. وسلام العقل إذا لم يتم الشفاء ثانيها. وأيهما يكفي". ولكن أصبح الآن لـ براين وجهة نظر مختلفة. فبالنسبة له، يوجد اختيار واحد وهو الشفاء الكامل.

عالم براين

كان عليّ أن أسافر إلى سياتل لكي أقابل براين وأترك له رسالة وأنتظر حتى يكون مستعدا لرؤية أي زائر. وقال براين إن الألم "يتذبذب مابين السخيف والمضحك والشديد الذي يعذب".

ماالذي يقوي الإيمان لكي يعيش سنوات الألم وصلوات غير مستجابة؟ وبمرور الوقت، غيّر بعض الذين يطلبون الشفاء الجسدي لـ براين صلواتهم. ولكن هذا لم يحدث مع عائلته ... هل كانوا معاندين أم كانوا أناسًا غير عاديين؟ كان هذا تساؤلي وأنا أقود سيارتي إلى المنزل لأول مرة. وحذرني آخرون قائلين: "إنه لأمر غريب... فهم لم يقبلوا الحالة التي فيها براين".

أما منزل عائلة براين، فقد أقيم على مكان عالٍ بالقرب من Seattle Pacific University إنه يشرف على شارع شديد الانحدار تنزلق فيه السيارات وسط المطر والعواصف الثلجية. ولكن الشارع كان جافاً ووصلتُ في سلام. وقابلتني بالباب والدة براين وتدعى هيلن وعلى سطح المنزل كان أحد أصدقاء براين يثبت إيريلاً متحركاً للراديو. ومن داخل المنزل، كان منظر المدينة رائعاً. واستمتعت برؤية الشارع والمرور في النهر لمدة ٢٠ دقيقة بينما كانوا يُعدونِ براين لمقابلتي.

والشيء الذي يصدم أي زائر في البداية هو اعتماد براين الكلي على الآخرين. ولو تُرك بمفرده لمدة يومين سوف يموت. والنظام المتبع معه يقتضي مساعدته للاستحمام، إعطائه الأدوية، تغذيته، مساعدته على تناول الماء. ويقاوم براين هذا الاعتماد على الغير باستمرار، ولكن ماهي اختياراته الأخرى؟ إنه يظل في نفس المكان الذي تُرك فيه.

إن رأس براين ذات حجم عادي، أما باقي جسمه فانكمش نظراً لضمور عضلاته. وقد تعلم كيف يتحكم في عضلات الكتف حتى يتمكن من عمل بعض الحركات بذراعه. فبإمكانه أن يضغط على مفتاح النور أو يلف مقبض الباب، ويمكنه أن يكتب على الآلة الكاتبة ولكن باستخدام أداة خاصة تساعده على ذلك.

أما غرفة براين، التي لم تكن أكبر من حجرة نوم متوسطة الحجم، فهي تُسيّج حياته. ولم يعد يمتلك دراجة ذات عشر سرعات أو جهاز التزحلق في جراج المنزل. وكان يستخدم عينيه ليُشير لي على الأشياء الموجودة بغرفته. وكانت منشفة أديداس معلقة فوق سريره. وقد عُلق على أحد الحوائط خطاب من الرئيس جون كينيدي المؤرخ في ١٥ أغسطس سنة ١٩٦٣ "أريدك أن تعلم أنك كنت في أذهاننا أثناء الأسابيع الماضية ونتمنى لك التحسن المستمر في الأيام القادمة". وقد قرأوا هذا الخطاب في المباراة التي أقاموها لصالحه وبكى براين عند سماعه هذه الكلمات.

ومع ذلك أظهر حماساً شديداً وهو يشرح بعض التركيبات المعقدة لتوصيلات الراديو حول سريره. وازداد شغفه واهتمامه بالراديو كوسيلة تربطه بالعالم الخارجي.

وتحدث براين بهدوء وحذر عن موضوعات مختلفة مثل الإليكترونيات أو يحكي قصصاً عن دوره كممثل منطقة عن هيئة Fellowship Christian Athletes وفي كثير من الأحيان، كان يتحدث إلى الرياضيين في الجيم والفصول الدراسية والغرف المغلقة وهو جالس على كرسيٍّ متحرك.

ووجدت صعوبة في ترك الغرفة. ومع أنني أُعجبت بمعظم ماقاله، إلا أنه كان ينقصه الإحساس بالتوازن الذي يحكم المناقشة. وبعد ساعتين، وأنا أتجه نحو الباب للخروج، بدأ يتحدث بصوت مرتفع وبسرعةٍ، وطلب مني بعض الخدمات لأقوم بها من أجله. وكلما عبرت عن رغبتي في الذهاب، كان يبدأ الحديث في موضوعات جديدة تثير المناقشة.

وأخيراً، عندما هممت بالخروج شرح لي أحد المعاونين لخدمته الطريق التي يسلكها الزائرون وربما كان هذا له صلة بمن يعانون من الشلل. ولعدم قدرته على التحكم في جسده، كان براين يحاول لا شعورياً أن يتحكم في الآخرين.

المعجزة التي لم تأت

بعد زيارتي لـ براين، تأكدت لي حقيقة واحدة: أنه يرفض قبول الحالة التي هو فيها. ولديه أمل واحد وصلاة واحدة وهي الشفاء الكامل. ويصرخ بهذا لكل من يزوره. فطبياً، هو بحاجة إلى معجزة، وهو لم يتحسن بمرور الوقت وفرص شفائه تتضاءل.

وأسوأ مافي الموقف كله هو الألم. إنه يعيش في حالة ثورة جسدية دائمة، وهذا يجعل الألم ينتشر في كل جسده. وأصبح هذا روتينه اليومي الذي لا يتوقف.

وقد شاركته أسرته ألمه واكتئابه طوال هذه الفترة. وعندما انتقلتُ إلى حجرة المعيشة مع الأسرة أخبرني الوالدان عن نضالهم وتحملهم. أما في الخارج، فرأيت أنوار المدينة وآلاف السيارات تجوب الشوارع والكباري. وارتبط هذا المنظر مع النار المشتعلة في المدفأة التي أضافت إلى جمال الجلسة. وتحدثت والدة براين عن كارثته.

وأثناء الستة شهور الأولى بعد الحادث، غمرت العائلة مشاعر حقيقية للتعبير عن تأييدهم وأملهم في الشفاء. وأعتقد كثير من المؤمنين في شفاء براين. وقالوا لابد وأنها إرادة الله لمثل هذا الشاب الموهوب لكي يسير على قدميه

ثانية. والتقى براين بمؤمنين مشهورين معروفين بخدمتهم للشفاء. وفي إحدى المرات، اجتمع في غرفته قادة من سبعة طوائف مختلفة ليصلوا ويمسحوه بالزيت. وكل منهم كان يؤمن ولكن لم يحدث شيء.

ولجأت الأسرة إلى كلمة الله للحصول على الهدوء والإرشاد. وتحدثوا إلى رعاة ولاهوتيين وقرأوا العديد من الكتب عن لماذا يسمح الله بالألم؟ وكلما ازدادت قراءتهم للكتاب المقدس ازداد اقتناعهم بشفاء براين.

وقالت والدته لي:"الذي عرفناه من كلمة الله هو أن الله يحب البشر بل وأكثر من ذلك فهو محبة. وكل من حولنا يطالبوننا بأن نقبل التجربة على أنها إرادة الله لنا. ولكن يسوع الذي رأيناه في الكتاب جاء ليمنحنا الشفاء. وحيثما وُجد الأذى والمرض كان يشفي. لم يلعن أحداً أو يُسبب المتاعب والعذاب.

"إن الرب يسوع هو لغة الله للإنسان. وعاش يسوع بكل صفات الله. هل تغيرت لغة الله؟ هل حالة ابننا براين تتناقض مع ما أعلنه الله عن نفسه؟ فلم أسمع يسوع على الإطلاق يقول لرجل أعمى "آسف كان بودي أن أساعدك، ولكن الله يحاول أن يعلمك شيئًا ما، لذلك تعود على ماأنت عليه. إن الرب يسوع عندما رأى الأعمى شفاه، وعلمنا أن نصلي "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. وأقول لك بصراحة إنني لا أعتقد أن الله مسرور بحالة براين. ويُعرِّفنا الكتاب أن إرادة الله تجاهنا هي أن نحيا حياة ممتلئة ومزدهرة بالكمال والصحة وليس بهذا الجسد العليل الذي حُبس فيه براين. ولا يجب أن نستخدم "إرادة الله" كإجابة على كل سؤال. ولا يمكننا أن نوقف البحث ونصدق في القدر ونقول "أنا أعلم أن إرادة الله قد نفذت".

واستراحت الأم قليلاً. كانت كلماتها قوية وقد ذكرتها ضد خلفية البعض عن الألم ورأيهم فيه. ولكن مؤمنين آخرين مثل ماري فيرغيس وجدوا راحة في قبولهم للحالة التي هم فيها. أما أسرة براين فلم يرضوا بهذا القبول.

وتشابكت أيدي والدة براين وقالت:"في هذه الحياة لا نعرف الإجابة الكاملة لكل الأسئلة. ونحن نعوّل كثيراً على الإيمان. فأنا وزوجي وبراين نتعلق بقوة على محبة الله. وإن كان شئ ما - مثل حادثة براين - لا يتفق مع محبة الله، فنحن ننظر إلى مكان آخر. نحن نعلم أن هذا الأمر ليس من الله. فإن كان هناك نوع من عدم الارتياح بيني وبين الله أو بيني وبين نفسي أو بيني وبين أي شخص آخر، فهذا نوع من المرض الذي يحتاج إلى شفاء.

"وأنا لا أعلم لماذا لم يُشفى براين حتى الآن. إنني أؤمن بأن الله كليُّ القدرة ولكنني أؤمن أيضاً أنه لايُحدّ نفسه. والشر قوي. وأعتقد أن الشيطان يفرح بإضعافنا أو جعلنا عاجزين وغير أصحاء. وسوف يستغل ضعفنا مثل الملاكم الذي يضرب مرة تلو الأخرى في فك متألم أو عين دامية. إنه لا يغادر المكان".

وبينما كانت والدة براين تتحدث عن المعركة بين الخير والشر، ذهب تفكيري إلى حياة يسوع وهو على الأرض وتوجهت الهجمات ضده: قتل الأطفال، التجارب، الخيانة، وأخيراً الموت. ومع ذلك، فقد حول الله الهزيمة الظاهرية وموت ابنه الذي لا يمكن تخيله إلى انتصار. وبطرق غامضة استخدم الله مأساة براين أيضاً. ومع ذلك، هل سيغير الله هذا الوضع بقوة ويمنح براين الشفاء مثلما انتصر على الموت بالقيامة؟ إن عائلة براين تعتمد على هذا الرجاء والأمل.

وواصلت الأم حديثها: "لا أحد ممن كان في مثل حالة براين سار على قدميه مرة أخرى. ومع ذلك، مازال لدينا الإيمان. ليست لديّ أية فكرة عن متى سيشفي الله براين. وأتخيل أنَّ هذه المعركة لن نكسبها هنا على الأرض. فبعض الناس الذين نصلي من أجلهم يُشفون والبعض الآخر لا يُشفى في هذا العالم. ولكن موضوع التوقيت، لا يغير رغبة الله في أن نكون أصحاء جسدياً وعقلياً وروحياً. ولن نستسلم. إننا كالأطباء الذين يبحثون عن العلاج ولن نوقف بحثنا. وأعتقد أن الله يُسر بمثابرتنا.

لقد تأخر الوقت وكان يجب إيقاف الحديث. وقبل أن أترك المنزل، طلبت أن أرى أدوات براين الرياضية. فذهبنا إلى غرفة مستقلة مملوءة بالميداليات ولوحات التكريم والشهادات. وواحدة منها أطلقت عليه بأنه الرياضي المتميز على صعيد القارة لعام ١٩٦٣.

وجذب انتباهي صورة معلقة على الحائط ظهر فيها براين وهو يحطم الرقم القياسي في كامبتون بكاليفورنيا. إنه يقفز لأعلى أفقياً وهو يمد ذراعيه وكل عضلة في جسده تتحرك في توتر. وقد تجمدت الحركة والحدث بفلاش إليكتروني ويبدو أنه تجمد منذ ذلك الوقت.

وشعرت بأسف شديد، فهذا الشخص الذي قابلته وأجريت معه هذا الحديث والذي كان قوياً للغاية يُحبس في هذه القوقعة المثيرة للشفقة. وبكل تأكيد، تقدم براين عاطفياً وروحياً. ولكنه انكمش جسدياً. فالألم يسحق. ولم أتمكن من انتزاع الصورتين من ذهني وأنا أترك الدفء بالمنزل إلى الرياح الباردة في المدينة. براين البطل الذي رأيته في الصورة. وبراين الذي يرقد على فراش المرض ومن يدري إلى متى سيظل كذلك؟

هل يمكنني أن أصدق لو حدث هذا لي أنا؟ هل سأجد تفسيراً منطقياً وعقلياً للألم، أو سأتعلم أن أقبله، أم سأثور ضده؟ وهل سيظل إيماني بالشفاء لسنوات؟ وهل أسرة براين على حق عندما وثقوا في حدوث معجزة لم تأت بعد رغم كل الصلوات التي رُفعت؟ هل هم مخطئون وهم يُملون شروطهم على الله؟ هل يجب أن "يشكروا الله على أية حال" كما يقترح البعض؟

ليست لديّ أية إجابات. ولكن الشيء الأساسي فيهم هو ثباتهم في الإيمان. وبينما كنت أقود سيارتي بعيدًا، لم أشعر بأية شفقة نحو أسرة براين . فالشفقة توحي بالضعف وأنا قابلت أناساً أقوياء. ولديهم القوة التي تحتمل. وقد قالت لي والدة براين: "كل ثلاثين دقيقة تحدث إصابة للحبل الشوكي في هذا البلد. ونصف مليون شخص يسيرون على كراسي

متحركة. كثيرون منهم استسلموا. أما نحن فلن نستسلم إذ نحتفظ برجاء".

زيارة ثانية

كانت زيارتي الأولى لعائلة براين في عام ١٩٧٢ في الفترة الأولى بعد الحادث. وتأثرت كثيراً بمثابرة إيمانهم عندئذ، وتساءلت ماذا سأجد عند زيارتهم ثانية في سنة ١٩٨٧ بعد خمسة عشر عاماً من الزيارة الأولى. وأصبح براين الآن في منتصف العمر. ولم يأت بعد الشفاء الجسدي الذي كان ومازال يتوق إليه. وهو يعاني الآن من الشلل بعد أن قلت حركته بمرور السنين.

كانت مدينتهم سياتل مزدهرة وجميلة في فصل الصيف، وبينما كنتُ أقود سيارتي أعلى التل المؤدي إلى منزلهم، رأيت كل العائلة جالسة في الخارج في انتظاري. وكبر والدي براين في السن وبدا الفرق واضحًا عليهم منذ مشاهدتي الأولى لهم. ومع ذلك، ظهر كرش منتصف العمر على براين واكتسب شعره اللون الرمادي.

وبينما كنا نتناول القهوة، تحدثوا معي عن حالة براين الأخيرة. فقد لاحظوا بعض التقدم الجسدي الطفيف. وزحف خط الشلل من صدره إلى أسفل بضع بوصات، وهذا مكّنه من تحريك ذراعيه. وتمكن من التحكم في الألم بعض الشيء. وعادت الحساسية لمعظم جسمه: وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من تحريك ساقيه، ولكنه يشعر بهما الآن. وكنتيجةٍ لهذا، لم يعد يعاني من الهلوسة التي عانى منها سابقاً.

وبدأ والديْ براين يعددان الفوائد التي حدثت لهما من جراء مرض براين فقال الأب: "المعجزة الحقيقية هي أنه لا أنا ولا هيلن أصابنا أي مرض طوال ٢٥ عاماً كنا نعتني فيها بالإبن براين، فكانت صحتنا على مايرام".

ولعدة سنوات، كانت العائلة تصلي من أجل خدمة الشفاء لكي تشمل تعريفهم المتسع للمرض. وأخيراً، ظهر شخص

كان يعقد اجتماعا شهريا لخدمة الصلاة مساء الأحد في كنيسة مدينة سياتل. ويدعو الناس المرضى والمصابين ومن هم في حاجة لأن يتقدموا للأمام ويقضوا بضع دقائق في صمت مع الراعي، بينما يوجه كل الباقين صلواتهم لسد احتياجات هذا الشخص. وهذه الاختبارات التي شارك فيها الجميع وحدت الكنيسة معًا بطريقة ملحوظة، وانتشرت هذه الروح لما حول سياتل.

وفي عام 1976، كاد براين أن يموت لأن الالتهاب الرئوي هاجم رئتيه الهشتين. ورقد في المستشفى يعاني من غيبوبة لمدة أسبوعين كما عانى من بعض متاعب في القلب، وقارب الموت وظل هكذا لمدة شهرين. وفقد صوته لمدة طويلة وبعضاً من الذاكرة.

ولكن في هذه المرة، استجيبت الصلاة من أجل الشفاء. وأخيراً، استعاد براين كل ماكان معطلاً في جسده فيما عدا ما فُقد عند إصابة الحبل الشوكي. وبدا لي أمر آخر ونحن جالسين نتحدث معًا: فقد تغيرت شخصية براين أيضاً وأصبح رقيقاً ولطيفاً ولم تبدُ عليه أية أعراض لعدم الاتزان في شخصيته، تلك التي عانى منها من قبل.

وسألت الأسرة عما إذا كان إيمانهم عن الشفاء الجسدي قد تغير عبر السنين فقالوا: "كلا. بعض الناس يحبون الإشارة إلى الأمر الطيب الذي حدث لـ براين. ونحن لا نعتقد ذلك، بل إننا نؤمن في الله المحب، ومازلنا نؤمن بأن الله يريد أن يشفي براين تماماً. ربما نرى أن الوقت ينفذ. وأنّ الأمل في شفائه التام قد أصبح محدودًا. وأنت تعلم أنه في سفر دانيال توجد قصة عن ملاك أرسل ليجيب على صلاة دانيال. وأمضى ثلاثة أسابيع حتى وصل إلى دانيال ولكنه عندما وصل أكد له أن الله سمع صلاته في اللحظة التي رفعها فيها".

وأثناء حديثنا، شاهدت الشمس وهي تغرب خلف التلال، ولم أتمكن من المقارنة بين الزيارتين. فبينما كنت أستمع إليهم، شعرت بأن معجزة ما تحدث ببطء وتدريجياً، إنها

معجزة لم ينتبهوا هم إليها. حادث مأساوي كان كافيا أن يحطم أية أسرة ولكن عوضًا عن ذلك، وحدّهم معًا. فرفضوا الطريق السهل وهو إرسال براين إلى مصحة علاجية ليقيم فيها. ولأكثر من عشرين عاماً غمروا الابن براين بمحبتهم الفائقة والتي لاحظت بوضوح أنها أثمرت كثيراً في حياتهم إذ تقبل الجميع معايشة الألم والمعاناة.

وتذكرت وأنا أغادر المكان ماقاله بول تورنييه: إن الحياة المسيحية تشبه لعبة البهلوان. إذ يمكن أن تلف حول القضيب وتمارس التمارين التي تقوي عضلاتك. ولكن إن أردت أن تتفوق، عليك أن تخاطر وتنطلق، رغم علمك بأنه لا يوجد شيء تحتك ليحميك، وستصل إلى القضيب الآخر لمواصلة اللعب.

وأعتقد أن براين سيُعجب بهذا التشبيه. فمنذ فترة طويلة، اتحدت الأسرة معًا وتركت الدعامات التي يستندون عليها وأعلنوا للعالم أنهم يؤمنون بقوة الله رغم كل ما حدث. أما براين نفسه، فنظر لما حدث له على أنه دعوته الشخصية من الله. ولم تفعل الأسرة كما يفعل الكثيرون إذ يكتفون فقط بدور المتفرج، ولكن إيمانهم مازال بالله ثابتاً وقوياً. وغادرت المكان وأنا معجب للغاية بإيمانهم المتماسك.

"هو يعلن عن ذاته للطفل؛ بشكل مثالي، للطفل النقي وحده. والهدف من نظام العالم هو أن يجعل الرجال أطفالاً حتى يعلن الله ذاته لهم".

جورج ماكدونالد *Life Essential*

١٠

أرقص وأنا على ركبتي

بعد فترة وجيزة من زيارتي الأولى لـ براين سترنبيرج سافرت إلى بالتيمور بولاية ميرلاند، لإجراء حديث مع فتاة مراهقة متميزة تدعى جوني أريكسون Joni Eareckson. وهي الآن أصبحت معروفة لأنها تعمل رسّامه ومؤلفه وواعظه مسيحية. ولكنني عندما قابلتها لم تكن مشهورة وسمعت الشئ القليل عن قصتها.

وهناك كثيرٌ من التشابه بين قصتها وقصة براين: كلاهما كان رياضياً وفي سن المراهقة وكل منهما أصبح عاجزاً وهو في سن الشباب وأجبر على التأقلم على حياة مصابة بشلل رباعي. وفي طريقي للمقابلة، توقعت أن أقابل مشاعر مثل تلك التي وجدتها لدى عائلة براين، مشاعر تظهر عليها المعاناة والنضال ضد المرض ولكن مع الاحتفاظ بالإيمان. ولكن عندما وصلت إلى منزل جوني، وجدت جواً مختلفاً تماماً.

وصلت إلى المنزل باتباعي رافدًا صغيرًا هادئًا غرب

بالتيمور. وكان في الطريق كثير من الانحناءات والتلال. وكما أحاطت الغابات معظم جانبي الطريق إلى أن وصلت إلى بانوراما طبيعية جميلة. وكان منزل جوني على قمة التل. وكان المنزل عبارة عن بيت صغير يتكون من صخور ضخمة، وألواح خشبية كبيرة مقطوعة باليد ومثبتة بدقة شديدة معًا وكل ذلك قام به والد جوني.

أما حجرة جوني التي تستخدمها استديو للرسم، فهي ذات حوائط زجاجية وتطل على التل. ويتمنى كثيرُ من الفنانين أن يعملوا في مثل هذا الجو الريفي الطبيعي الجميل، ولكن حياة جوني المحترفة تختلف عن معظمهم. فلا يمكنها الذهاب إلى الأستديو إن لم يدفعها أحد على الكرسي المتحرك، ثم تبدأ في الرسم إما بالقلم أو الفرشاة ممسكة إياها بأسنانها.

وأعتادت جوني كمراهقة أن تركب حصانها وتركض بسرعة عبر طرقات الغابة أو تذهب لصيد الثعالب في أملاكهم الخاصة. أما الآن، فهي تمارس بعض الحركات الخفيفة يومياً. وبمساعدة جهاز يُركب في الكتف والذراع، يمكنها أن تحرك بعض صفحات كتاب. وتتطلب عملية الرسم جلسة طويلة تحرك فيها رأسها عدة مرات، وببطء يتكون المنظر الذي تريد رسمه.

وحدث خطأ في ثانيتين فقط غير تماماً حياة جوني، ولكن تفاؤلها المرح لم يفارقها. وعندما عرّفوني بها ذُهلت من الحيوية البادية على تعبيرات وجهها ولمعان عينيها. واتسمت روحها بالنشاط حتى أنها ذكرتني بالمدرِّسة التي كانت تعلّمها الآنسة أميريكاس والتي تقول "فكر بإيجابية— حب نفسك". وتكونت هذه الروح التي تتمتع بها جوني كنتيجة لمأساة.

غطسة قاتلة

"كان صيف عام ١٩٦٧ ساخناً ورطباً بطريقة غير طبيعية. وكان شهر يوليو خانقاً. وفي الصباح،

مارست ركوب الخيل ثم غطستُ مرة واحدة في خليج تشيسابيك لأستمتع بالبرودة. وركبتُ السيارة مع أختي كاثي إلى أن وصلنا للشاطيء حيث غطسنا في المياه التي يكسوها الضباب.

ولم أكن راضية على السباحة في بركة أو في المياه الضحلة بالخليج لأنني أفضل السباحة الحرة في المياه المفتوحة. ورأينا قارباً صغيراً يبعد عن الشاطيء ٦٠ ياردة واعتبرناه هدفاً لكي نصل إليه وتسابقنا أنا وأختي كاثي لنصل إليه.

وعندما وصلنا، تسلقته وقفزنا سريعًا وبلا تفكير في المياه على جانبه. وفي البداية شعرت بجاذبية المياه العادية، ثم بضربة عنيفة مفاجئة وارتطمت رأسي بصخرة في القاع. وتأثرت أطرافي بشدة. وشعرت بطنين شديد مثل صدمة كهربية تصحبها اهتزازات شديدة. ومع ذلك، لم أشعر بأيّ ألم.

لم أتمكن من الحركة وغاص وجهي في الرمال وكان ذهني يوجه عضلاتي لكي أقوم ببعض حركات السباحة ولكن لم تستجب العضلات. وبدأت الصلاة وأنتظرت وكان وجهي ينظر أسفل المياه.

وبعد دقيقة، سمعتُ كاثي تناديني بصوت منخفض من على سطح المياه. وبدأ الصوت يقترب مني ورأيت ظلها وهي تسبح فوقي. وسمعتها وهي تقول لي:"هل أنت مارست الغطس هنا؟ إن المياه ضحلة للغاية؟".

وانحنت كاثي وحاولت أن ترفعني ولكنها تعثرت. ياإلهي٠٠كل شيء يبدو أسود. وبينما كنت على وشك أن يغمى عليّ، صعدت للسطح وتنفست بعض الهواء. وحاولت أن أمسك كاثي ولكن عضلاتي لم تمكني من ذلك. فرفعتني على كتفها واتجهت نحو الشاطيء.

وبعدما تأكدت من أن يدي وساقي فوق كاتي، لاحظت بعد أن انتابتني صدمة رعب مفاجئة بأنني فاقدة للحركة وأنا على ظهر كاتي. لقد فقدت حاسة اللمس.

وسريعًا أخذتها عربة الإسعاف إلى المستشفى في مدينة بالتيمور واستلقت على سرير بالمستشفى تحيط به الستائر. وطلبت الممرضة تقريراً طبياً عما حدث لها سابقاً. ونزعت عنها ممرضة أخرى المايوه الجديد الذي كانت ترتديه. وبدأ الطبيب يفحص كل جزء في جسمها ويسألها عدة مرات "هل تشعرين ...؟ والجزء الوحيد في جسمها الذي كان يشعر بيد الطبيب هو كتفاها.

وبعد استشارات سريعة بين مجموعة أطباء، قام طبيب يدعى د. شيريل بقص شعرها ثم حلقته إحدى الممرضات بالموس. وبدأت تغيب عن الوعي، وكان آخر ما تنبهت لسماعه هو صوت شنيور، وأحدهم أمسك برأسها بينما كان الطبيب يقوم بعمل ثقبين في الجمجمة، ثقب في كل جانب.

المرآة

وعندما استيقظت جوني وجدت نفسها في سياج معدني. وربطوا ثقبي رأسها بحلقتين من المعدن لشد الرأس بعيدًا عن الجسم. وكان وجهها يبرز من قماش سميك يحيط بها. وكل بضع ساعات تقوم ممرضة بتحريك هذا الإطار.

ورغم عدم قدرتها على الحركة والجو الكئيب بوحدة العناية المركزة، تحملت جوني الأسابيع الأولى بروح معنوية طيبة. كان الألم خفيفاً، وكان لدى الأطباء أمل في أن بعض الأعصاب ستشفى. وفي الأيام الأولى، امتلأت غرفتها بالزائرين والورود والهدايا. ونشر إخوانها ١٧ مجلة على أرض الغرفة لكي تقرأ Joni ما كتب عنها وهي منكفئة على وجهها.

وبعد أربعة أسابيع، تخطت جوني مرحلة الخطر،

وأجرى د. شيريل جراحة على العمود الفقري. وكانت Joni مسرورة لأنها، كانت تأمل أن الجراحة سوف تحل كل المشاكل وتُقيمها مرة أخرى على أقدامها. وكانت الجراحة ناجحة ولكن د. شيريل تحدث معها بإخلاص قائلاً: "أنا آسف يا جوني الإصابة دائمة ولن تتمكني من المشي مرة أخرى وستستخدمين ذراعيك استخداماً محدوداً". ولأول مرة منذ حدوث الحادثة، اخترقت هذه الحقيقة أعماقها. لقد توقعت أن تتلقى العلاج لبضعة أشهر، ثم يُعاد تأهيلها ثم تُشفى. وفجأة وجدت أن كل حياتها سوف تتغير. لن تستخدم سيارات السباق أو الخيول أو أية رياضة أخرى.

وبدأت تستعيد الذكريات:"لقد كانت حياتي مملوءة بالنشاط وفجأة وجدت نفسي وحيدة وموضوعة بين لوحين. وأصبحت هواياتي وممتلكاتي بلا معنى بالنسبة لي. لن أعود مجددًا لاستخدام الخيول الجميلة الموجودة في مخزن الغلال ولن أقدم لها الطعام بنفسي كما كنتُ أفعل من قبل. وكل ما أستطيع عمله هو مجرد التنفس والنوم، أما باقي الأشياء، يساعدني الآخرون على القيام بها".

وكانت جوني تستلقي وهي منكفئة على وجهها ولاحظت الدموع الساخنة تسقط من عينيها على الأرض حزناً على ما وصلت إليه حالتها. وكانت بحاجة لمن يساعدها حتى على البكاء.

وبعد بضعة، أيام ساءت للغاية حالتها النفسية، حتى قامت بزيارتها صديقتان من زميلات المدرسة. وكانت صورة جوني التي ما زالت في أذهانهم هي الفتاة الشابة الرياضية المملوءة بالنشاط والحيوية فأصابتهما الدهشة الشديدة وصرختا "ياإلهي" وعندما اقتربتا إلى جانب السرير، وقفتا في حيرة وارتباك لمدة ثانيتين ثم هربتا للخارج. وسمعت إحداهن وهي تتقيأ، والثانية تصرخ عندما وصلت لباب المستشفى. وتساءلت ماهو الشيء المرعب الذي فيها والذي تسبب في رد الفعل هذا.

وعرفت سبب ذلك بعد بضعة أيام، إذ طلبت جوني

من جاكي أحد الذين قاموا بزيارتها أن تحضر لها مرآة. حاولت جاكي أن ترفض ولكن جوني أصرت. ولما نظرت في المرآة صرخت "ياإلهي ٠٠ماهذا الذي فعلتموه بي".

وكانت عيناها بلون الدم وغائرة في رأسها. وتحول لون البشرة إلى الأصفر الداكن والأسنان أصبحت سوداء كنتيجة للأدوية الكثيرة. ورأسها ما زال محلوقاً وبه ثقبان في كلا الجانبين وتناقص وزنها من ١٢٥ رطلاً إلى ٨٠ رطلاً.

وبكت جوني بحرقة شديدة وقالت لزائرتها: "أحتاج إلى مساعدتك جاكي أرجوك أن تفعلي لي شيئاً واحداً. فأنا لا أستطيع أن أرى شكلي هذا مرة أخرى". فأجابت جاكي: "ماذا تريدين ..إنني على استعداد أن أفعل أي شيء من أجلك" قالت جوني: "ساعديني لأن أموت.. إحضري لي بعض أقراص الأدوية أو شفرة موس فلا يمكنني أن أعيش بهذا الشكل البشع. ساعديني لأن أموت".

ولم تستطع جاكي تنفيذ هذه الرغبة علىالرغم من الحالة التي كانت جوني عليها. وعلمت جوني حقيقة قاسية أخرى ..إنها عاجزة عن أن تموت أو تقتل نفسها.

املء (الحياة الأفضل)

تعرّف الملايين من الناس على جوني منذ ذلك اليوم المخيف في مستشفى المدينة. فقد تحدثت في مؤتمرات حول العالم، وظهرت في برامج تليفزيونية، وسجلت برامج إذاعية يومية، وسجلت الدور الذي تلعبه في الحياة في فيلم عالمي، وتحدثوا عنها في مقالات خاصة في مجلات عديدة مثل مجلة "People" "Saturday Evening Post" وكتبت العديد من الكتب وانتشرت شرائط ترانيمها. ورسمت العديد من البطاقات والملصقات والأدوات المكتبية.

وكل من يقابلها اليوم (وقد تزوجت) يشعر بالسعادة والأمل. فلم تعد الفتاة المشوّهة البشعة التي كانت في

المرآة. ما الذي فعلته؟

قالت جوني: "في أحد الأيام وأنا بالمستشفى زارني أحدهم وحاول أن يرفع من نفسيتي أقتبس آية قالها الرب يسوع لتلاميذه "أتيت لتكون لكم حياة وليكون لكم أفضل". وكنت أشعر بالمرارة والسخرية من هذا الكلام. "الحياة الأفضل" إنني لو ناضلت بقية حياتي فكل ما يمكنني الحصول عليه هو شفقة الناس عليّ ولا أستطيع أن أفعل ولا حتى ما كنت أفعله. لن أعود للعب التنس مرة أخرى فلا حب ولا زواج ولا مشاركة حقيقية في العالم الذي أعيش فيه".

"ولكن بمرور السنين، تغيرت نظرتي. فأستيقظت في الصباح وأنا أشكر الله على ما أعطاني. وقد أثبت لي الله أيضاً أنني أستطيع الحصول على الحياة الأفضل".

وكان الدرس الأول الذي تعلمته جوني هو التغلب على الحاجز وواجهت كل شخص معاق بقبولها لحالتها ومحدودية تحركها. فمن غير المجدي أن نضيع طاقتنا ونبكي على اللبن المسكوب. ومجرد الرغبة لن تغير الوجه الذي رأته في المرآة. وعليها أن تقبل نفسها كما هي وتبحث عن طرق جديدة لكي تتأقلم على ماهي عليه.

كانت العملية مؤلمة. فعندما كان حبيبها يضمها إلى صدره لم تشعر بشيء. وحاولت في مثل هذه الظروف أن تغلق عينيها وتتخيل ما ستكون عليه لو أنها في كامل صحتها. خطيب، سيارة رياضية، سباق خيل في الغابات، مكان في الفريق الرياضي بالكلية ..إمكانيات بلا حدود. ولكن كل هذا كان بلا قيمة وأدركت جوني أن التفكير في هذه الأمور لن يخفف معاناتها بل سيؤخر عملية قبولها لذاتها.

وعلمت جوني أن الناس العاديين لا يتقبلون المعاقين في غالب الأحيان. فأحياناً، عندما يتحدث إليها الناس، يميلون على الكرسي المتحرك ويتحدثون معها بصوت مرتفع وبكلمات بسيطة كما لو أنها متخلفة عقلياً. وأحياناً، عندما

تخرج للشارع على الكرسي المتحرك، يُفسح لها المارة مسافة خمسة أقدام من حاجز الطريق لكي تمر منها مع أن جانب الطريق أوسع من ذلك بكثير. وأدركت جوني السبب الذي يجعل الكثيرين من المعاقين باقين في المستشفيات وأماكن الرعاية وليست لديهم الرغبة للخروج إلى العالم. ففي داخل المستشفيات، هم أناس عاديون ويعيشون بين أناس مدربين على التعامل معهم وفهمهم.

وبدأ الأصدقاء يساعدونها. فمنذ حوالي سنة بعد الإصابة، تذكرت جوني عندما دفعتها إحدى صديقاتها وهي على الكرسي المتحرك، على رمال الشاطئ ومنه إلى مياه المحيط وأمواجه المتكسرة. وصاحت جوني بابتهاج شديد واستمتعت بالأمواج وهي تلاطم ساقيها ووجهها. وكانت تحب أن يعاملها الناس بهذه الطريقة الطبيعية بدلاً من المعاملة الحذرة والرقيقة على الدوام.

واحتاج تعليمها الجلوس على الكرسي المتحرك إلى علاج نفسي مؤلم. فعندما كانت تستلقي بطريقة أفقية لعدة شهور، تعلمت تدريجياً كيف تجلس بطريقة طبيعية. وفي المرة الأولى التي رفعتها الممرضة بزاوية ٤٥ °، كادت تنهار بسبب الدوار الذي شعرت به لأن قلبها حاول أن يتعود على المطالب الجديدة.

وازدادت قُرح الفراش في جسمها. وبدأت تبرز بعض العظام من خلال البشرة. وللتخفيف من ضغط هذه العظام، فتح الأطباء البشرة وبردوا هذه العظام. وظلت طريحة الفراش لعدة أسابيع، ثم أعادوا بعض التمارين حتى تتمكن من الجلوس ثانية.

وفي هذه الأوقات الصعبة، اعتمدت جوني على أصدقائها لكي يمنحوها المعونة العاطفية. وقام بزيارتها مجموعة كبيرة من الطلبة والطالبات المؤمنين. وفي إحدى المرات، هرّبوا جرْوًا صغيرًا إلي حجرتها بالمستشفى وهذا أثار دهشتها. وضحكت كثيراً عندما كان يلعق الجرو وجهها بلسانه.

تأخير لمدة أربعين عاماً

في بداية الأمر وجدت جوني صعوبة في مصالحة حالتها بإيمانها في إله محب. وكانت تعتقد أن كل هبات الله والأشياء الجميلة التي تمتعت بها كمراهقة نشيطة قد سُرقت منها. لماذا ولأي سبب؟ وماذا تبقى لها؟ ولهذا، فكانت عودتها إلى الله تدريجية. وأخذت فترة التحول من الشعور بالمرارة إلى الثقة في الله ثلاث سنوات من الدموع والتساؤلات العنيفة.

وفي إحدى الليالي، اقتنعت جوني بأن الله يفهم تماماً حالتها. كانت تعاني من الألم في ظهرها بغير انقطاع مسبباً لها آلامًا مبرحة يعرفها المصابون بالشلل. أما الأصحاء، فبإمكانهم أن يقوموا بعملية تدليك للعضلات إذا تألمت أو يثنوا القدم إذا تقلصت. أما المشلول، فعليه أن يستلقي ساكناً كضحية لا تستطيع الدفاع عن نفسها ضد الألم.

وكانت سيندي من أقرب أصدقاء جوني، وحاولت بكل الجهد وهي تجلس بجوارها على السرير أن تجد طريقة لتشجيعها. وأخيراً، قالت باندفاع وبلا تفكير " يا جوني أنت لست الإنسان الوحيد الذي حدث له شلل. إن يسوع يعرف مدى ألمك وشعورك.. لماذا.. لقد أصيب هو أيضا بالشلل" وحملقت جوني باندهاش في صديقتها وقالت: "ماذا؟ عن أي أمر تتحدثين؟" وواصلت سيندي حديثها: "نعم هذا حقيقي. تذكري أن يسوع سُمر على الصليب. وتمزق ظهره من الضرب، وكان يحاول أن يجد طريقة ليتحرك أو يرفع جسده ولكنه لم يتمكن من ذلك. لقد أصابته المسامير بالشلل".

وأثار هذا الفكر اهتمام جوني وللحظة نسيت آلامها وفكرت فيما حدث ليسوع. فلم يَدُر بخلدها أبدًا من قبل أن الله في المسيح شعر بنفس الإحساسات المؤلمة التي تؤلم جسدها الآن. ومنحها هذا التفكير نوعاً من الراحة.

"وأصبح الله قريباً منها بصورة يصعب تصديقها.

وشعرت بحدوث تغير داخلي كنتيجة للمحبة المتواصلة من أصدقائي وعائلتي. وبدأت أفهم أن الله أيضاً يحبني.

وقليلون منا من يصلون لمرحلة الصفر في العلاقة مع الله. وكانت أسئلتي قبل الحادث: "كيف يتدخل الله في هذا الموقف؟ كيف سيؤثر الحادث على حياتي العاطفية؟ وخططي الوظيفية؟ والأشياء التي أستمتع بها؟" كل هذه الأمور انتهت الآن. وكل ما لديّ الآن هو جسد عاجز ومعي الله أيضاً. وقد تكون هذه هي الحالة التي يسعى إليها المتصوفون الأتقياء، ولكنني حصلت عليها على غير رغبة مني.

ليس لديّ أي شيء آخر إلا الله وتدريجياً شعرت بأن هذا يكفي جداً. وغمرني الإيمان بإمكانية العلاقة الشخصية مع الله، نفس الإله الذي خلق الكون، يحيا في حياتي. وربما يجعلني جذابة وذات قيمة. وعرفت أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً بدونه.

وفي السنوات الأولى، سيطر عليّ هذا السؤال: ما الذي يحاول الله أن يعلمني إياه؟ وفي داخلي، اعتقدت أنني عندما أنفذ مقاصد الله يمكنني أن أتعلم الدرس ثم يشفيني الله مما أنا فيه.

وأعتقد أن كل مؤمن له نفس الاختبار، سوف يعود إلى سفر أيوب ليجد الإجابة على أسئلته. وفي هذا السفر، أجد رجلاً تقياً عانى أكثر مما أتصور. ولكنني لم أجد إجابة لهذا السؤال لماذا، حدثت كل هذه المآسي في سفر أيوب. ولكنني قرأت في السفر أن أيوب، تعلق بالله رغم كل ما حدث له وأن الله كافأه.

وتساءلتُ: "هل هذا كل مايريده الله؟" وتحول تفكيري من طلب تفسير لما يحدث لي إلى الاتكال بكل تواضع على الله. نعم، أنا مشلولة وهذا أمر مرعب. وأنا لا أحب هذا الذي حدث. ولكن، هل يمكن أن يستخدمني الله وأنا مازلت مشلولة؟ هل يمكنني - أنا المشلولة - أن أظل أعبد الله وأحبه؟ وبدأ الله يعلمني بأنه يمكنني ذلك.

ربما تكون هبة الله لي هي الاتكال عليه. فلن أصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي التي يمكن بها الاستغناء عن الله. فأنا أشعر بنعمته في كل لحظة. وحاجتي إلى المعونة واضحة كل يوم عندما أستيقظ، وأنا مستلقية على ظهري، لأنتظر من يساعدني على ارتداء ملابسي. ولا أستطيع أن أمشط شعري أو أمسح أنفي.

ولكن لديّ أصدقاء يهتمون بي. ولديّ المناظر الجميلة التي أرسمها. ويمكنني أن أسدد احتياجاتي المادية وهذا حلم كل شخص معاق.

وهناك أمر آخر، الآن لديّ أمل في المستقبل. فالكتاب المقدس يحدثنا عن أجسادنا "الممجدة" في السماء. وكانت هذه فكرة غامضة وغريبة عليّ وأنا في المدرسة الثانوية. ولكنني أدرك الآن أنني سأشفى. فأنا لم أخدع في أنني سأصبح شخصاً كاملاً، ولكن قد أتأخر ٤٠ أو ٥٠ عاماً، والله يظل معي وأنا في هذه الحالة.

وعرفت الآن معنى "التمجيد". إنه الوقت - بعد وفاتي في هذا العالم - الذي فيه سوف أقف على أقدامي وأرقص.

سوف تمضي فترة قبل أن تتمكن جوني من الرقص ثانية، ولكن بعد عامين من إعادة التأهيل، إذ تعلمت كيف تحرك الكرسي المتحرك بطريقة جيدة تمكنها من التجول في طرقات المستشفى. وبعد بضع سنوات، تعلمت القيادة، ولديها استعدادات غير عادية.

وقد أصبحت الآن متحدثة جماهيرية يطلبونها كثيراً ولأسباب هامة. وتستطيع جوني أن تأسر المستمعين. وهي أنيقة ونظيفة في ملابسها وشعرها الأشقر المرتب. وفي أثناء مخاطبتها للجمهور، تذكر الحادثة التي حدثت لها وشفاءها الذي استغرق وقتاً طويلاً. وتنطق كلماتها بكل وضوح. ويقدّر مستمعوها حماسة جوني وحبها للحياة. وإن كانت أطرافها بلا حراك، فإن عينيها ووجهها يشعان نوراً.

ومنذ بضع سنوات، انتقلت جوني إلى كليفورنيا وأضافت

إلى ذخيرتها الفنية لوحات عن الغرب الأمريكي. وقالت جوني: "مع أنني لم أعد أستطيع أن أسبح في الخليج أو أركب الخيل، لكي أستطيع أن أجلس بالخارج وتفيض مشاعري بالروائح الجميلة والمناظر الرائعة" وهي تعيد رسم هذه المناظر التي تراها وتعرضها على الناس وقد رسمتها بفرشاة تمسكها بفمها.

وفي أحاديثها مع الناس، كانت جوني تشير إلى مخزن الغلال خارج الإستديو الخاص بها في ماري لاند. فقد كان هو المبنى المحبب لها في كل المزرعة إذ إنَّ فيه أجمل ذكرياتها: رائحة القش الجميلة، الخيول التي لا تهدأ والأركان المظلمة التي اكتشفتها وهي طفلة.

ووصفت جوني سحرها وجمالها وإعجاب والدها بأعمالها الفنية. ثم وصف ذكرياتها مع الكوابيس عندما شاهدت النار التي أشعلها المخربون والتي دمرت مخزن الغلال تماماً. ولم يختفِ هذا المنظر من ذاكرتها: صهيل الخيول، رائحة الأجساد المحترقة، ومجهودات الأسرة والجيران لاحتواء النيران.

ومع ذلك، فلم تنته القصة هناك. فرغم معاناة والدها من التهاب المفاصل، بدأ ثانية في إعادة بناء مخزن الغلال بيديه. فقد كان الأساس موجوداً، ووضع فوقه ألواحًا خشبية جديدة وعوارض حديدية. وكان المخزن الجديد أفضل من الأول.

وتضيف جوني قائلة: "إنني أُشبه ذلك المخزن. فكنت أعتقد أن حياتي قد انتهت ولا يمكن إصلاحها. ولكن بمعونة الله وأصدقائي أعيد بناؤها. هل تدركون الآن لماذا أنا سعيدة؟ لقد استعدت ما كنت أعتقد أنني فقدته.. "الحياة الممتلئة".

إثنان يعانيان

يمثل كل من جوني أريكسون و براين سترنبيرج الأشخاص سيئي الحظ الذين يلازمهم الألم. والناس الذين

يعانون من آلام غير عادية مثل الشلل الرباعي أو السرطان أو الآباء الذين لهم أطفال بهم عيوب خلقية، قد يخضعون لفكرة مثل "موهبة الألم" وتصبح العبارة بالنسبة لهم فارغة وسارية، ويترك الألم بصماته الطبيعية ويصبح مثل فرانكشتاين (بطل رواية شهيرة يلم به الخراب على يد مارد خلقه هو بنفسه).

فقد براين شهرته بسبب الألم أما جوني فنالت الشهرة من خلال ألمها. وبعد فترة من الزمن، أصبحا عاجزين. ومع ذلك، فكل منهما بطريقته الخاصة وجد قوة الاستمرار والنمو وأصبحت ثقتهما في الله جزءًا لا يتجزأ من عملية شفاء الأرواح المجروحة.

وواجه براين بقوة سؤال السببية: هل الله هو المسئول؟ فكل من براين ووالدياه كانوا مقتنعين بأن هذه الحالة لا تتفق مع صلاح الله ولا معهم. وكانت النتائج التي توصل إليها براين تسير ضد بعض أفكار هذا الكتاب لأنه لا يقبل أفكارًا مثل القيمة المغيرة للألم. ومع أنه يدرك أن الله يستخدم الألم ليجلب لنا الصلاح، فهو يرفض فكرة أن الله قد يسمح باستمرار مثل هذه الحالة حتى آخر العمر. لقد قامر بإيمانه وأفكاره اللاهوتية أملاً في الشفاء.

وعلى الرغم من ذلك فحتى هذه الحالة التي يصعب الدفاع عنها أمام أصدقاء أسرة براين ، فهي تعني نقطة تحول نحو الله. وتمسك براين بثقة وإيمان بالإله المحب بالرغم من العذاب الذي اختبره قليلون. وفي السماء، سوف يسير براين - بكل تأكيد - بخطى واثقة مثل أيوب وحبقوق وأرميا الذين عانوا كثيراً في العالم وتمسكوا بإيمانهم.

وكانت آلام جوني في معظمها نفسية، آلام الفقدان. ومع ذلك، اتسمت حياتها بالنعمة والانتصار والفرح. نعم ،هي صارعت مع الله ولكنها لم تبتعد عنه أو تتركه. وبرزت في المجتمع بعمق روحي ونضوج أعطى روحاً جديدة للملايين. وأنا لا أوحي هنا ولا أقصد أن كل شخص متألم يمكن أن يحقق مثل هذا النجاح كالذي حققه كل من براين

و جوني التي كانت تتمتع بمواهب فريدة ومتعددة. ولكن الطريقة التي استخدمت بها هذه المواهب حققت شيئاً آخر، لقد "احترمت" الألم والمعاناة.

وفي بداية الأمر، تلقت جوني سيلاً من الخطابات لتحفيزها على الصلاة من أجل الشفاء، أو لعتابها لحاجتها إلى الإيمان. وبكل تأكيد هي صلت من أجل الشفاء. وفي صيف عام ١٩٧٢ بعد خدمة شفاء مع ١٥ شخصاً، اقتنعت بأنه في الأسابيع القليلة القادمة سوف يُشفى الحبل الشوكي بطريقة معجزية. وطلبت أصدقاءها تليفونياً وحذرتهم قائلة: "راقبوني فسوف ترونني واقفة على باب بيوتكم. إنني سأشفى".

ولم يحدث الشفاء. وتوضح جوني في كتابها لماذا أُجبرت على النتيجة الصعبة التي تقول إنها ستشفى تماماً. والآن تدعو جوني الحادث الذي حدث لها "المقتحم المجيد" وتدّعي بأنه أفضل شئ حدث لها. فقد استخدمه الله ليجذب انتباهها ويحول أفكارها نحوه. وتضيف قائلة إنه لولا هذا الحادث لعاشت حياة عادية: بلا هدف، مريحة، وربما كان يحدث طلاق مرتين في حياتي.

ولكن الإصابة غيرت كل هذا. وبمرور الوقت، أصبحت نعمة الله في حياة جوني واضحة للغاية حتى انها الآن تستطيع وبكل قوة أن تسكت أية مجالات صبيانية عن الإيمان. هل عدم حدوث الشفاء يعني نقص الإيمان؟ ولكن ماذا عن جوني؟ وأكثر من ذلك، مثل واضح للغاية عن تحويل المعاناة أو"افتدائها". فبعد نجاحها كمؤلفة وممثلة ومغنية وفنانة، قررت أن تكرس نفسها لرعاية المعاقين في منطقتها. واليوم، تقود جوني خدمة وإرسالية تدعى جوني و الأصدقاء "Joni & Friends" التي ترعى مؤتمرات ومحاضرات وأموال لإقامة مشروعات للمعاقين.

وكان حلم جوني أن تنبه الكنيسة لاحتياجات المعاقين وتُعد المؤمنين لتقديم دور الشفاء في كل مجتمع. والآن، انخفض عدد الجمهور الذي يسمعها تنادي لمساعدة

المعاقين أقل من أولئك الذين يودون سماع شهادتها الخاصة. ولكن تدريجياً، استطاعت جوني أن تبعث الأمل في المعاقين والتنوير في حياة الآخرين.

شكراً لله على ما نحن فيه، فالقليلون جداً يمكنهم تحمل التجارب التي واجهها براين و جوني. ولكن بطرق مختلفة، عاش كل منهما الحقيقة المذكورة في يوحنا ٩ "لا أخطأ هذا ولا أبواه بل لتظهر قوة الله فيه". وعلى نفس نموذج الرجل الأعمى الذي شفاه يسوع، لدينا معجزتان حديثتان لشلل رباعي (براين و جوني) وكلاهما أعلنا بوضوح عمل الله في حياتهما.

"عبر تقدم العالم عبر أولئك الذين ذاقوا المعاناة والألم"

ليوتولستوي Leo Tolstoy

١١

شهادات أخرى

في كتابه "المعاناة الخلاقة *Geative Suffering* يستعيد الطبيب السويسري والمعالج د. بول تورنييه ما أثار اندهاشه عندما قرأ مقالة بعنوان "الأيتام يقودون العالم". وتتحدث هذه المقالة، التي ظهرت في مجلة طبيةٍ مُحترمةٍ، عن حياة ٣٠٠ قائد من الذين كان لهم تأثير عظيم على التاريخ العالمي. وبعد البحث عن عامل مشترك بينهم وجد أنهم جميعاً كانوا أيتاماً - إما أيتامًا بسبب وفاة الوالدين أو بسبب حدوث الانفصال بين الوالدين - أو أيتامًا عاطفياً كنتيجة لحرمان قاس عانوا منه في طفولتهم. واشتملت القائمة أسماء مثل: الأسكندر الأكبر، يوليوس قيصر، روبسبير، جورج واشنطن، نابليون، الملكة فيكتوريا، جولدا مائير، لينين، ستالين، كاسترو.

ويقول د. تورنييه: "إننا نُلقي المحاضرات عن مدى أهمية ووجود أب أو أم يؤديان دورهما معًا تجاه الطفل في انسجام وتناغم، ومدى تأثير ذلك على نموه وفجأة نجد أن هؤلاء العظماء الذين أثروا في تاريخ العالم لم ينعموا بهذا الدور".

وكان تورنييه نفسه يتيماً، وبدأ يتأمل في ظاهرة اليتم

بعد وفاة زوجته عندما شعر بذلك وهو في سن متأخرة. وكان يحكم سابقاً على كل حادثة في الحياة على أنها إما نجاح أو مأساة، إما خير أو شر. أما الآن، فقد بدأ يتفهم أن الظروف، سواء كانت حسنة أو سيئة، فهي متعادلة أخلاقياً. والمهم في الأمر، هو كيفية تجاوبنا تجاهها. فالخير والشر - بالمعنى الأخلاقي - لا يكمنان في الأشياء ذاتها بل دائماً في الأشخاص. وهذا التبصر هو الذي غيّر أسلوب تورنييه في الطب، وقاده إلى نظرية الشخص المتكامل. ويضيف تورنييه: "نادراً ما نكون نحن المسيطرين على الأحداث ولكننا (بمساعدة الآخرين) مسئولون عن ردود أفعالنا... فالمعاناة ليست مفيدة في حد ذاتها، ويجب أن نقاومها دائماً. والمهم في هذا الأمر، هو الطريقة التي يتصرف بها الشخص تجاه هذه المعاناة. وهذا هو الاختبار الحقيقي للشخص: ماهو شعورنا تجاه الحياة وتغيراتها وفرصها؟ فقد يجتاز شخص ما في مرض أو مأساة: ماذا سيكون تصرفه إزاء هذه المشكلة؟ ماهو رد فعله تجاه ذلك؟ هل سيكون إيجابيًا ومبدعاً وبذلك ينمو هذا الشخص أم سلبياً فيعوق نموه؟ والمساعدة الصحيحة في اللحظة المناسبة قد تقرر مصير حياته.

وأثناء ممارسة مهنة الطب، رأى تورنييه كثيراً من الناس المجروحين كل يوم ووجد أن المعاناة قد تدفع الشخص نحو الانكسار وليس إلى النمو والتقدم. وهذا في الحقيقة هو الذي حوله من النموذج التقليدي في التشخيص والعلاج وبدأ في مخاطبة عواطف مرضاه واحتياجاتهم الروحية أيضاً. وشعر بالتزام نحو مساعدتهم على توجيه المعاناة وتحويله إلى نقطة تحول وتغيير.

واستخدم تورنييه طريقة كسارة البندق. فالكوارث الغير متوقعة هي بمثابة قوة يمكن أن تكسر القشرة الخارجية الصلبة لقوقعة السلام الشخصي. وسوف تسبب عملية الكسر هذه نوعاً من الألم ولكن لا تحطمها. وفي البيئة الصحيحة، يمكن أن يؤدي هذا إلى النمو الخلاق: فعندما يعجز الروتين القديم والسلوكيات المتبعة سابقاً، يجب أن

يبحث المريض عن أساليب جديدة لاتباعها.

وهنا يكون دور الطبيب والممرضة والأخصائي الاجتماعي والراعي والأصدقاء المحبون هو ببساطة: حفظ كسارة بندق الظروف (الألم) من أن تحطم الشخص نفسه بل أن تساعده لكي يرى من خلال أصعب التجارب القوة والأمل للنمو والتقدم.

حركة المعاناة الخلاّقة

قال مارتن لوثر كنج:"ما لا يحطمني يقويني". وفي هذا القرن الذي نعيشه - قرن الكوارث - قدّم كل من مارتن لوثر كنج وغاندي وسولنجستين وسخاروف، وتوتو ومانديلا تفسيراً حيًّا لنظرية تورنييه عن المعاناة الخلاقة. فمن وراء الظروف التي كان يمكن أن تحطمهم، ظهر هؤلاء العظماء الشجعان بقوة أسست أمماً برقيّها.

فمثلاً، قبل مارتن لوثر كنج الضرب والسجن والوحشية في التعامل معه لأنه كان يثق أن الأمة الأمريكية سوف تؤمن بقضيته عندما ترى شرور التفرقة العنصرية في أسوأ تطرفها وقال:"إن المسيحية أصرت دائماً على أن الصليب الذي تحمله يسبق التاج الذي نرتديه. فلكي تكون مسيحياً مؤمناً يجب أن تحمل الصليب بكل ما يحتوي على المتاعب والأحزان والتوتر، وتواصل حمله إلى أن يترك بصماته عليك ويقودنا إلى الطريق الأفضل من خلال هذه المعاناة".

وفي النهاية، جلب هذا المبدأ الانتصار لحركة الحقوق المدنية التي كانوا يسعون إليها منذ فترةٍ طويلة. إن منظر الوحشية في التعامل من قِبَل الشرطة ورؤساء الولايات ضد المطالبين بالحقوق المدنية هي التي حركت الأمة كلها. فبعد أسبوع واحد من الهجوم الذي شنه البوليس على الجسر الذي في "سليمه"، قرر الكونجرس أن يقترع على الحقوق المدنية عام ١٩٦٥. ومع كل مواجهة دموية، كان كنج يزداد قوةً على قوة ولم يضعف.

وهذا المبدأ الذي اتبعه مارتن لوثر كنج على نطاق واسع هو الذي شجع الناس العاديين الذين كانوا يسيرون معه ووراءه في مسيرات الحرية والعدالة. أتذكر شخصاً قابلته في ريف ميسيسبي، رجل لم تظهر صورته في مجلات الأخبار. وأجريت معه مقابلة - ويدعى السِّيد بوكلي - في بداية السبعينات، في وقت كانت حركة المطالبة بالحقوق المدنية في الجنوب في أوجها. وعندما تركت منزله، شعرت بأنني أنهيت وجودي في حضرة قديس.

كان منزل السِّيد بوكلي أفضل منزل أسود قمت بزيارته في مقاطعة سيمبسون، في ولاية مسيسيبي. كان يتكون من الطوب في الخارج والألواح الخشبية من الداخل، ويحتوي على خمس غرف كبيرة. ورغم أن بوكلي كان في التسعين من عمره، إلا أنّه كان منسياً ممن حوله. وكان يقضي معظم وقته وهو جالس على كرسي خشبي بالقرب من مدفأة المطبخ. في هذا المكان وجدته وهو يحك شعر رأسه الرمادي. وكان يعاني من الارتشاح في عينيه، ولوّحت الشمس بشرته لفترات طويلة.

وفي واحدة من المقابلات التي أجريتها معه، صمم بوكلي على استرجاع كل ذكريات الطفولة. وبعد أن تحدث لمدة ثلاث ساعات ونصف، توقف وطلب كوباً من الماء. وبعد أن شرب الماء قال: "هذا يرجع بي إلى عام ١٩١٠".

وقد ولد بعد جيل واحد من العبودية، وكبر في أثناء الأيام المريرة للإصلاح. وعاش أثناء حكم حركة كو كلاكس كلان Ku Klux Klan المرعبة، وهو يصغي لتهديداتهم، ويرى الصليب وهو يحرق ويسمع التقارير عن الحرق والإعدام بدون محاكمة قانونية. وبعد ٧٥ عاماً من منعهم من دخول مطاعم البيض وفنادقهم ودورات المياه الخاصة بهم، التحق بوكلي بحركة الحقوق المدنية في منتصف عام ١٩٦٠. ولأنه كان يؤمن بأن الله يمكن أن يستخدمه، فقد بدأ العمل مع القس جون بيركنز للمطالبة بتسجيل أسمائهم ليكون لهم حق الانتخاب. وفي مقاطعة يسكنها ٥ آلاف من السود، حصل ٥٠ فقط على حق التصويت.

وأقام العداء الفيدراليون مراكز لتسجيل أصوات الناخبين بمكاتب البريد، وساعد بوكلي في تنظيم خطوط للأتوبيس ليساعد السود على تسجيل أصواتهم. وبين الحين والآخر، كانت تظهر مجموعات من البيض المملوئين بالكراهية للسود ويُطلقون الشتائم والتهديدات. وفقد بعض السود وظائفهم بسبب تسجيل أسمائهم كناخبين. ورغم هذا، واصلوا تسجيل أسمائهم. لقد انحنت ظهور السود الأقوياء من حمل أكياس القطن الثقيلة على ظهورهم، وهاهم الآن يتجمعون بكل جرأة وسط مدينة ميندينهال لكي يسجلوا أسماءهم في قوائم الناخبين. وأخيراً سجل ٢٣٠٠ شخصًا أسماءهم.

وأثناء الفترة التي قضاها بوكلي كقائد للمجتمع الأسود بالقرب من ميندينهال، سار مع الله واستفاد من الجروح والمعاناه التي واجهها إذ أصبح أكثر عمقاً وقوة. وشرح لي كيف أنه بإمكان الفقراء والمضغوطين - كما قال يسوع - أن يكونوا مباركين. وكل ما كان لديه هو إيمانه القوي بالله عندما أصبحت الأيام مظلمة والليالي مقلقة ومخيفة. ووضع الله في قلبه السلام والطمأنية.

وتعرض إيمان بوكلي لاختبار قاسٍ في إحدى الليالي بعد انتقاله هو وزوجته لمنزل جديد. وأخيراً، وهما في الثمانين من العمر، كان لديهم بيت مريح ونظيف ليعيشوا فيه. ولكن فجأة استيقظ بوكلي في الثانية صباحاً وهو يشم رائحة الدخان. وقفز من سريره بكل سرعة وإذ به يرى النيران تقضي على كل شئ. وهرب هو وزوجته ولكنه فقد كل شيء. واكتشف أن جيرانهم هم الذين أشعلوا النار.

وقال لي بوكلي: "أعتقد أننا اجتزنا الكثير من المتاعب. لقد فقدتُ اثنين من أطفالي الثلاثة وفقدتُ زوجتي الأولى، وكنا على وشك الموت أثناء الحريق. ولكن الله لا يدعنا نُجرب فوق ما نحتمل وهو الذي ساندنا وأعطانا القوة".

ومات بوكلي عام ١٩٨٦ عن عمر يناهز ٩٧ عاماً. وفي سنواته الأخيرة، ساعد في تأسيس كنيسة جديدة في

ميندينهال. وقال: "إنني أريد كنيسة ترحب بأي شخص بغض النظر عن لونه، كنيسة حيث يصلي فيها الناس وينتظرون استجابة صلواتهم، ويحبون بعضهم بعضاً". وقد أعطى بوكلي بحياته المثل ونوعية الكنيسة التي كان يريدها.

الإنقلاب العظيم

قال مارتن لوثر كنج: "مالا يحطمني يقويني". وأثبت ذلك وجه بوكلي الذي اتسم بالسلام رغم التجاعيد البادية عليه. ومثل شجرة البلوط القديمة والقوية التي احتملت العواصف الرعدية وحرائق الغابات، تحّلى بوكلي بصفة القوة التي يندر وجودها بين الأمريكيين. وعندما نتخذ الله السَند الوحيَد في وقت التجربة، نشعر بقوة عجيبة ومتفردة بداخلنا.

وبعد قضاء بضع ساعات مع بوكلي، فهمت أخيراً كلمات يسوع والمتناقضة ظاهرياً التي قالها في التطويبات. وكنت أنظر إلى هذه الكلمات "طوبى للفقراء.. وللحزانى.. وللضعفاء.. وللمضطهدين" على أنها رشوة استرضاء ألقاها الرب يسوع لسيئي الحظ. "لأنكم أنتم فقراء، ومرضى وحزانى، فسأقول لكم بعض العبارات والوعود المستقبلية. فقد تمنحكم هذه الوعود شعوراً أفضل". ولكنني وجدت أن بعض هذه الوعود يتحقق في الوقت الحاضر "لأن لهم ملكوت السموات" وأظهر لي اجتماعي مع السود الفقراء في مسيسيبي ذلك وكيف أن الفقراء والمظلومين يمكنهم أن يتمتعوا بالبركة. وهذا ما حدث مع بوكلي الذي كان له الإيمان القوي.

ويستخدم الرسول بولس عبارة غريبة "قوة الله في الضعف تُكمَل". وبعض الأحيان، يُساء فهم هذه العبارة من الذين يتهمون الله بأنه هو الذي يسمح بالألم والمعاناة في هذا العالم. أما بالنسبة للرسول بولس وبوكلي، فيجدون كل الحق في هذه الآية حتى عن يسوع يقول الكتاب: "تعلم الطاعة مما تألم به" (عب٥: ٨).

والشخص الذي يقف بعيدًا، لمراقبة الذين يتألمون، يتوقع أن يجدهم في مرارة وغضب. وننتظر منهم أن يثوروا ضد الله ويجدفوا عليه لما يلاقونه من آلام في الحياة. ولكنهم بدلاً من ذلك، يجدون السلام والعزاء فيه هو وهذا ما ويخجلنا. ولذلك، فليس من قبيل الصدفة أن نجد أن معظم قصص الإيمان الرائعة يسردها أولئك الذين يعتبرهم أهل هذا العالم بأنهم "خاسرون".

ويستنتج سي. إس. لويس ما يلي: "أنا لست مقتنعاً بأن المعاناة ... ينتج عنها شرور مثل (الغضب والسخرية). ولم أجد في الخطوط الأمامية بهيئة C.C.S أيَة كراهية أو أنانية أو ثورة أو عدم أمانة أكثر من أي مكان آخر. بل وجدت جمال الروح العظيم في أولئك المتألمين. ورأيتُ رجالاً تتحسن حالتهم بمرور السنين، ورأيت آخر مرض ينتج عنه نور تشعُ أضواؤه من الثبات في الرب، والتواضع كثمرة نتجت عن هذه الآلام. وإذا كان العالم يُعتبر "وادي صناعة الأرواح" فقد تحقق هذا القصد.

ماهو الشيء الموجود في طبيعة الألم الذي ينتج عنه هذا التغيير العكسي إذ إن الألم يُعطي ثباتاً في الرب ولا يدمر المتألم؟ وقد علم يسوع بكل وضوح أن العالم من وجهة نظر الله في مصلحة الفقراء والمظلومين. وأحياناً يُطلق على هذا التعليم "لاهوت الثورة المضادة" وظهر في موعظة المسيح على الجبل وفي آيات أخرى: "أولون آخرون" (متى١٩: ٣٠ مرقس ١٠: ٣١ لوقا١٣: ٣٠) "كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع" (لو١٤: ١١؛ ١٨: ١٤) "الكبير فيكم ليكن كالأصغر والمتقدم كالخادم" (لو٢٢: ٢٦). كما أن مثل السامري الصالح والرجل الغني ولعازر يشيرون إلى هذا التغيير العكسي في نظام هذا العالم.

ولكن لماذا؟ لماذا يفرز الله الفقراء والمضطهدين وغيرهم على أية مجموعات أخرى؟ لماذا يستحق الضعفاء كل هذا الاهتمام من الله؟

قرأت بالصدفة قائمة مثيرة للتفكير عن امتيازات تنبع من أن تكون فقيراً كتبتها راهبة كاثوليكية تدعى مونيكا هيلويج وهي كالتالي:

١. المعاناه - عامل التوازن العظيم - تأخذنا إلى النقطة التي فيها قد ندرك حاجتنا الماسّة إلى الفداء.

٢. إن الذين يعانون يعرفون ليس فقط اعتمادهم على الله وعلى الناس الأصحاء ولكنهم أيضاً يعرفون كيف يعتمدون على بعضهم البعض.

٣. إن الذين يعانون يضعون أمانهم في الناس ليس في الأشياء، التي قد تضيع أو تختفي بسرعة.

٤. الذين يتألمون لا يبالغون في أهميتهم ولا يبالغون في حاجتهم الخصوصية. فالألم يعلّم التواضع للمتكبرين.

٥. الذين يتألمون يتوقعون القليل من المنافسة والكثير من التعاون.

٦. يساعدنا الألم على التمييز بين الضروريات وبين الرفاهية والتنعم.

٧. الألم يعلمنا الصبر العنيد الذي يتولد من الاعتراف، الاتكال على الآخرين.

٨. يعلمنا الألم الفرق بين المخاوف العادية والطبيعية والمخاوف المبالغ فيها.

٩. يعتبر المتألمون الإنجيل أنه الخبر السار وليس تهديداً أو توبيخاً. إنه يقدم الأمل والسلام.

١٠. الذين يتألمون يمكنهم أن يتجاوبوا مع دعوة الإنجيل بلا أي تعقيد إذ ليس لديهم ما يفقدونه وهم على استعداد لأي شيء.

وبعد ما قرأتُ كلَّ هذه القائمة، بدأتُ أدرك لماذا يتحمل كثير من المؤمنين القديسين المعاناة الشديدة. فالتواضع والاعتماد والبساطة والتعاون والتسليم .. كلها صفات تعتبر كمكافأة في الحياة الروحية، ولكنها محيّرة للغاية لمن يعيشون حياة مريحة.

لقد تغير فهمي للتطويبات تغييراً أساسياً. ولم أعد أرى

فيهما رشوةً من المسيح لمن ساءت حظوظهم في هذا العالم. ولا أنظر إليهما كشعارات براقة ومُحفزة بل نظرةً عميقة لسر الوجود الإنساني. فالفقراءُ والجوعى والحزانى والمتألمون يتمتعون بالبركة ليس بسبب حالتهم البائسة.. فقد قضى يسوع معظم حياته محاولاً أن يعالج هؤلاء البؤساء. بل بالحري، فإنهم يتمتعون بالبركة لأن لديهم ميزة فطرية ليست لدى كثيرين غيرهم إذ أنهم يتمتعون بالراحة والاكتفاء الذاتي.

الإكتفاء الذاتي - الذي ظهرَ لأوَّل مرَّة في جنة عدن - هو أعظم خطية لأنه يجذب الإنسان كما لو كان مغناطيسًا يجذبه بعيدًا عن الله. وليس لدى المتألمين والفقراء هذه الصفة. فهم يبحثون عن من يساعدهم وأحياناً يطلبون الله فالأثرياء والناجحون والذين يتمتعون بحسن المنظر يعتمدون على مواهبهم الطبيعية. ولكن هناك فرصة لدى أولئك المحرومين من هذه الصفات لكي يطلبوا الله في وقت الحاجة.

وباختصار، ولأنه ليس لديهم اختيار آخر، يجد المتألمون والمظلومون أنفسهم في وضع يدفعهم للاستفادة من نعمة الله. فهم محتاجون وغير راضين على الحياة ولا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم، ولهذا السبب، هم يرحّبون بمحبة الله المجانية.

ويمكن أن يكون الفقر والمعاناة أدوات تعلمنا قيمة الاعتماد على الله وما لم يحدث ذلك فلن نختبر النعمة. وقد أعطى الرسول بولس لأهل كورنثوس مثلاً حدث معه هو شخصيًا في هذا المبدأ. فناضل ضد "شوكة في الجسد" هل هي مرض الصرع، أو ضعف في البصر، أو حالة اكتئاب أو ملاريا .. وأنا مسرور لأن بولس لم يحدد هذه الشوكة، وفي (٢ كو١٢) لخص بولس الأشواك التي قد تصيبنا في الجسد.

وفي بداية الأمر، لم ير بولس أية فائدة لهذه الشوكة في الجسد. وبصعوبةٍ اعتبرها "كل فرح.." فقد قاسى من

المعاناة التي سببتها له. فعطلت خدمته ودفعته لأن يسأل الله عن السبب. ولثلاث مرات يطلب من الله معجزةً لكي يرفعها عنه ولكن طلبه رُفض. وآخيرًا، تعلم الدرس أن الله يريد أن يعلمه من خلال الألم: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تُكمل".

واستخدم الله الضعف الجسدي لمصلحة بولس. وتُمثل خطايا الكبرياء الروحية والغرور والنزوات خطراً أعظم، أما هذا الضعف الجسدي، فقد حفظه معتمداً على الله - وليس على نفسه - لينال قوة. وعندما فهم بولس ذلك آخيرًا، تحول من المقاومة إلى القبول: وبدلاً من التوسل إلى الله لكي يُزيل عنه هذه الشوكة، صلى كي يتحول هذا الألم لمنفعته.

وحالما تعلم بولس هذا الدرس، أبلغه إلى العالم "مفتخراً" بضعفاته. وتحدث إلى أهل كورنثوس - هؤلاء الذين تبهرهم القوة والمظهر الخارجي - افتخر بطريقة الله في اختيار الضعفاء والمحتقرين من العالم ليُخزي بهم الحكماء والأقوياء. وتعلم بولس درس التطويبات: فيمكن للفقر والألم والحزن والضعف أن يكونوا وسيلةً لنوال نعمة الله إذا أتينا للرب بروح التواضع. ويقول الرسول: "لأنه بينما أنا ضعيفٌ فعندئذ أنا قوي". وكلما شعرنا بالضعف، كلما ازداد اتكالنا على الله.

"في بعض الأحيان، شكرت كثيراً القدر من أجل امتياز الوحدة التي وضعني فيها [في سيبيريا]، لأنه في هذه الوحدة فحصت بدقة مَاضيّ وحياتي الداخلية والخارجية. وما أقوى الرجاء والأمل الذي يُولد داخلي أثناء تلك الساعات من الذكريات! ففكرتُ وقررتُ كل أنواع القضايا والموضوعات، ودخلتُ في ميثاق مع نفسي لتجنب أخطاء الماضي وأتفادى الصخور التي كادت تُحطمني".

فيودور دوستويفسكي ، *The House of the Dead*

١٢

حالات خطيرة

قرأتُ عبر السنين العديد من التقارير التي كتبها الأحياء الباقون من معسكرات النازية. وقد كانت ذات جاذبية خاصَّة بالنسبة لي، ربما لأنها كانت تتحدث عن قضايا الحياة في قمة خطورتها. وفي داخل هذه المعسكرات، قضوا على حق الخصوصية والاستقلالية. وكل المسجونين كانوا يرتدون زياً موحداً وحلاقة رأس موحدة. ويُنادي على كل منهم برقم وليس بالاسم. ويأكلون نفس الطعام ويتبعون نفس النظام للجميع. ولا توجد فوارق بين الطبقات. وكانت تحيط بهم الأسلاك الشائكة من كل جانب.

وبين يدي رجال الإدارة المهرة—أو الساديون—

تحولت المعسكرات إلى معامل للمعاناة والآلام. وقد أشار إلى ذلك تيرينس دي بريس Terrence Des Pres عندما قال إن هدف المعسكرات هو "تحويل النزلاء إلى مخلوقات بلا عقل حتى يسهل التنبؤ بسلوكها ومن ثمَ التحكم فيها تماماً. وقد كانت هذه المعسكرات مغلقة تماماً. وساد هذه المعسكرات الألم والموت كنواحٍ سلبية، والطعام والحياة كنواحٍ إيجابية.

وإذا كانت التقارير التي كتبها كل من: بيتيلهيم، فرانكل، ويسيل، ليفي، ويسينثال، سولزينيتسين، شارانسكاي Bettelheim, Frankl, Wiesel, Levi, Wiesenthal, Solzhenitsyn, Sharansky وآخرون تثبت أي شيء فإنها تثبت أن تجارب علماء السلوكيات قد فشلت. فعلى الرغم من محاولة انتزاع كل كرامة واحترام من هؤلاء النزلاء، فقد استطاعوا أن يحتفظوا بإنسانيتهم ووعيهم الأخلاقي. ولكي نأخذ مجرد مثل واحدٍ، سولنجنستين الذي "أعيد تأهيله" صاح بصوتٍ عالٍ وطرد من بلده ولكنه تمكن من فضح وتعرية الستالينية.

وبالمثل، فإذا حضرتَ اجتماعاً لليهود الباقين من المحرقة النازية (الهولوكوست)، فلن تجد أناساً مهزومين أو بلا فائدة أو قيمة، ولكنك سوف تجد سياسيين، وأطباء، ومحامين مرموقين في المجتمع. والأطفال الذين نشأوا تحت نظام شرير، أصبحوا رجالاً ونساء شجعان.

ولو أخذنا كل هذه الأمور معًا، فإن هؤلاء الأحياء يثبتون أنه حتى المعاناة في أقسى صورها يمكن الاستفادة منها في الحياة الإنسانية. وقد لخص بيتيلهيم الدرس المستفاد من المعسكرات فقال: "لم تعلمنا خبرتنا أن الحياة بلا معنى، وأن عالم الأحياء هو مجرد بيت دعارة، وأن على الفرد أن يحيا طبقاً لمتطلبات جسده الفطرية، دون أي اعتبار للضغوط الثقافية الموروثة. ولكن الخبرة علمتنا، أنه حتى وإن كان العالم الذي نعيش فيه يتسم بالبؤس، فالفرق بينه وبين عالم معسكرات الاعتقال هو كالفرق بين الليل والنهار، وبين الجحيم والخلاص، والموت والحياة.

لقد علمتنا أن للحياة معنى، وبالرغم من صعوبة فهم هذا المعنى، فإنه معنى أكثر عمقاً مما اعتقدنا قبل أن نُصبح أحياء.

وقد عُذب جورج مانجاكيس George Mangakis وحكم عليه بالسجن لمدة ١٨ عامًا أثناء الحكم العسكري اليوناني وكان يشعر بالشفقة على من عذبوه وليس على نفسه وقال:

"إنني اختبرت مصير الضحية. ورأيتُ وجه الذي يُعذبني عن قرب. لقد كان أسوأ حالاً من وجهي الدامي، إذ كان يرتعش وينتفض وليست به أية صفة إنسانية...

ولذلك، كنتُ أشعر أنني أكثر حظاً منه. لقد أذلوني مع أنني لم أفعل ذلك بأحد. لقد كنتُ أحتفظ بإنسانية غير سعيدة في أحشاء متألمة. بينما أولئك الذين يذلونك، يجب عليهم أولاً أن يُذلوا فكرة الإنسانية بداخلهم. لقد كانوا يختالون بزيهم الخاص، معتقدين أنهم يستطيعون أن يتحكموا في المساجين الذين يعانون والجوعى والبؤساء، وهم ثملون بالقوة التي بأيديهم. وماهي إلا احتقار للإنسانية. إن عليهم أن يدفعوا ثمن تعذيبي هذا.

ولم تكن حالتي هي الأسوأ. لقد كنت أنوح لأن ألمي كان شديداً، وأفضل ذلك. وكنت محروماً في هذه اللحظة من فرح رؤية الأطفال وهم ذاهبون إلى المدرسة أو يلعبون في الحدائق. بينما كانوا هم يشاهدون وجوه أطفالهم.

أما الطبيب فيكتورٍ فرانكيل Viktor Frankl- وهو طبيب نفسي - فقد تعلم من خلال فترة سجنه بأن للحياة "معنى" وأن الأحرار لديهم موروث من الحرية لا يمكن أن تمحوه المعاملات غير الإنسانية داخل المعسكرات. ويُلخص أختبارهُ رأي الكثير من النزلاء:

"توضح تجربة الحياة في المعسكر أن لدى الإنسان

اختيار العمل. وكانت هناك الكثير من الأمثلة ذات طبيعة بطولية والتي أثبتت أنه يمكن التغلب على اللامبالاة والغضب. ويستطيع الإنسان أن يحتفظ ولو بالقليل من الحرية الروحية واستقلالية التفكير حتى وسط هذا التعذيب... كل شيء يمكن أن يُؤخذ من الإنسان إلا شيء واحد حرية الإنسان في اختيار طريقه ...

وفي التحليل الأخير، يتضح أن نوعية السجين يحدده قراره هو وليست تأثيرات المعسكر بمفردها. فإن أي شخص يمكنه أن يقرر مصيره الذهني والروحي".

السؤال الجوهري

إذا كانت معسكرات الاعتقال أجابت على أسئلة معينة عن الانسانية، فإن هولوكوكست هتلر ضد اليهود يُثير اسئلةً جريئة عن الله. وسؤال هذا الكتاب: "أين الله في وقت الألم؟" يمكن سؤاله بالتحديد على ما لاقاه اليهود على يد هتلر. كيف يجلس الله ساكناً ويرى التضحية بستة ملايين يهودي من شعبه المختار؟ كيف يسمح لهذا الحكم الشرير بكل هذه السلطة؟

وفي السبعينات قام روبرت برينير بفحص ألف يهودي من الأحياء الباقين بعد نهاية الهولوكوست في إيمانهم عن الله؟ ولدهشته قال ما يقرب من النصف إنَّ إيمانهم بالله لم يتأثر. ولكن النصف الآخر قال قصةً أخرى. ونسبة ١١٪ من العدد الإجمالي نبذوا كل إيمانهم بوجود الله كنتيجة مباشرة لتجربتهم التي اجتازوها. وبعد الحرب لم يستردوا إيمانهم قط. وبتحليل إستجاباتهم التفصيلية، لاحظ برينير أن اعترافهم بالإلحاد كان نتيجة رد فعل عاطفي أكثر منه اعتقادًا لاهوتيًا، وكتعبير لجرح عميق ضد الله الذي تركهم.

ومع ذلك، اكتشف برينير أيضاً أن عدداً صغيراً، حوالي ٥٪ من العدد الكلي تحولوا من الإلحاد إلى الإيمان بسبب

الهولوكوست. فبعد اجتيازهم هذا العذاب الأليم، لم يجدوا ملجأ آخر للعودة إليه سوى الإيمان.

وفي خلال شهرين، قرأتُ تقريرين مؤثرين كتبهما بعض الأحياء من الهولوكوست. ويُصور هذان التقريران اللذان كتباهما Elie Wiesel & Corrie ten Boom الاستجابات المختلفة للإيمان تحت مثل هذه الظروف. وكانت كتبهم - وهي من أفضلها مبيعاً - من بين أفضل الكتب التي كُتبت عن الهولوكوست.

وكتاب "الليل Night" الذي كتبه إيلي ويسيل أثر فيَّ أكثر من أي كتاب آخر قرأته. وبأسلوب محكم ومهذب يصف ويسيل العالم الذي قضى فيه سنوات المراهقة. وجُمع كل اليهود في قريته في حي خاص بهم (غيتو)، ثم نزعوا ممتلكاتهم وشحنوهم في سيارات كالقطيع. ومات ثلث عددهم وهم في طريقهم لمعسكرات الاعتقال.

وفي الليلة الأولى التي سار فيها القطار إلى بيركينبو، انبعث الدخان الأسود من الأفران الضخمة، ولأول مرة في حياته اشتمَّ إيلي رائحة احتراق الأجسام البشرية:"لن أنسى هذه الليلة ولن أنسى هذا الدخان. ولن أنسى الوجوه الصغيرة للأطفال الذين رأيت أجسادهم تتلوى عبر دوائر من الدخان تحت سماء زرقاء صامتة. ولن أنسى هذا السكون الليليَّ الذي حرمني من الرغبة في الحياة. ولن أنسى تلك اللحظات التي اغتالت إلهي وروحي وحولت أحلامي إلى تراب. ولن أنسى كل تلك الأشياء حتى لو كُتبت لي الحياة إلى الأبد".

ورأى ويسيل بعينيه والدته وأخته الصغيرة وأخيراً كل العائلة وهم يُدفعون دفعاً إلى فرن الإبادة. ورأى الأطفال وهم يُذرون ويشنقون، والمسجونين يقتلون على يد نزلاء آخرين وهم يتشاجرون على قطعة خبز. أما إيلي نفسه، فقد هرب من الموت بسبب خطأ إداري.

وفي مقدمة كتاب "Night" كتب فرانسوا مدورياك François Mduriac الحاصل على جائزة نوبل، كتب

يصف اجتماعه مع ويسيل عندما سمع عن قصته لأول مرة

سمعتُ منه ماجذبني لهذا الإسرائيلي الشاب: وكان يبدو وكما لو أن العازر قام من الموت، ومع ذلك، مازال هذا السجين مقيداً بقيود رهيبة ويتعثر في أشلاء القتلى بالسجن. وبالنسبة له، كانت صحة نيتشيه تُعبر عن حقيقة واقعه: الله مات، إله الحب والرحمة والراحة إله إبراهيم وإسحق ويعقوب اختفى للأبد تحت نظرة هذا الطفل وسط دخان الهولوكوست العنصري الذي هو أقسى من أية أوثان. وما أكثر اليهود الأتقياء الذين اختبروا واجتازوا هذا الموت!...

هل فكرنا مرة في نتيجة هذا الرعب الذي له أسوأ الأثر على المؤمنين: موت الله في نفس طفل يكتشف فجأة هذا الشر المطلق؟

حفرة عميقة

أحياناً تحدوني رغبةٌ ملحة أن أبقى مع ويسيل ويغمرني الإحساس بمدى المأساةَ الإنسانية التي أجتازها. وبعد ما عانى من هذه الأعمال الوحشية في معسكرات الاعتقال كيف يمكن لأي إنسان أن يبدأ حياته ثانية؟ هل يمكن لكلمات مثل الأمل والسعادة والفرح أن يكون لها معنى؟ وكيف يمكن لأي أحد أن يقول له إن الألم له قيمة لأنه يبني الشخصية؟

وبعدما قرأت كتاب "الليل Night" الذي كتبه إيلي ويسيل، قرأت كتاباً آخر بعنوان "مكان الاختباء The Hiding Place" وقد كتبه كوري تن بووم Corrie ten Boom. ومع أن Corrie لم تكن يهودية، إلا أنهم قُبضوا عليها في هولندا لأنها كانت تأوي يهوداً وأرسلت إلى معسكرات الموت في ألمانيا. ولقد شعرت أيضاً بآلام الكرباج، ورأت مساجين يختنقون في الأفران، وشاهدت أختها وهي تموت. وشعرت بتسوية كل الفضائل في عالم

يحكمه الشر. ويطرح كتابها نفس الأسئلة التي ذكرها كتاب ويسيل وأحياناً يُظهر غضبها ضد الله.

ولكن في كتابها الأخير، كان هناك عُنصُر آخر وهو الأمل والانتصار. فنقرأ عبر قصتها نسيج خيوط المعجزات الصغيرة مع الدراسات الكتابية والأغاني الروحية وأعمال المحبة والتضحية.وخلال فترة العذاب، استمرت ثقةُ الأختين في الله التين أحاطهما بمحبته الفائقة وقالت "رغم عمق الحفرة، كانت محبة الله أعمق".

ويجب أن أعترف، أنه على الرغم من أن شعوري بالشفقة ينصب كلية ويتوافق مع وجهة نظر كوري للحياةِ وأعتقد أيضاً في إلهها المحب، إلا أنني أعتبر كتابها ضحلاً بمقارنته بكتاب ويسيل. وأشعر بشيء مظلم بداخلي يشدني بقوة بعيدًا عن الرجاء ويأخذني نحو اليأس.

ويُعبر ويسيل نفسه عن شكوكه بحرية ويقول: "إنني أتهم والله هو المتهم لقد انفتحت عيني بطريقة مرعبة على عالم بدون الله وبدون إنسانٍ، بدون حب ولا رحمة. وتوقف شعوري بأن أكون شيئاً ولكن مجرد حفنة تراب، ومع ذلك فكنتُ أشعر بنفسي أنني أقوى من الله، الذي ارتبطت به حياتي لفترة طويلة".

وحفزتني قوة بداخلي لأن أقف بجانب ويسيل وأتهم الله وأتخلص من كل رابطٍ بالإيمان.

وشيء واحد فقط منعني من أن أتهم الله. والسبب في استمرار إيماني هو منظر وصفه ويسيل ببراعة، حادثة عرضية حدثت عندما كان في الخامسة عشر من عمره وسُجن في Buna.

فقد اكتُشفت أسلحة مخبأة في معسكر بونا Buna، وكانت تخص رجلاً هولنديًا والذي نُقل فوراً في سفينة إلى أوشويز Auschwitz. وكان مع الرجل ولد صغير يخدمه. وبدأ الحراس يعذبون الولد. وكان الولد يتمتع بوجه رقيق جميل لم يشوهه المعسكر بعدُ حتى أن وصفه ويسيل بقوله "الملاك الصغير الحزين".

وعندما رفض الولد التعاون مع المحققين حكموا عليه بالموت مع اثنين آخرين كانا مع الأسلحة التي ضُبطت. ووصف ويسيل المشهد كالتالي:

"في أحد الأيام، عندما كنا في طريق العودة من العمل، رأينا ثلاثة مشانق منصوبة في مكان التجمع تُشبه ثلاثة غربان سوداء. ونادوا على الأسماء واستعد الجنود لإطلاق النار. ثلاث ضحايا من بينهم الطفل الصغير ذا الوجه الملائكي الحزين.

وظهر الانزعاج على رجال الشرطة بطريقة غير عادية. فلكي تشنق طفلاً صغيراً أمام آلاف المشاهدين ليس أمراً سهلاً. وقرأ رئيس المعسكر الاتهام. وتحولت كل العيون إلى الطفل. وكان هادئاً، شاحب الوجه ويقضم شفتيه بين الحين والآخر.

وألقت المشنقة بظلالها المرعبة عليه. وفي هذه المرة رفض الرجل المنوط بتنفيذ حكم الإعدام القيام بدوره. وحل محله ثلاثة آخرون. وصعد المتهمون الثلاثة على الكراسي ووضعوا رؤوسهم في حبل المشنقة. وصاح الرجلان البالغان: "لتحيا الحرية" ولكن الطفل ظل صامتاً. وسأل أحدهم وكان يقف خلفي: "أين الله؟ أين هو؟ وبإشارة من رئيس المعسكر سحبوا الكراسي من تحت أقدام الثلاثة الذي سيشنقون. وساد الصمت كل المعسكر. وعبر الأفق البعيد، كادت الشمس تغيب. وصاح رئيس المعسكر قائلاً: "اكشفوا رؤوسكم" وكنا نبكي من شدة تأثرنا مما نرى. ثم صاح مرة أخرى "غطوا رؤوسكم".

ومات الرجلان البالغان. وظهرت ألسنتهما وهي متورمة وزرقاء اللون. أما الحبل الثالث، فما زال يتحرك لأنه لم يُربط بشدة، ولا يزال الطفل حياً... وظل يصارع بين الحياة والموت لمدة نصف ساعة وهو يموت ببطء أمام عيوننا. وعندما مررت أمامه

كان لا يزال حيا.

وكان خلفي نفس الرجل وسمعته يردّد نفس السؤال: "أين الله الآن؟" وسمعت صوتاً داخليًا يجيبه: أين هو؟ هو هنا ... إنه يُشنق على هذه المشانق وفي تلك الليلة، كان لطعم الحساء الذي نشربه مذاق الجُثث".

وفقد ويسيل إيمانه في معسكر الاعتقال. وبالنسبة له، لقد شُنق الله حرفياً على تلك المشانق ولن يقوم ثانية. ولكن في الحقيقة، فإن الصورة التي صورها ويسيل بهذه البراعة والقوة تحتوي في داخلها على الإجابة على سؤاله. أين الله؟ وكان الصوت في داخله يقول الحقيقة: بطريقة ما شنق الله بجانب الطفل الصغير. فالله لم يستثنِ حتى نفسه من الآلام البشرية. فهو أيضاً عُلق على مشنقة الصليب في الجلجثة، وهذا وحده هو الذي يحفظ إيماني في إله محب.

الله الساكن في السماء لم يصم آذانه عن الأصوات المتألمة على هذا الكوكب المتألم. لقد جاء من السماء وعاش بين شعب مضغوط ومظلوم - قوم ويسيل (اليهود) - في ظروف الفقر والعذاب الشديد. وهوس أيضاً كان ضحيه بريئة للقسوة والعذاب. وفي تلك اللحظة من اليأس الأسود، صاح ابن الله تماماً مثل المؤمنين في المعسكر "إلهي إلهي لماذا تركتني؟"

إن يسوع، ابن الله وهو على الأرض، جسّد كل ما أحاول قوله عن الألم. ومثل أيوب، هذا البريء الذي تألم كثيراً، لم يتلق أية إجابة على أسئلته عن السبب: لماذا؟ تلك التي صرخ بها وهو على الصليب ولم يسمع شيئاً إلا صمت الله التام. ومع ذلك، فقد استجاب بكل الثقة والإيمان، ناظراً إلى الخير الذي سينتج عن المعاناة. "الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب" (عب١٢: ٢). أي سرور؟ إنه سرور تغيير البشرية وفدائها.

ويؤكد الذين كتبوا الإنجيل أن معاناة يسوع لم تكن عجزاً، فكان بإمكانه أن يستدعي آلاف الملائكة. ولكن

كان عليه أن يجتاز آلام الصليب من أجل البشرية الساقطة لكي يفتديها. وأخذ الله الآلام الشديدة التي عاناها الابن في موته واستخدمها ليمتص في نفسه كل الآلام الصغيرة التي على الأرض. إن الألم والمعاناة هما الثمن الذي دفعه الله للغفران.

وستظل الآلام البشرية بلا معنى مالم نحصل على نوع من التأكيد أن الله يتعاطف مع آلامنا وبإمكانه أن يشفيها. ولنا هذا التأكيد في المسيح. ولهذا تشتمل الرسالة المسيحية على المدى الكامل للغضب واليأس والظلام الذي عبر عنه الكاتب بكل فصاحة في كتابه "الليل Night".

إنه يقدم تعريفاً كاملاً بمعاناة العالم. ولكن المسيحية تأخذ خُطوةً للأمام. إنها القيامة، لحظة الانتصار عندما يُهزم آخر عدو وهو الموت. فمأساة صلب يسوع هي التي جعلت شفاء العالم ممكناً ...

هل كان الله يريد أن يحدث الهولوكوست؟ وأسأل السؤال بطريقة أخرى: هل كان الله يرغب في موت ابنه؟ بكل تأكيد لا يريد الله مثل هذه الوحشية أن تحدث. ومع ذلك، حدث الاثنان، وينتقل السؤال من "لماذا؟" تلك التي لا إجابة لها إلى: "ماهو الهدف؟".

وفي لحظة الألم يصعب علينا أن نتخيل الشيء الصالح الذي قد ينجم عن الألم (ولابد أن هذا حدث مع يسوع في جثيماني). ونحن لن نعرف مقدماً كيف أن المعاناة يمكن أن تتحول للخير. ولكن هذا هو المطلوب منا أن نؤمن به. فالإيمان يعني أن نؤمن مقدماً بما سيكون له معنى حتى وإن بدا عكس ذلك.

قسيس داشو Dachau

بعد فترة قصيرة من قراءة كتابي إيلي ويسيل و كوزي تن بووم قمت بزيارة أحد معسكرات الاعتقال النازية. وفي المعسكر المقام على أراضي داشو قرب ميونخ، التقيت برجل عاش بعد الهولوكوست وعاش حياة الخدمة ليعلن

للعالم أن محبة الله أكثر عمقا من الرذيلة والفساد الإنساني. ويُساعدني هذا الرجل على أن أفهم كيف أن نظرة الأمل في الحياة التي كانت تتمتع بها Corrie كانت ممكنة حتى في مثل هذا المكان (معسكر الاعتقال).

وأمضى الرجل— الذي يدعى كريستيان ريجير Christian Reger -أربع سنوات كسجين في داشو. ماهي جريمته؟ لقد كان ينتمي إلى كنيسة Confessing Church وهي فرع من الكنيسة الألمانية الرسمية تحت قيادة مارتن نيموليير، ديتريتش بونهويفير Martin Niemoller، Dietrich Bonhoeffer، المعارضة لهتلر. وقُبض على ريجير وأُرسل إلى داشو.

ومنذ التحرير، عمل ريجير وأعضاء آخرون في لجنة داشو الدولية على استرداد معسكر الاعتقال النازي كأثر دائم ودرس لكل البشرية. وكان شعارهم "لن يحدث ذلك ثانية". ومع ذلك، كان يصعب إيجاد المعسكر لأن المسئولين المحليين رفضوا هذه الفكرة.

وكان اليوم الذي قمتُ فيه بزيارة داشو غائماً وبارداً. والضباب كان قريباً من سطح الأرض، وأثناء سيري، تجمعت نقط المياه الرطبة على وجهي ويدي. لقد كانت تود هنا ثلاثون ثكنة وأساس من الأسمنت بارتفاع قدم يحدد موقعها. واستردوا واحداً من هذه الثكنات، وتشير الإعلانات بأنه في يوم ما حُشر ١٦٠٠ شخص في هذه الثكنة التي ما كانت تتسع لأكثر من ٢٠٨ شخص. ورأينا أفران إحراق جثث الموتى التي تركتها قوات تحرير الحلفاء.

وقد أضاف الضباب والظلام والمباني الغير مكتملة إلى هذا المنظر نوعاً من الكآبة والخوف. وشاهدت طفلاً يرقص حول أساس الثكنات. وبين سور الأسلاك الشائكة شاهدت زهوراً تنبت.

وجدت القس ريجير في الكنيسة البروتستانتية الصغيرة التي تقف بجوار دير كاثوليكي ولوحة تذكارية يهودية. وكان

يتجول مع السائحين متحدثا معهم بالألمانية والإنجليزية والفرنسية. ويُجيب على أسئلتهم، ويسترجع ذكرياته عن تلك الأيام التي قضاها كنزيل في هذه المعسكرات.

وبالقرب من نهاية فصل الشتاء، عندما تقل كميات الفحم، تُغلق الأفران. ولم يعد السجناء قادرين على احتمال الرائحة النتنة للأجساد المحترقة. ومات كثيرون بسبب تعرضهم للمخاطر الجوية، ومع ذلك فقد أصبحت أجسادهم وهم عرايا فوق الجليد كما لو كانوا حطباً، ورُقمت الجثث بعلامة زرقاء. وسيحكي لك ريجير قصص الرعب هذه إذا طلبت ذلك. ولكن الأمر لا يتوقف عند ذلك بل يُشارك بإيمانه، وكيف أنه في داشو زاره الله إله المحبة.

وذكر ريجير عبارة قالها نيتشيه: "يمكن للإنسان أن يتحمل التعذيب لو عرف إجابة "لماذا The Why" في حياته". وأضاف ريجير: "ولكنني هنا في داشو تعلمت ماهو أعظم من ذلك. تعلمت من هو المسئول عن حياتي. وكان هذا كان كافياً لأن يحفظ حياتي وما زال يحفظها".

ولم يكن الأمر هكذا دائماً. فبعد الشهر الأول من داشو، فقد ريجير كل أمل في الله المحب. ومن منظور سجين نازي، كانت المشاعر الغريبة ضد وجود الله عظيمة للغاية. وفي يوليو عام ١٩٤١، حدث شيء ما تحدى شكوكه.

فقد سُمح لكل سجين بأن يكتب خطاباً واحداً كل شهر لأهله، وفي شهر واحد تلقى ريجير أول أخبار من زوجته. ومن خلال الأوراق الممزقة التي قطعها الرقيب إلى أجزاء صغيرة، استطاع أن يقرأ ما كتبته زوجته عن الأسرة وأكدت له أنها تحبه. وفي نهاية الخطاب، كتبت له شاهد الآية من سفر الأعمال (٤: ٢٦ - ٢٩).

وكان ريجير قد هرّب كتاباً مقدساً للمعسكر، ففتحه وقرأ الآيات وهي جزء من حديث ألقاه كل من بطرس ويوحنا بعد إطلاق سراحهم من السجن: "قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معًا على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته

هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل. ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون. والآن يارب انظر إلى تهديداتهم وامنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة".

وفي نفس هذا اليوم، بعد الظهر، أُجريّ تحقيق مع ريجير، وهو من أكثر الأمور رعباً في المعسكر. فسوف يكرهوه على ذكر أسماء مسيحيين آخرين في الخارج بالكنيسة. فإذا استسلم وذكر اسماءهم فسوف يُقبض عليهم وربما يقتلون. وإذا رفض فسوف يُعذب بالكهرباء. وقد قرأ في الآيات السابقة أن الرؤساء اجتمعوا معًا على الرب. وباقي الآيات كانت تعني القليل بالنسبة له. كيف يمكن لله أن يساعده في وقتٍ عصيب مثل هذا؟

وانتظر ريجير أمام غرفة التحقيقات وكان يرتعش. وفتح الباب، وإذ بخادم زميل لم يقابله من قبل خرج من الغرفة وسار نحوه ووضع شيئاً في جيب معطف ريجير ثم مشى بعيدًا. وبعد ثوانٍ، جاء الحرس وأدخلوه إلى غرفة التحقيقات. وسارت التحقيقات سيراً حسناً ولم يظهروا ضده أي نوع من القسوة.

وعندما وصل ريجير إلى الثكنة كان يتصبب عرقاً على الرغم من برودة الجو. وتنفس بعمق لعدة دقائق ثم ذهب إلى سريره المغطى بالقش. وفجأة تذكر المقابلة الغريبة مع زميله القسيس. ووضع يده في جيبه وأخرج علبة الكبريت. واندهش جداً لأن الكبريت هدية ثمينة للغاية في الثكنات. ولكنه لم يجد أعواد ثقاب في العلبة بل وجد ورقة مطبقة. وفتح الورقة وقلبه ينبض بسرعة وإذ به يجد نفس الآية (أع٤: ٢٦ - ٢٩).

وكانت هذه بمثابة معجزة بالنسبة لـ ريجير ورسالة مباشرة من الله. وبالتأكيد لم ير هذا القسيس الخطاب الذي أرسلته زوجته وبه هذه الآية لأنه رجل غريبٍ عن المكان. هل الله دبر هذا الحادث ليؤكد أنه ما زال حياً ويستطيع أن يقويه ويستحق أن يضع كل ثقته فيه؟

وتحولت حياة ريجير منذ تلك اللحظة. ربما يعتبرها البعض معجزة صغيرة ولكنها كافية لأن تُثبِّت إيمانه على صخرةٍ لا تتزعزع ولا حتى بالوحشية التي قد يشهدها في السنوات الأربع القادمة في داشو. وقال: "الله لم ينقذني ولم يخفف من معاناتي. ولكن بكل بساطة أكد لي أنه حيّ ويعلم أنني هنا. ونحن المسيحيون اقتربنا من بعضنا البعض. وكونوا كنيسة هنا مع باقي الرعاة ودعوناها الحركة المسكونية. وارتبطنا معًا كجزء من جسد المسيح. ويمكنني أن أتحدث عن نفسي فقط. فآخرون ابتعدوا عن الله بسبب ما عانوه في داشو؟ ولكن من أنا حتى أحكم عليهم؟ ولكنني أعرف أن الله قابلني وهذا يكفيني حتى في داشو".

وطالما شعر ريجير بأنه في حالة صحية طيبة كان يتجول في داشو ويتحدث إلى السائحين بصوته الدافيء. وكان يُخبرهم أين كان الله أثناء الليل الطويل الذي قضاه في داشو.

الجزء الرابع

كيف يمكننا تقبل الألم؟

"أنا لا أسأل الشخص المجروح عن شعوره، بل أنا نفسي أصبح مجروحاً"

"والت ويتمان *Song of Myself*"—"Walt Whitman"

١٣

حدودُ التحسّنِ

لكي أتعلم عن المعاناة، قمتُ بدراسة حياة أناس عاشوا طوال حياتهم في معاناة مثل: براين سترنبيرج، جوني إيريكسون تودا، والذين بقوا على قيد الحياة بعد زوال الهولوكوست. فمعظمنا يُعاني لفترات محدودة وبصورة أقل حدة منهم. ولكن الحقيقة الأساسية عنهم جميعاً: انهم يتجاوبون مع الألم بصور مختلفة.

وعرفت أناساً يعانون من التهاب المفاصل (الروماتويد) ولا يتحدثون عن أي شئ آخر إلا عن هذا المرض، بينما آخرون يعبرون فقط عن آلامهم بعد أن تسألهم عدة أسئلة. ما سبب هذا الاختلاف؟ هل توجد طريقة تساعدنا على معرفة مدى استجابة الشخص للألم والمعاناة؟ هل يُمكننا أن نتعلم كيف نُعد أنفسنا لتقبل الألم بطريقة تخفف من أثره علينا؟

والألم في حد ذاته ـ الذي قد يبدو فعلاً انعكاسيًا ـ لايمكن أن يُشبه نظرية السبب والأثر الناتج عنه. حقيقةً، إن الخلايا العصبية تثور حينما تشعر بالخطر، ولكن كل هذه الرسائل التي تُرسلها تُصفَّى وتُترجم بواسطة المخ.

وفهم الإنسان للألم يمكن أن يغير شعوره به واستجابته له بطريقة أساسية. وسوف تستجيب بطريقة مختلفة تماماً لضربة قوية ومفاجئة في وجهك عن الملاكم المحترف الذي يُدفع له الكثير من المال لكي يحتمل الضربات القوية خلال خمسة عشر جولة.

يُصَرِّح المجتمع الطبي الآن بأن سلوك الشخص ومواقفه هي عناصر أساسية تحدد أثر كل معاناته. ويعترف الدُكتور روبرت أدر Dr. Robert Ader - أستاذ الطب النفسي في كلية طب روشستر - بأن لكل الأمراض عوامل عاطفية ويُواصل قوله: "إن نظرية الجراثيم لا تستطيع أن تعطي سبباً لماذا يمرض الناس لأنها لو استطاعت ذلك - فلا أعرف كم سيكون دورك وواجبك كبيراً، ولكن إذ أصيب شخصٌ ما بالإنفلونزا، عندئذ، لا أعرف ولا أفهم لماذا لا يُصاب بها الآخرون".

وقد اعتاد ألبرت شويزير أن يقول بأن الأمراض تتعمد أن تتركه سريعاً لأنها لا تجد أي ترحيب أو استضافة في جسده. أو كما علق شخص آخر قائلاً: "في بعض الأحيان، تجد أنه من الأهم أن تعرف أي نوع من الفلاحين به جرثومة ثم أي نوع من الجراثيم لها فلاح". إن الاستعدادات يمكن أن يكون لها تأثير محدد على خبراتنا بالألم والمعاناة. ومعرفة ذلك، يعلمنا كيف نساعد المتألمين عندما نكون نحن أصحاء.

وتعلمون أنني في بداية الكتاب كتبت قصة صديقتي كلوديا سلاكستون Claudia Slaxton التي فوجئت بمرض Hodgkin. وسألتها هي وزوجها لماذا جمعتهما هذه المحنة معًا، بينما مثل هذه المحنة كانت كافية لتخلق التوتر وتُحدث الانفصال.

أجاب جون: "كنت أعمل قسيساً مساعداً في كنيسة المستشفى في ذلك الوقت. ورأيت أناساً مرضى وآخرين يموتون. ونحن نشاهد في الأفلام أن الزوجين اللذين يُقاتلان المخاطر ينسيان خلافاتهما ويتوحدان معًا. ولكن لا يحدث ذلك في واقع الحياة.

فعندما يواجه الزوجان محنة ما، فهي تضخم حقيقة العلاقة الموجودة بينهما. ولأننا نحب بعضنا بعضاً بقوة، قربتنا هذه المحنة من بعضنا لبعض أكثر. واختفت مشاعر الغضب واللوم وظهرت كل مشاعر الحب".

وطبقاً لما قاله جون، فإن أفضل طريقة للإعداد للمعاناة هى أن نُقيم حياةً قوية مبنية على الحب ونحن أصحاء. إنك لا تستطيع أن تلفق أو تبتدع أسساً للقوة فجأة، بل عليك أن تثابر طوال الوقت لعمل هذا البناء على أساس سليم.

مدرسة الألم والمعاناة

إن أفضل من يستطيع أن يعلمنا معنى المعاناة - سواء كان ذلك إعدادًا لنا لتقبلها أو لكي نساعد الآخرين - هم الذين يعانون أنفسهم. ومع ذلك، فمرض شخص آخر- وخاصة أمراض الأطراف - يُهدد صحتنا ويُظهر أسوأ ما فينا: فقد نحول أنظارنا بعيدًا عنهم بدافع الخوف مما نرى، أو قد نرتعش ارتعاشًا مفاجئاً، أو قد نعطي وعوداً فارغة (استدعيني لو احتجت أي شئ)، أو محادثات تتحول إلى ثرثرة مزعجة. ماذا يمكننا أن نقول؟ هل هناك ما يستحق قوله؟

إنني أعترف أنه ليس من السهل عليّ أن أقوم بزيارة من يتألمون وخاصة أولئك الذين في المستشفيات. وأشعر بالانزعاج حالما أفتح باب المستشفى الزجاجي، ربما بسبب الرائحة التي تصل بسرعة إلى المخ، أو بسبب المطهرات التي لها ذكريات منذ الطفولة عندما استأصلت اللوزتين. وقد أرى ممرضة في الطرقات تبتسم لي وتحييني، وأخرى عملاقة تغطيني بكيس للحماية.

وبعد عدة سنوات من شعوري بالشيزوفرانيا التي أحترفها - فأنا أتحدث عن الألم وفي ذات الوقت أشعر بالعجز أمامه - قررت أن أنحي بعيدًا ترددي هذا وأجبر نفسي لكي أكون قريباً من المتألمين بطريقة منتظمة. وأثناء ذلك، اكتشفت أن أحد أصدقائي مصاب بالسرطان.

لقد كان في الثالثة والثلاثين من العمر وتزوج منذ عشرة شهور فقط وقضى شهر العسل هو وزوجته وهما يُبحران في الكاريبي. وكان جيم مهتماً بوظيفته وحبه للتزحلق على التلال وزواجه الذي في بداية الطريق. وفجأة واجه الموت وكان بحاجة للمساعدة.

وعندما إستدعاني، بدأت أصطحبه إلى العلاج النفسي في مستشفى قريب منا. والناس تُعالج نفسياً لأسباب عديدة: ليُحسّنوا فكرتهم عن أنفسهم، أو ليتعلموا كيفية التعامل مع الآخرين أو ليتغلبوا على الإدمان. وكانت المجموعة التي يتعالج معها صديقي تشتمل على أناس في طريقهم إلى الموت. وهم يستخدمون كلمات لطيفة للتعبير عن السرطان فيسمونه "مرض يهدد الحياة"، أو يعانون من تصلب الشرايين أو التهاب الكبد أو نقص في التغذية وأمراض أخرى مثل هذه. وكل واحد في هذه المجموعة يعرف أنه قريب من الموت.

وكان اجتماعي الأول مع صديقي صعبًا للغاية. والتقينا في غرفة واسعة مفتوحة، وجلسنا على كراسي بلاستيكية برتقالية اللون لتضفي جواً من المرح. وكان يمر بالطرقات مرضى محمولون. ويفتح ويغلق باب المصعد. وحاولت تجاهل سماعة تعطي الأوامر بين الحين والآخر.

كان معظم الناس في الثلاثينات من العمر. هذه المجموعة - التي عادةً ما تنسى أنهم سيموتون قريباً - كانت في أشد الحاجة لكي تتحدث عن أن الموت قد يُفاجئهم بغتةً. وبدأ الاجتماع بكل شخص على حدة. ومات أحد أفراد هذه المجموعة الشهر الماضي. وحكى الأخصائي الاجتماعي بعض تفاصيل أيامه الأخيرة وجنازته. وهمس جيم في أذنيّ قائلاً هذا هو الأمر الكئيب في هذه المجموعة: أعضاء المجموعة يختفون واحداً تلو الآخر.

وتوقعت نغمة كئيبة في الاجتماع، ولكنني وجدتُ عكس ذلك. فكانت الدموع تسيل بحرية وسهولة وكانوا يتحدثون عن المرض والموت بارتياح. وكانت المجموعة بمثابة

المكان الوحيد حيث يستطيعون التحدث بحرية وهم ما زالوا يُعوّلون على استجابة مؤكدة. وهم يصفون الطريقة الحزينة والغريبة التي تسود على معظم الأصدقاء (الموت) على أنها حقيقة مرضهم ونهايته. ولا تتسم هذه المجموعة بأية حواجز فيما بينهم.

وقد اشترت نانسي باروكةً جديدة لتُغطي رأسها الأصلع كنتيجة للعلاج الكيميائي. وكانت تحكي بروح مرحة أنها كانت دائماً ترغب في شعر مستقيم والآن قد منحها الورم الخبيث في المخ فرصةً ليكون لها هذا الشعر. أما ستيف، وهو شاب أسود، صرح بأنه مرعوب من المستقبل. لقد صارع ضد مرض Hodgkin وشُفيّ منه، ولكنه الآن يتدهور بسرعة. ولا يعرف كيف يُبلِّغ هذا الخبر لخطيبته. كما أن لورين تُعاني من ورم خبيث في الحبل الشوكي، وهيّ جالسة على الأرض طوال الاجتماع ونادراً ما تتحدث. وتقول إنها جاءت لتبكي لا لتتكلم.

وتأثرتُ كثيراً بأكبرهم سناً في الغرفة، إنها سيدة أنيقة، لها شعر رمادي ووجه عريض يدل على أنها مهاجرة أوربية. وكانت تتحدث في جمل بسيطة معبرة عن شعورها بالوحدة. وسألوها ما إذا كان لها أسرة. فقالت: إن لها ابناً يحاول أن يأخذ أجازة من القوات الجوية الألمانية. ولما سألوها عن زوجها قالت: "جاء مرة واحدة ليراني. وكنتُ بالمستشفى. وأحضر لي بُرنُس الحمام وبعض الأشياء القليلة الأخرى. ووقف الطبيب معه في الصالة وأخبره عن مرضي بالسرطان". وتعثرت في الكلام وبدأت تبكي ثم قالت: "في هذه الليلة، عاد زوجي للمنزل وأخذ كل أغراضه ومضى ولم أره ثانية".

وسألتها بعد فترة وجيزة: "كم عمر زواجكما؟". واندهشت المجموعة للغاية عندما سمعوا الإجابة: "سبعة وثلاثون عاماً". (وعلمت فيما بعد أن بعض الباحثين أقروا أن ٧٠٪ من حالات الانفصال تحدث نتيجة لإصابة أحد الطرفين بمرض عضال. وفي هذه المجموعة، لم يستمر الزواج أكثر من سنتين بمن فيهم صديقي جيم).

واستمر لقائي مع تلك المجموعة لمدة عام. وكل منهم عاش بقوة عجيبة لا يمنحها إلا الموت. وبكل تأكيد لا يمكنني القول بأنني "استمتعتُ" بهذه اللقاءات معهم، فهيّ كلمة خاطئة. ومع ذلك، فقد ظلوا بالنسبة لي أحد أهم الأحداث ذات المعنى في كل شهر. وعلى النقيض تمامًا من ذلك الحفلات، حيث يحاول المشاركون أن يؤثروا في بعضهم البعض بمراكزهم الرفيعة أو قوتهم أو ذكائهم، ولكن في هذه المجموعة لا يحاولون ذلك. فالملابس، والموضة، ونوعيات الأثاث، وألقاب الوظائف والسيارات الجديدة، كل هذه أمور لا معنى لها بالنسبة لأناس يُعدون أنفسهم للموت.

ومثل هذه الاجتماعات مع هذه المجموعة كانت تؤكد قيمة "بوق" الألم. وأكثر من أي أناس آخرين التقيتُ بهم، ركزوا على قضايا وموضوعات جوهرية. فهم لم يُنكروا الموت وكل يوم يختبرون قول أوغسطينوس "أصوات سلاسل الفضيلة تصم آذانهم". لذلك، كنت أود أن بعض أصدقائي الآخرين الذين يسعون وراء اللذة والسطحيين منهم أن لوحضروا ولو اجتماعًا واحدًا من هذه الاجتماعات.

وبين هؤلاء الناس، شعرتُ أنا - الذي سأكتب كتاباً عنهم - بأنني جاهل. ولمدة عام، تعلمتُ كما يتعلم الخادم الذي يجلس عند قدمي المعلمين في مدرسة الألم. ومعظم ما سأكتبه في الفصول التالية عن الاستعداد للألم ومساعدة الآخرين، اكتسبته من خبرات هذه المجموعة.

ما الذي ساعدني بصورة كبيرة

ماذا يمكننا أن نفعل لمساعدة المتألمين؟ ومن يستطيع مساعدتنا عندما نعاني؟ سأبدأ ببعض الأخبار الغير مشجعة إذ لا يمكنني إعطاء تعويذة سحرية لذلك. وليس لديك الكثير الذي تستطيع أن تقوله لمساعدة المتألمين. والبعض من أذكى العقول في التاريخ درست كل زاوية في مشكلة الألم، وسألوا لماذا يتألم الناس، ومع ذلك، فنحن ما زلنا نردد نفس الأسئلة بعدم ارتياح.

وكما ذكرت سلفا، إن الله نفسه لم يقدم تفسيرا منطقيا عن سبب الألم في إجابته على أيوب. والملك العظيم داود، والرجل البار أيوب وآخيرا حتى ابن الله كان رد فعلهم تجاه الألم مثلنا تماماً. لقد غضبوا منه، واعتقدوا أنه شيء رهيب، وحاولوا أن يُخففوا منه، واخيراً صرخوا إلى الله في يأس بسبب هذا الألم. وأنا شخصيًا أشعر باليأس لأننا لن نصل إلى إجابة مرضية للمتألمين.

ومع ذلك، فالنظر إلى هذا الأمر بمنظور آخر هو في حد ذاته أخبار سارة. وعندما سألت الناس الذين يتألمون: "من ساعدكم؟" لم يذكر ولا واحد منهم أن درجة الدكتوراه من جامعة Yale التي حصل عليها هي التي ساعدته أو فيلسوفًا مشهورًا ساعده. فهناك نوع من الديمقراطية في مملكة الألم وكلنا فيها سواسية. وكل منا لديه نفس الإمكانية للمساعدة وهذا أمر طيب. ولا يستطيع أي شخص أن يلخص "الاستجابة المناسبة للألم". فالكلمات التي نقصد توجيهها لأي متألم قد تكون بلا قيمة له. وإذا ذهبت إلى المتألمين أنفسهم وطلبت فهم بعض الكلمات المعينة، فقد تجد نوعاً من التناقض. فالبعض قد يتذكر صديقاً ساعدهم بطريقة مرحة كي ينسوا مرضهم لبعض الوقت، بينما يعتبر البعض الآخر أن هذا أسلوب مهين لهم. آخرون يريدون الأمانة والمواجهة المستقيمة، والبعض الآخر يرون أن هذه المناقشات تسبب لهم الاكتئاب.

وباختصار، أقول إنه لا يوجد علاج سحري للمتألمين. ولكن الشئ الأساسي بالنسبة له هو أنه محتاج للحب لأنه يساعده على التعبير عن احتياجاته. ويقول جان فانييه Jane Vanier مؤسس حركة "L' Arche" "إن الناس المجروحين الذين كسرهم المرض والمعاناة يطلبون شيئاً واحداً: قلبًا مُحبًا مملوءًا بالأمل والرجاء من أجلهم".

وفي الحقيقة، فإن الإجابة على السؤال "كيف أساعد المتألمين؟" هي نفس الإجابة على السؤال "كيف أحب؟" وإن سألتني على نص كتابي يُعلمُكِ كيف تساعد المتألمين فستجده في (١كو١٣) وتعبيره الفصيح عن الحب. وهذا ما

يحتاجه المتألم: الحب وليس المعرفة أو الحكمة. وكأسلوب الله غالباً، إنه يستخدم أناساً عاديين ليمنح بهم الشفاء.

ومع ذلك، فالمحبة ذاتها تتحول إلى أعمال حيّة. فنحن نقابل المتألمين في كل مدرسة وكنيسة ومبنى عام كما في كل مستشفى. وكل منا سيراهم في يوم من الأيام. وعندما استمعتُ إلى ما يقولونه توصلت إلى أربعة "حدود" يناضل أمامها كل متألم: حدود الخوف، العجز، المعنى والأمل. وتعتمد استجاباتنا للألم إلى حد كبير على نتيجة نضالنا مع هذه الحدود.

رأيتُ اللحظة التي ترتجف فيها عظمتي،
ورايت الخادمِ الأبدي وهو يحمل معطفي،
ويُقهقه ضاحكا،
وباختصارٍ، لقد كُنت خائفًا"

تي. إس. إليوت
أغنية حُب— ألفريد بروفروك

١٤
الخوف

الخوف هو رد الفعل الأساسي للمعاني في كل العالم. ومع ذلك، فهو بلا شك أعظم "عدو التحسُن".

لقد عرف جون جون الخوف جيداً. وكتب تأملاته في يوم كان الطاعون والموت الأسود يجتاحُ مدينة لندن. وقتل الوباء الآخير وحده ٤٠,٠٠٠ شخص. وهرب الآلاف إلى الأرياف، وتحولت المدن إلى أشباح. ولمدة ستة أسابيع عانى فيها Donne سكرات الموت معتقداً أنه تعاقد مع الوباء. وكان العلاج رديئاً كالمرض ذاته: نزيف، كمادات غريبة، واستخدام طرق سيئة وساذجة لطرد الشر.

وبعد ظهور علامات الخوف عليه، جلس دون وكتب الوصف التالي:

"يتسلل الخوف إلى كل عمل بل ويخترق الذهن، ومثل الغاز في الجسم سوف يُزيّف الخوف أي مرض، ويبدو كالحجر وداء المفاصل، هكذا الخوف يُزيِّف أي مرض في الذهن... فالرجل الذي

لا يخاف الأسد يخشى القط، والذي لا يخاف من التَّصُّور جوعاً يخشى من قطعة اللحم الموضوعة على المائدة لتغذيته... إنني لا أعرف ماهو الخوف ولا ما الذي أخافه الآن... وأنا لا أخشى استعجال الموت بينما أخاف من ازدياد المرض، إنني أكون كاذباً إن أنكرتُ أنني أخشى كل هذا".

إن التقدم الذي حدث في مجال الطب منذ أيام دون قلل من مخاوفنا. كما أن المستشفيات الحديثة تضع المرضى في غرف خاصة حيث يستلقون طوال اليوم ويُشغلون عقولهم بأمور أخرى غير حالتهم المرضية. وكذلك المعدات الحديثة تطن كثيراً مُحاولةً أن تخترق جسم المريض لمعرفة ما به. وفي الطرقات خارج الغرفة، يُتناقش الأطباء والممرضات في التقديرات المحتملة وبصوت منخفض وهم يراجعون الرسومات المعقدة والأرقام. ويُفحص المريض فحصاً جيداً من كل الجوانب وهذا طبعاً لمصلحته. وبالإجماع، فقد أصبحت المستشفى بيئة جيدة لينشأ فيها الخوف الذي يسري كالعدوى في ممراتها.

المبالغون في الألم

إننا نتحدث عن الخوف كعاطفة، بينما في الواقع هو فعل انعكاسي له آثاره النفسية السريعة. فالعضلات تتوتر وتنكمش تلقائياً ويزداد الضغط على الأعصاب وينتج عن ذلك مزيد من الألم. كما أن ضغط الدم يتغير وقد يشحب لون الوجه أو يزداد احمراراً. وقد ينهار الشخص الخائف أو يُغمى عليه. وكل الحيوانات تشعر بالخوف - حتى الأميبة تهرب من الحرارة والألم - ولكن الإنسان على وجه الخصوص سريع التأثر. فمثلاً، القولون العصبي يدل على معاناة الشخص من التوتر، وهو غير معروف في الأجناس الأخرى.

ولأن الخوف عاطفة أساسها في المخ تترسب إلى باقي أجزاء الجسم وتغير الإدراك الحسي للألم، فالشخص الذي يُعاني من الخوف الشديد من الإبر التي تحت الجلد يشعر

بألم أكثر من الحقن أكثر مما يشعر به مريض السكر الذي يتعلم أن يأخذ الحقن كل يوم. والحالة النفسية هي واحدة لدى الاثنين ولكن الخوف هو الذي يُحدث الاثنين.

الباحثة أسيناث بيتري Asenath Petrie بجامعة شيكاغو قسمَّت الناس إلى ثلاثة أنواع طبقاً لاستجابتهم للألم. "المبالغون" هم في بداية الإحساس بالألم ولكنهم يميلون إلى المبالغة في أي ألم يصيبهم. "المختزلون" تزداد درجة إحساسهم بالألم ويمكنهم الاستهانة به دون الشعور بالانزعاج. "الوسطيون" وهم بين المجموعتين السابقتين. ووجدت بيتري أن الخوف هو العامل الوحيد الذي يُعتبر أفضل وصف لأسلوب المبالغين "تجاه الألم".

في أثناء الحرب العالمية الثانية، درس هنري كي. بيتشير Henry K.Beecher حالة الجنود الموجودين في إيطاليا والذين جُرحوا في المعركة. ولدهشته، لاحظ أن واحداً من كل ثلاثة جنود ذوي الإصابات البالغة يطلب "المرفين". وقال الكثيرون إنهم لا يشعرون بألم أو يشعرون بألم بسيط. ويتناقض هذا النموذج بشدة مع ما رآه بيتشير كطبيب تخدير في الممارسة العملية: ٨٠٪ من هؤلاء المرضى، الذين يعانون من جروح تشابه تلك التي أصيب بها الجنود الذين طلبوا المورفين أو أي قاتل آخر للألم.

وللمورفين فعل السحر في البداية لتخفيف خوف المريض ومستوى قلقه. ومن الواضح أن مخاوف الجنود حل مكانها الشعور بالفخر بجراح المعركة أو لارتياحه إذ أنه ابتعد عن ميدان المعركة. واستنتج بيتشير ما يلي: "لا توجد علاقة مباشرة بين الجرح والألم الذي يشعر به الشخص. فهناك عوامل أخرى تقرر الشعور بالألم".

وبالنسبة لمعظمنا، يسهل علينا تعريف المخاوف التي تُصاحب المعاناة. فنحن نخشى اختبار الألم والمجهول. وقد نخاف الموت. هل أنا عبءٌ، على الآخرين؟ ما الذي أغفله؟ هل لديّ مستقبل؟ هل سأستعيد صحتي ثانية؟ هل أنا أعاقب بهذا الألم؟

والناس الذين يُعانون سواء جسديا أو نفسيا يشعرون بإحساس ضاغط بالوحدة. ويشعرون بأنهم متروكون من الله ومن الآخرين أيضاً، لأنهم يجب أن يتحملوا الألم بمفردهم ولا أحد يفهمهم. والوحدة تُزيد الخوف بداخلهم وهذا بدوره يُزيد ألمهم وهكذا تسير الأمور.

في إحدى الليالي، أحضروا واحدًا من المجموعة التي كنت أحضر اجتماعاتها لمدة عام والتي ذكرتها سابقا، أحضر هذا الشخص كتاباً مملوءاً برسومات رسمها أطفال مرضى. وعِبرَّت رسوماتهم وكلماتهم عن الخوف الذي بداخلهم. ورسم أحد الأولاد دبابة عسكرية كبيرة وقبيحة ومزودة بالأسلحة. وفي الجزء الأمامي من الدبابة في نهاية ماسورة البندقية، رسم شخصاً نحيلاً - هو نفسه - ممسكاً علامة مرور حمراء تقول "قف".

ورسم طفل آخر إبرة حقنة كبيرة وفي نهايتها سنارة. وطفلة أخرى تبلغ الثامنة من عمرها، رسمت نفسها وهي تستلقي على فراش المستشفى وكتبت التعليق "أنا وحيدة. وكنت أتمنى أن أكون في سريري. ولا أحب هذا المكان". وبعد بضع صفحات، رسمت نفس الفتاة رسماً آخر وهي في غرفة الطبيب وبها الكرسي وطاولة الفحص. ورسمت نفسها بحجم صغير للغاية وهي جالسة على طرف الطاولة وبالون كبير يخرج من فمها ومكتوب بداخله "أنا خائفة".

نزع سلاح الخوف

يمثل النصف الأول من هذا الكتاب محاولتي "لنزع" الخوف. فمعرفتي للألم وفهمي للدور الذي يلعبه في الحياة يُقلل الخوف. والآن أنا أرى الألم ليس كعدو أحاول التغلب عليه، بل كإشارة واقية أتكيف معها. وأنا أتعجب للتصميم الموجود بالجهاز العصبي. ولا أنظر للألم كبقعة ملوثة يجب أن أبيضها بل وكأن جسمي يكلمني عن موضوع ذي أهمية كبرى.

إن الألم هو أكثر الطرق تأثيراً والتي يستخدمها جسمي

لِلفت انتباهي. ولهذا، فأنا أبدأ بالإصغاء لألمي. والآن أنا أعرف قيمته وأشعر أن الخوف منه قد تناقص كثيراً. بل وأنشأ فيّ الشعور بالامتنان، وهو من أكثر الأسلحة العاطفية تأثيراً في محاربة الخوف.

وعلى مستوى آخر - المستوى الروحي - فإن دراستي للكتاب أقنعتني بأن حقيقة الألم لا تعني أن الله هو ضدي. فمن خلال يسوع، تعلمتُ بأن الله يقف بجانبنا. وقد دعاه الرسول بولس بحق "أبو الرأفة إله كل تعزية" (٢كو١: ٣).

إن الكتاب المقدس هو مرشد المؤمن، وأؤمن أنَّ حكمة الكتاب عن الألم تُقدم ترياقاً عظيماً للخوف. "فالمحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج". والمعرفة الشخصية لمحبة الله الكاملة تهزم الخوف كما يطرد النورُ الظلام. ولستُ بحاجة إلى مجهودات جبارة لكي "أستجمعَ إيماني". فالله مملوء بالمحبة التي تهتم بنا، ولست بحاجة لكي أضغط عليه من خلال ألعاب جمبازية روحية.

ويمتلك المؤمن مصادر كثيرة للتخلص من الخوف. وكما أن عاطفة الخوف تتسرب من المخ لتُحدث تغييرات نفسية مباشرة، كذلك يمكن للصلاة أن تقاوم نفس تلك الآثار بتثبيت انتباهي بعيدًا عن جسمي وتركيزه على نفسي وروحي. إن الصلاة تخترق الحمل الثقيل للإحساس وتساعدني على أن أتوجه إلى الله. وعندما يحدث ذلك، يهدأ جسدي. وتسترخي عضلاتي التي وترها الخوف. ويحل السلام الداخلي محل التوتر.

ويمكن تحقيق نفس هذه النتائج من خلال تمارين التأمل، ولكن الصلاة بكل تأكيد تمنح فوائد إضافية. إنها تساعد على محاربة الوحدة التي يسببها الألم بتحويل التركيز بعيدًا عن نفسي واحتياجاتي إلى الإهتمام باحتياجات الآخرين. وتذكر كيف أن رنين الأجراس حفّز جون دون على التفكير في جاره الذي مات بسبب الوباء.

وتُقدم التأملات التي كتبها دون نموذجاً رائعاً لمؤمن تعلم

كيف يتخلص من الخوف. وكما يوضح الاقتباس الذي ذكرناه سابقاً، فإن Donne يعرف الخوف جيداً. وقد حاربه معظم الوقت بمفرده، ففي تلك الأيام كان ضحايا مثل هذه الأمراض الخطيرة معرضين للحجر الصحي. وبينما كان مستلقياً على فراش المرض كان يتساءل ما إذا كان الله يشارك في هذا الحجر الصحي. أين وعد الله بالحضور؟

ولم يكن Donne خائفاً من خلايا الألم في جسده بل من الله. وسأل مرات عديدة "لماذا أنا بالذات؟". وكانت مباديء كالفن في ذلك الوقت في بدايتها، وتساءل عن ما إذا كان الله السبب في هذا الطاعون. وكان شعوره بالذنب من ماضيه الخاطي بمثابة شيطان قريب منه. وربما كان يعاني كنتيجة لبعض الخطايا السابقة التي ارتكبها.

وفي كتابه، لم يحل دون أسئلة "لماذا أنا؟" ولكنه في تأملاته، سجل خُطوةً خُطوة كيف تخلّص من مخاوفه. وعندما استبدت به هذه الأفكار، راجع في الكتاب المقدس كل مكان ظهرت فيه كلمة خوف. وبينما هو يفعل ذلك، تبادر إلى ذهنه أن الحياة سوف تشتمل دائماً على ظروف تبعث على الخوف: إن لم يكن المرض، فستكون المتاعب المادية، وإن لم يكن الفقر، فسيكون الرفض، وإن لم يكن الوحدة، فسيكون الفشل. وفي مثل هذا العالم، كان لدى دون اختيار: إما أن يخاف الله، أو يخاف من أي شيء آخر.

ويقول بولس في رسالة رومية (٨: ٣٨ - ٣٩) "فإني متيقن أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا قوات ... تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا". وتخلص دون من كل مخاوفه. الأعداء الكبار؟ فهم لا يمثلون أية تهديدات لأن الله قادر على إبادة أي عدو. المجاعة؟ كلا، لأن الله قادر أن يسدد كل احتياج. الموت؟ هذا الذي يخيف البشر، لم يعد عائقاً أمام الذين يخافون الله.

ويقرر دون أن أفضل طريق هو أن تخاف الله لأن هذا الخوف يمكن أن يستأصل أية مخاوف أخرى. وآخيراً يُصلي ويقول: "ياالله ... كما أعطيتني أن أتوب أعطني،

خوفاً، مما قد لا أخشاه". وهو يقصد أنه ليس مهما بالنسبة له سواء كان مرضه هذا تأديبيًا أم مجرد أمر طبيعي. ففي كلا الحالتين، هو يثق في الله لأن هذه الثقة تمثل الخوف الصحيح والمناسب من الله.

وفي كتاب "تأملات" يُشبِّه دون العملية كلها بتغيير موقفه من الأطباء. فعندما فحصوا جسمه لمعرفة أية أعراض جديدة وناقشوا ما توصلوا إليه بصوت منخفض خارج غرفته لم يستطع أن يمنع مخاوفه. ولكن في ذات الوقت، عندما رأى اهتمامهم الشديد، اقتنع بأنهم يستحقون ثقته فيهم. ويمكن أن نطبق نفس الشيء مع الله. فنحن غالباً لا نفهم طرقه أو الأسباب التي وراءها. ولكن هل هو "طبيب" موثوق فيه. ويقول دون نعم وبكل تأكيد.

ماهي الطريقة الصحيحة التي بها نتقرّب إلى إله نخافه؟ وكإجابةٍ على هذا السؤال، يقتبس دون العبارةِ التي قالتها النساء عندما ذهبن إلى قبر يسوع فوجدنه فارغاً: "فخرجن سريعاً من القبر بخوف وفرح عظيم..." (متى٢٨: ٨). يري فيهن دون الخوف والفرح، وهو النموذج الذي يُريد هو أن يتبعه (ساقان يسير عليهما الإنسان: الخوف والفرح).

خوف وُجد بكل تأكيد في وقت القيامة. وكيف لا يخافون إلهًا له هذه القوة العظيمة؟ وفي النهاية، التقت النسوة بيسوع الذي كان واقفاً على حافة البستان حياً ومُقاماً من الأموات. أمور غريبة حدثت. لقد هربن من المشهد بأرجل خائفة ولكنها أيضاً كانت فرحة بقيامة يسوع من الأموات. وبنفس هذا الرجاء، وجد جون دون آخيرًا الخوف الذي لا يحتاج لأن يخشاه.

الاستعداد لتقديم المعونة (متيسر - متاح)

عندما لا أكون أنا المتألم بل شخصٌ آخر وأنا أريد مساعدته، هنا يختلف الموقف. ما الذي يمكنني أن أفعل لكي أخفف من مخاوفهم؟ وقد تعلمتُ أن الاستعداد لتقديم

المساعدة هو أعظم قوة يمكن أن نشارك بها لتهدئة مخاوف الآخرين.

وأنا من طبيعتي أنني أتراجع (في ألم وذعر) عندما أرى أناساً متألمين. من يستطيع أن يعرف سواء كانوا يريدون الحديث عن ضائقتهم أم لا؟ هل هم بحاجة إلى مواساة؟ ما مدى فائدة وجودي معهم؟ وأفكر في كل هذه التساؤلات، وكنتيجةٍ لذلك، أتصرف أسوأ تصرف: أبتعدُ بعيدًا.

وأكرر مرةً ومرات بأن الناس المتألمين - وخاصة أصدقائي الذين التقيتُ بهم في المستشفى لمدة عام والذين ذكرتهم سابقاً - أكدوا لي مدى الأهمية الكبيرة عندما يكون الأصحاء متاحين وعلى استعدادٍ لتقديم المعونة. إنهم ليسوا بحاجة إلى كلماتنا أو نصائحنا بل إلى مجرد وجودنا. فوجدونا بجانبهم في وقت الحاجة، يبعث فيهم نفس الشعور بالراحة الذي يبعثه الوالدان لطفل مضطرب ومجروح عندما يقولون له: "ستكون على مايرام لا تخف" (الحياة ستستمر. وإنا معك في هذا الظرف المزعج).

يحكي لنا توني كامبول Tony campole عن قصة ذهابه إلى جنازة ليقدم التعزية لأسرة من معارفه. وبطريق الخطأ، ذهب إلى قاعة تعزية غير التي كان يقصدها. وهناك رأى جسد رجل عجوز وكانت أرملته هي الحاضرة الوحيدة. وعندما رأى أن المرأة تشعر بالوحدة، قرر أن يبقى معها بل وذهب معها إلى المدافن.

وعند نهاية خدمة الدفن، رجع مع الزوجة الحزينة واعترف لها أنه لا يعرف زوجها. فقالت المرأة "وأنا أيضاً لا أتذكرك. ولكن هذا لا يهم. إنك لا تعرف مدى أهمية وجودك معي في هذا الظرف" وسلمت عليه بحرارة شديدة.

وقد ذكرتُ سابقاً أن لا أحدٍ يُقدم اسم فليسوف عندما أسأل السؤال: "من الذي ساعدك أكثر؟" وفي معظم الأحيان، يجيبون بأنه الشخص الهادئ. شخص ما متواجد عند الحاجة إليه، الذي يستمع أكثر مما يتكلم، الذي لا يستعجل

وينظر إلى ساعته كل لحظة، الذي يحضن المريض أو الحزين أو المتألم ويتلامس معه، وعند الضرورة يبكي معه. وباختصار شخص على استعداد لتقديم المساعدة في أي وقت وبحسب حاجة المحتاج.

ذكرت إحدى السيدات المريضات بالسرطان جدتها. وقالت عنها إنها سيدة خجولة وليس لديها ما تقدمه إلا الوقت. فهي تجلس على الكرسي وتقوم ببعض أعمال الإبرة بينما حفيدتها نائمة. ولكنها على استعداد لأن تتحدث أو تحضر كوب ماء أو تُجرى مكالمة تليفونية. وأضافت الحفيدة قائلة: "كانت الإنسانة الوحيدة التي تناسب ظروفي. وعندما أستيقظ منزعجة، أشعر بالأمان عندما أراها بجواري".

ونحن بحق نلوم أصدقاء أيوب الثلاثة لأنهم لم يراعوا مشاعر أيوب أثناء معاناته. ولنقرأ ما كتبه الكتاب المقدس عنهم: ".. قعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ولم يكلمه أحد بكلمة.." (أيوب٢: ١٣). واتضح أن تلك المُدَّة كانت أبلغ اللحظات التي قضوْها معه.

وللشعب اليهودي تقليد يُسمى شيفا Shiva يمارسونه بعد الموت في مجتمعهم. فيقوم الأقرباء والأصدقاء والجيران بكل أعمال المنزل (بيت الجنازة) لمدة ثمانية أيام. فيُعدون الطعام ويُنظفون المنزل ويفرضون وجودهم على أهل الفقيد. وقد ينزعج أهل المنزل من هذا التصرف وكثرة عدد الضيوف لأنهم بحاجة إلى الراحة والهدوء. ولكن لهم رسالة يُريدون أن يقولوها لهؤلاء الحزانى: لن نترككم بمفردكم. نحن نشارككم أحزانكم. وهم بذلك ينزعون الخوف من قلوبهم.

وفي مأدبة رمزية يقوم الزوار بإطعام أهل الفقيد كما لو أنهم أطفال. وقد نقلوا هذه العادات والتقاليد في ثقافتهم عبر الأجيال ليقولوا للحزانى نحن في خدمتكم ومتاحون لكم في أي وقت لأن الحزين يحتاج لحضور الآخرين سواء اعترف بهذا أم لا.

يُحكى أن بيتهوفن الموسيقي العالمي المشهور لم يكن اجتماعيًا بطبعه. ولأنه كان أصم فقد سبب له هذا الكثير من المتاعب. وعندما علم بوفاة ابن أحد أصدقائه، أسرع إلى منزله. لم تكن لديه أية كلمات تعزية لكي يُقدمها. ولكنه رأى بيانو في الغرفة، فجلس إلى البيانو. ولمدة نصف ساعة، عزف على البيانو معبرا عن كل مشاعر الحزن والمشاركة لصديقه ثم غادر المكان. وعلق هذا الصديق قائلاً إن زيارة بيتهوفن لي كانت أهم زيارة وتعني الكثير بالنسبة لي.

وكلاء الله

بالإضافة إلى التواجد الشخصي، ماهو الشيء الآخر الذي يمكن أن نقدمه؟ وما الذي يمكن أن نقوله في مثل هذا الظرف؟ لقد حصلت على إجابة نفس السؤال من الناس المتألمين الذين قالوا: ليس ما يُقال هو ما يهمنا، بل أن يكون الشخص مُتاحًا. فإن تمكنا من الاستماع إليهم، فسوف يكون هذا أعظم هدية يمكن أن نقدمها.

كتبت بيتسي بورنهام Betsy Burnham في كتابها قبل موتها بالسرطان عن أفضل الخطابات التي تلقتها أثناء مرضها وهو التالي:

عزيزتي بيتسي

أنا خائفة ومتحيرة. فمع مشاكلك التي تواجهينها، أي حقٍ لي في أن أخبرك بأنني خائفة؟ لقد وجدت عذراً بعد الآخر لعدم مجيئي لرؤيتك. وكنت أتمنى من كل قلبي أن أحضر لمساعدتك أنت وأسرتك. وأود أن أكون نافعة ومتاحة لكم. وأمنيتي أن أقول الكلمات التي تساعد على تحسن حالتك. ولكنني مازلت خائفة. ولم أكتب شيئاً مثل هذا من قبل. أرجو أن تفهميني وتسامحيني.

ـــــ المخلصة آني

لم تكن لدى آني الإمكانية الشخصية التي تحتاج إليها لكي تكون بجوار صديقتها. ولكنها على الأقل شاركت مشاعرها الصادقة مع بيتسي وانتقدت تقصيرها. وهذه أيضاً صورة من صور المشاركة.

إمرأة أخرى كانت تفكر في الخطابات التي تلقتها هي وزوجها وسط مأساة أسرية وقالت لي إنه بالرغم من أن الخطابات لم تكن بالرقة المطلوبة لهذه المناسبة، إلا أنها كانت تعني الكثير بالنسبة لنا. وقد اعتذر الكثيرون عن عدم معرفتهم كتابة الكلمات المناسبة ولكن مجرد مشاركتهم بالخطابات كان هو ما تحتاجه الأسرة في هذه الظروف.

ويتوقع الشخص المتألم منك نفس الصداقة التي كانت لك من قبل. فالصداقة القوية نادراً ماتنشأ بين المتألمين والغرباء. وبدلاً من ذلك، فإن المحنة تجبرهم على العودة إلى العلاقات التي بنوها وهم أصحاء. قدم نفس الصفات التي شاركتها وأنتِ بصحتك. فإن كنتِ بطبعك مرحاً وتُطلق النكات، فلتفعل هذا. وإن كانت عادتك أن تقرأ الكتاب المقدس وتُصلي معهم، فلتفعل ذلك. وإن كنتِ معتاداً على الأحاديث الخفيفة والدردشة، فابدأ بذلك ثم انتقل إلى ما تُريد قوله. لقد تغير كل شيء في عالم الشخص المريض، وهو يحتاج إلى التأكيد بأن الصداقة لم تتغير. إن قيود الوقت تضع لنا حدوداً، وليس بإمكاننا جميعًا أن ننَحي مسؤلياتنا جانبًا ونُعطي الكثير من الوقت للآخرين. ولكن باستطاعتنا جميعاً أن نُصلي، وهذه صورة قوية من صور المعونة المتاحة. كما يُمكننا أن نُبدي علامات الاستعداد للرعاية. فالمتألمون يقولون إن الخوف والوحدة يتسللان إليهم في فترات غير متوقعة، وأنَّ الانتظام في السؤال عنهم أهم من مقدار الوقت الذي يُعطيه الشخص لهم. وأصبح الانتظام في السؤال هامًا للغاية خاصةً لمن يُعانونَ من أمراض مزمنة ولفترات طويلة مثل مرض باركنسون.

وأخبرني أحدهم بأن أكثر الأشخاص قرباً منه أثناء مرضه الطويل هو زميل له في العمل والذي كان يطلبه

بالتليفون يوميا لمجرد سماع صوته والسؤال عنه. وكان يزوره مرتين أسبوعياً ولا تتعدى الزيارة ١٥ دقيقة، ولكن الاستمرارية في السؤال بالتليفون والزيارة الأسبوعية كانت هي الأهم بالنسبة له خاصة وأن كل شيء آخر لم يعد مستقراً أو ثابتاً.

وبالطبع، هناك حدود لما يمكن أن تقدمه الصداقة. وقد يضع المتألمون أمامك بعض الحواجز. فقد يقولون: "أنت لا يمكنك أن تفهم .. أنت لم تعش مثل هذه الظروف التي نمرّبها..". وفي مثل هذه الحالات، إذا كان الشخصُ قد عاش ظروفاً مشابهة، يمكن أن يساعدهم وخاصة مع مشكلة الخوف.

لقد تخلصت جوني إيريكسون تادا من حالة رثاء الذات بعد زيارة لها بالمستشفى قام بها شخص مرح ومتألق بالرغم من معاناته من شلل رباعي. ولم يكن هناك أي ثمر للأب دامين Damien من خلال عمله بين مرضى البرص في مولوكي بهاواي إلى أن أصيب هو نفسه بالمرض، وعندئذٍ استطاع التواصل معهم كمريض صديق. وعندما عرفوا هذا المبدأ، بدأت المستشفيات تتعاون مع برامج يستضيفون فيها السيدات اللاتي يتعرض لاستئصال الثدي لكي يتلقوا "المشورة" من آخريات اجتزن نفس التجربة.

والمجموعة التي التقيتها سابقاً والتي تُسمى "Make Today Count" تنفذ هذا البرنامج. وأدرك مؤسس هذا البرنامج الذي يُدعى DrvilleKelly أنَّ لاأحد يمكنة أن يقدّر مخاوف المريض بالسرطان إلا مريض آخر مثله. وكنتيجةٍ لهذا، نظّم أول شبكة تعضيد للناس الذين يعانون من الأمراض القاتلة. والآن، ترعى جمعية مرضى السرطان الأمريكية الرد على المكالمات طوال ٢٤ ساعة يومياً للرد على استفسارات مرضى السرطان وإرشادهم.

وأولئك الذين لا يشعرون أن لديهم مهاراتٍ خاصة لا داعي لأن يشعروا بأنهم بلا فائدة. فلا يوجد ماهو أكثر قيمة للمتألم من الحضور الشخصي معه والذي يبعث فيه

الراحة والطمأنينة والأمان. ودعني أقول الكلمات التالية بكل حذر. إنني أؤمن أننا نحن كأعضاء في جسد المسيح مدعوون أن نُظهر المحبة عندما يبدو أن الله لا يُظهر ذلك.

وفي غالب الأحيان، يشعر المتألمون أن الله قد تركهم. وقد عبَّر سي. إس. لويس عن ذلك أفضل تعبير بعد وفاة زوجته. وقال إنه في اللحظة التي كان يشعر فيها بأشد الحاجة إلى الله - الذي كان معه دائماً - فجأة بدا وكأنه غائب تماماً. وشعر لويس بالخوف والوحدة، وفي النهاية، ساعده المؤمنون لأن يستعيد علاقته مع الله.

تذكر أيضاً، أنَّ الدراسات الكتابية هي التي رفعت كوري تن بووم وهي في معسكرات الاعتقال النازية، كما أنَّ الآية التي دسها الغريب في جيب كريستيان ريجير هي التي شجعته. إن الله أعلن عن ذاته من خلال وكلائه وشهوده الآخرين. وبالمثل، نحن الذين نقف جانباً يجب، أن نرفع صلواتٍ من أجل المتألمين الذين قد لا يستطيعون الصلاة. ففي لحظات الألم والمعاناة والحزن الشديد، تُدرك محبة الله في أفضل صورها من خلال أعضاء جسد المسيح لأناس بسطاء مثلي ومثلك. وبهذه الطريقة، نحن نمارس العمل المطلوب منا كجسد المسيح.

"قال الطبيب: إن هذا وذاك يوضحان أن هذا وذاك خطأ بالنسبة لك، ولكن إذا حللنا هذا وذاك ولم يؤكد التحليل تشخيصنا، فنحن يجب أن نشك في أنك تعاني من هذا وذاك... وهكذا. وكان إيفان إليتش يريد الإجابة على سؤال واحد: هل حالته خطيرة أم لا؟ ولكن الطبيب تجاهل هذا السؤال واعتبره أنه غير متصل بالموضوع".

— ليو تولستوي،

موت إيفان إليتش "The Death of Jvan Jlyich"

١٥

العجز

استخدم د. كورت ريتشتر Dr. Curt Richter وهو طبيب نفسي متخرج من جامعة هوبكنز فأرين في تجربة غريبة بعض الشيء. أسقط الفأر الأول في وعاء به مياه دافئة وضبط التوقيت لمعرفة رد فعله. ولأن الفئران تسبح بطريقة جيدة، استمر الفأر في السباحة لمدة ستين ساعة قبل أن يغرق ويموت.

وأضاف د. ريتشتر خُطوةً جديدة عند استعماله للفأر الثاني، إذ أمسك الحيوان بيده بشدة لعدة دقائق إلى أن توقف عن المقاومة ثم ألقاه في الماء، ولاحظ أنه تصرف بطريقة مختلفة عن الفأر الأول. فبعد أن سبح لبضع دقائق غطس دون أن يبذل أي مجهود ومات. واستنتج د. ريتشتر أنه "استسلم". حيث أنه وجد أن لا جدوى في التجديف

واقتنع أن مصيره اليأس حتى قبل أن يحاول ولو لفترة أطول. ومات الفأر الثاني لشعوره بالعجز والضعف.

وأوضحت تجارب أخرى أن الشعور بالعجز مثل الخوف يمكن أن يغير الحالة النفسية. فقد عرّضوا مجموعتين من الفئران لنفس الصدمات الكهربية. وجدوا أن المجموعة الأولى - التي لديها قدر (مقياس) من التحكم، تعلمت بسرعة أن تُطفيء التيار باستخدام رافعة. أما المجموعة الثانية، فلم تكن لديها هذه الرافعة، وبعد فترة بسيطة حدثت لهم تغيرات أساسية في جهاز المناعة بالدم وأصبحوا أكثر عرضة للمرض من المجموعة الأولى.

وبالمثل، فالتجارب على البشر أظهرت أن الشعور بالعجز والضعف يُغير ليس فقط موقف الشخص النفسي بل وأيضاً قدرته الفعلية على الإحساس بالألم. فبداية الألم يمكن أن ترتفع بنسبة ٥٥٪ بواسطة انحرافات تكتيكية بسيطة.

وفي سلسلة من التجارب حاول الباحثون أن يحولوا انتباه من يُجرون عليه التجربة بواسطة رنين الأجراس، أو لمس اليد عدة مرات، أو قراءة قصة مغامرة بصوت مرتفع، أو أن يقرأ هو عامودًا من الأرقام. وعندما استخدم العلماء مثل هذه الوسائل أثناء عمل اختبار القدرة على احتمال الحرارة، سلطوا نسبة ٤٥٪ زيادة في الحرارة ليلاحظوا مدى القدرة على تحمل الألم. واندهش الباحثون عند رؤيتهم قُرحًا متورمة على ذراع الشخص الذي يُجرون عليه التجربة عندما يركز في العدد من ٥٠: ١ (عكسي). وعلى الجانب الآخر، عندما كان الشخص لا يفكر إلا في ألمه (تماماً كما يحدث في المستشفيات وأماكن المُسنين) ظهرت عليه حساسية أكبر.

فقدان الإحساس بالمكان

تحدثت المجموعة "Make Today Count" عن الأعراض المتزامنة التي تسبق الإحساس بقرب قدوم

الموت إذ تنشأ حالة من الشعور بالعجز. وتزداد هذه الحالة عندما يحاول الأقارب والأصدقاء التخفيف عن الشخص الذي قارب على الموت ليجعلوا حالته في الشهور الأخيرة أكثر احتمالاً. وتبدأ الاغراض في الظهور. عندما يسمع تعليقات مثل: "لا يجب أن تفعل هذا الأمر. أنا أعلم أنكِ كنتِ تأخذ الزبالة للخارج ولكن لا تفعل هذا ثانية .. سأقوم أنا بهذا الأمر". أو "لا تُثقل على نفسك بالتفكير في الأمور المالية. فسأهتم أنا بذلك من الآن. "أو "أعتقد أنه من الأفضل لك أن تمكث في المنزل لأن مقاومتك للمرض قد ضعفت".

وتدريجياً، يتوارى دوره في الحياة وإحساسه بالمكان. وقد يحدث أن أمًّا تشجع ابنتها الوحيدة لأن تبيع بيتها وتعود مرة أخرى للعيش معها. وتُنفذ الابنة هذا الكلام، ولكنها تكتشف أنه من خلال قصد والدتها مساعدتها أنها فقدت استقلاليتها وهويتها. إن الإحساس بالقدر والقيمة يهتز بالمرض ويتوارى تدريجياً. وذات مرةٍ، قال لي أحدهم:"طوال حياتي كنت أشعر بثمرة عملي - درجاتي بالمدرسة، تقدير أدائي في العمل، المديح الذي كنتُ أحصل عليه من المدرب الرياضي. وفجأة أصبحت لا أملك ما يستحق أن أقيمَّ أداءه في الحياة".

ومن الواضح أن الشخص المريض يحتاج إلى الاعتماد على الآخرين لمساعدته على تأدية احتياجاته. ولكن كما علمت من أعضاء مجموعة "Make Today Count" أننا نحن الذين يجب أن نساعدهم، قد نقضي على كل ما يُشعرهم بالإحترام. وقال د. إريك كاسيل Dr. Eric Cassell عن مرضاه، "إن أردتُ أن أستنتج العنصر الذي يُدمر حياة المريض ويُؤثر عليه تأثيراً للغاية فهو فقدان السيطرة".

إن لدى المتألمين شكوكًا عن مكانهم في العالم. فغالباً ما يتوقفون عن العمل، ويعانون من آلام المرض والعلاج. ومع ذلك، فهم مثل كل البشر، يحتاجون إلى الشعور والتأكيد أن لهم مكاناً، وأن لهم دورًا في هذه الحياة التي

قد تتوقف لو هم ذهبوا، وأن دفتر شيكاتهم سوف يتأثر إن لم ينتبهوا هم لذلك. وعلى الأصدقاء الحكماء أن يراعوا الفرق بين تقديم المساعدة المطلوبة والمساعدة الزائدة التي قد تضر المريض.

وتهتم المجتمعات الحديثة بمشكلة شعور المريض بأن ما زال له مكان بينهم. لأننا نُبعدهم عن أنظارنا ونضعهم في المستشفيات أو أماكن رعاية صحية أخرى. وبذلك هم يرقدون في فراش المرض ولا يشغلهم أي شئ إلا جهاز التحكم من على بعد ليُغيروا قنوات التليفزيون. إنهم يعيشون طبقاً لنظام يضعه الآخرون وليس نظامهم الذي يريدونه: فتوقظهم الممرضة، وتُقرر المستشفى موعد أكلاتهم، ثم يأتي الزوار، وأخيرًا، تُطفي الممرضة النور ليلاً وينامون. (ولهذا السبب، يُفضل كثيرون من المرضى أن يتصل الزائر قبل أن يأتي لأن هذا يُشعرهم أن لهم دورًا في نظام حياتهم).

أجريتُ مرة نوعاً من الدراسة على البطاقات التي تُرسل في المناسبات المتعددة وذهبتُ إلى أماكن بيعها لأتصفحها. فوجدتُ أن البطاقات التي تُرسل للمرضى يمكن تصنيفها إلى بطاقات بها صور لأزهار، وبعض من الشِعر، بطاقات ذات رائحة ذكية، بطاقات بها عبارات رائعة للمواساة، بطاقات بها رسوم الكارتون. وكلها تشترك في العبارة "نتمنى لك الصحة".

وعلى الغلاف الخارجي لأحد البطاقات مكتوب "أتمنى لك الشفاء العاجل" وفي الداخل "وإلا فشخص آخر سوف يسرق وظيفتك". وبطاقة أخرى: "الكل يتمنى أن تتحسن بسرعة ماعدا أنا" وفي الداخل أكمل بالقول "فإني أرجوا أن تتحسن الآن وفورا" وأخرى تقول: "ليس هذا وقت المرض فالراحة الأسبوعية قاربت" وبطاقة أخرى: "لم يعد لك فائدة. وأنت لا تصلح لا في العمل ولا في الحفلات. أنت لست على مايرام. أستعد صحتك لكي تتمكن من العودة إلينا".

إن أصدقائي في مجموعة "Make Today Count"، ليس محتملاً أن يُشفى أحدٌ منهم، وأكدوا لي أن بطاقات التحية تلك تعمق الشعور المدمر بأنه لا مكان لنا ولا دور في هذه الحياة.

وفي بعض الأحيان، أحلم بإنتاج بطاقات تحية من عملي أنا. ولديّ فعلاً فكرة البطاقة الأولى. سوف يكون على الغلاف الخارجي حروف كبيرة وفي خلفيتها ألعاب نارية تقذف التهاني !!! وفي الداخل الرسالة التالية: ".. إلى ٩٨ خلية في جسمك والتي ما زالت تعمل بسلاسة وكفاءة".

وسأبحث عن طرق لتوصيل رسالة للشخص المريض بأنه ليس مريضاً، ولكنه شخص ذو قيمة وكل ما لديه هو أن بعض أجزاء جسمه لا تعمل جيداً. وربما تكون محاولتي لكتابة مجموعة من البطاقات مثل هذه ستساعدني على التغلب على تفكيري الذي يُصنف الناس إلى مرضى ومعافين، وهذا يعقد معركتهم ضد العجز والضعف.

العالم اللاهوتي جورجين مولتمان Jurgen Moltmann في حديثه إلى الشماسات الألمانيات المشاركات مع المعاقين، هاجم التمييز والفصل بين الأصحاء والمعاقين وقال: إنه في الحقيقة لا يُوجد ما يُسمى بحياة معاقة، ومجرد فكرة الصحة المثالية التي صنفها المجتمع للقادرين تُدين مجموعة معينة من الناس والتي سميناها بالمعاقين. وعرَّف مجتمعنا الصحة بطريقة تحكمية عندما قال إن الصحة هي القدرة على العمل والقدرة على التمتع ولكن "الصحة الحقيقية هي شيء مختلف تماماً. إنها القوة على الحياة والمعاناة والموت. والصحة ليست حالة معينة يكون عليها الجسد، إنها قوة النفس للتكيف مع الحالة المختلفة لهذا الجسد". وبهذا المفهوم تكون حياة كل إنسان محدودة وقابلة للجرح وضعيفة.

صد الهجوم

شن نورمتن كوزينز Norman Cousins - الذي كان

محررا لفترة طويلة لصحيفة Saturday Review- هجوما عنيفاً ضد الأنظمة الحديثة للرعاية الصحية التي تُشجع على العجز والضعف. وعندما حُجز بالمستشفى بسبب حالة غامضة من الشلل الزاحف، وجد أن المستشفى صمم بطريقة كاملة لتشل حركة لا الجسم فقط بل والروح أيضاً. وكتب في كتابه "عِلْمُ تشريح الأمراض Anatomy of an Illness": "إن إرادة الحياة ليست أمراً نظرياً ولكنها حقيقة نفسية بصفات علاجية". ولكن بيئة المستشفى تعيق هذه الإرادة للحياة.

تسبب العلاج الطبي في فقد نورمان لوعيه بالحقيقة. وبقائه في السرير لفترات طويلة سلب من الراحة وأصابه بالاكتئاب. واقتحم الأطباء والممرضات جسده بالثقوب وسرقوا كل مافيه من سوائل. ولعدم قدرته على العمل وانقطاعه عن علاقاته الوثيقة بالناس، شعر بفقدان التحكم في مصيره.

وحاول كوزيز أن يعرّف العقبات التي تواجهه وسجلها كالتالي:

أول شئ هو الشعور بالعجز والضعف ـ وهذا مرض خطير في حد ذاته.

شعور خفي بالخوف من عدم العودة مجددًا لأن يعمل بطريقة عادية...

رفض فكرة أن يعتبروه إنسانًا شاكرًا.

وجود رغبة في عدم إضافة عبء جديد على الأسرة وهذا يدفع إلى العزلة.

وجود صراع بين رعب الشعور بالوحدة والرغبة في أن تكون بمفردك.

الحاجة إلى التقدير الذاتي ـ فالمرض يُظهر عدم قدرتنا أو كفاءتنا.

الخوف من التكنولوجيا المتسللة وتسجيل كل ما

يخصك من معلومات على قاعدة معلومات وقد لا نتمكن ثانيةً من استرداد وجوهنا.

رفض الغرباء الذين يأتون إلينا بالإبر والزجاجات ويضعون المواد في عروقنا وآخرون يأخذون من دمائنا أكثر مما نستطيع تقديمه بحسب تفكيرنا.

الحزن الناجم عن استخدام الكرسي المتحرك والسير عبر الممرات البيضاء إلى المعامل ومواجهة الآلات والأضواء ...

الحرمان من دفء العلاقة الإنسانية.

البسمة الدافئة واليد الممدودة الحانية أكثر قيمةً مما يقدمه العلم الحديث ولكن الآخير أسهل منالاً من الأول.

وعرف نورمان كوزنز أن الأطباء لا يستطيعون "شفاءه"، وأقصى ما يستطيعون عمله هو أن يُقللوا من نشاط الخلايا في جسمه. ولكنه شعر بأن النشاط والحيوية يقلان. وفي محاولة لاسترداد السيطرة على مصيره وانعاش إرادته للحياة، بدأ حملة ضد العجز والضعف. وكما يقول في كتابه إنه استخدم طرقاً وتكتيكات غير تقليدية.

أولاً وضع كوزنز لافتة على باب حجرته يحدد فيها للعاملين بالمستشفى عدم أخذ عينات من الدم إلا مرة واحدة كل ثلاثة أيام. وكانوا يأخذوا عينة دم منه أربع مرات في اليوم وتوزع على كل الأقسام بالمستشفى. وقد بدا هذا الأمر بالنسبة لهيئة المستشفى أنه نوع من الثورة والتمرد من أحد المرضى ولكنه اعتبره أمرًا مهمًا لتأكيد سيطرته على جسده.

واستعار كوزنز جهاز عرض أفلام ووضع جدولاً كل يوم لمشاهدة أفلام Marx Brothers، Charlie Chaplain. وقال في نفسه إنه طالما أن العواطف السلبية ينتج عنها تغيرات كيميائية ضارة في الجسم، فربما يمكن مواجهتها بالعواطف الإيجابية. وقال: "لقد اكتشفت اكتشافا

مرحا، إن عشر دقائق من الضحك القلبي سوف تحررني من الألم وتساعدني على النوم لمدة ساعتين".

وحالما شعر بتحسن في صحته، انتقل كوزنز لغرفة بالفندق الملحق بالمستشفى. وإن كان هذا الأمر كلفه أكثر قليلاً، إلا أنه تمتع ببيئة أفضل، وأعطاه الفرصة لأن يضع جدول وجباته بنفسه، أن يوقظوه في الوقت الذى يحدده شخص آخر.

ومع أن كوزنز يُحذر الآخرين من اتخاذ نظامه هذا كنموذج لهم، إلا أن النتائج كانت مؤثرة وعظيمة. وفي البداية، قال له الطبيب إنه هناك نسبة واحد بين كل ٥٠٠ مريض بالشلل يُشفى تماماً، ولكن بعض حالاتٍ من الشلل لا يُمكن تفاديها. ولكنه شفيّ تماماً، وامتدت حياته لفترات طويلة سعيدة، وانشغل بعمل جديد وهو إلقاء محاضرات في الأمور الصحية.

لم يعد عاجزاً أو ضعيفاً

إن التغيرات التي اقترحها كوزنز تتطلب مراجعة كاملة ودقيقة من قِبل الأنظمة الصحية، وإن كنتُ لا أتوقع أن يحدث هذا قريباً. ولكن يُمكننا أن نقوم ببعض الخطوات الصغيرة نحو هدف "النظرة الإنسانية" للرعاية الصحية، لنساعد أنفسنا كمرضى لكي لا نشعر أننا مجرد رقاقة أو شريحة في الكمبيوتر بل مشاركين في عملية الشفاء.

وتبدو بعض الحلول سهلة. ففي دراسة أجريت في عام ١٩٨٤ بمجلة Science وجد Reger S. ulrich أن مرضى المرارة الذين ينظرون إلى مجموعات من الأشجار بدلاً من النظر إلى حوائط من الطوب يتعافون بسرعة ويتعاطون أدوية أقل. وأقترحُ بأن تُبنى المستشفيات بالقرب من الحدائق العامة أو المناظر الطبيعية. وبمرور الوقت، تنبه المهندسون إلى عوامل البيئة ومدى أهميتها عندما يصممون المستشفيات أو المنتجعات الصحية.

وفي محاولة لاشتراك المرضى في مقاومتهم للعجز

والضعف والمرض، تقوم بعض العيادات بمناقشة "عقود" مع مرضاهم. أولاً، يطلبون من المريض أن يوضح أهدافه: يتعلم المشي، يرفع ذراعه إلى أعلى بدون ألم، أو أن يحصل على وظيفة نصف الوقت. ثم يقسمون هذه الأهداف إلى مراحل أسبوعية: الوقوف لمدة ٥ دقائق ثم ١٠ دقائق، السير في الغرفة بمساعدة العصا ثم بدون عصا. ويسجل المسئولون مدى تقدم المريض أسبوعياً، ويشجعونه بحماس على كل إنجاز يحدث.

ولكن لماذا نعتمد على المحترفين الذين يأخذون أجراً على مثل هذا التشجيع؟ فالأصدقاء والأقارب يمكنهم أن يقوموا بهذا الدور بعمل "اتفاق" مع المريض ومكافأته على كل إنجاز يتم ومن ثم مساعدته على التغلب على ضعفه.

ويمكننا أيضاً أن نتأكد من أن لدى المريض تحولاتٍ ذاتِ معنى ومفيدة. فمثلاً شعوره بالضعف والعجز يرتفع عندما يكون منعزلاً فلا يفكر في شيء سوى الألم. ولا يمكنني أن أتخيل مكاناً يحارب الألم أكثر من غرفة المستشفى. ومع ذلك، ففي هذه البيئة الجافة يمكن أن نجد مصادر للتغيير والتحول.

وفي المستشفيات يهتمون بالتفاصيل الصغيرة. فبدلاً من أن تشرب مقدارًا كبيرًا من كوب الماء، عليك أن تبتلع الماء ببطء لتشعر بطعم الماء في فمك. ويجب أن تحملق في الزهور التي في غرفتك وتفكر في أشكالها المختلفة. ويجب أن تحرك يدك على ملاية السرير وتتحسس نسيجها.

ويمكن للروح الإنسانية المرنة أن تجد طرقاً غير عادية لمحاربة الوحدة والحرمان. وحدث أن اختطف المسلمون الشيعة المرسل المشيخي في بيروت بلبنان بنجامين وير Benjamin Weir وظل محبوساً لمدة ١٦ شهراً في ظروف مؤلمة وكئيبة. فلم ير أشجاراً من الشباك المغلق معظم الوقت. وكانت يداه مقيدتين، ولم يتمكن من لمس أي نسيج.

ولم يتمكن وير من أن يطلب طعاما معينا أو أي شيء آخر طوال اليوم. ومع ذلك، وهو في مثل هذه الظروف الصعبة، تمكن من أن يستدعي مخزونًا من القوة الروحية بداخله ليتغلب على هذا العجز المُميت. لم يكن لديه من يدعوه أو يطلب منه إلا الله نفسه. وكتب التقرير التالي في الفترة الأولى من اختطافه: "أشعر بانتعاش بعد استيقاظي من فترة نوم قصيرة للغاية.

ماهي العطايا الأخرى التي سيعطيني إياها الله بالإضافة إلى النوم، والحصيرة التي أنام عليها وروح المقاومة والإصرار على الحياة؟ ومرة أخرى رُفعت العُصابة من على عيني وبدأت أتفحص الغرفة. ما الذي يوجد هنا يستطيع أن يقربني من حضور الله الذي يقويني؟ أطلقت لخيالي العنان.

عندما تطلعتُ إلى فوق، نظرتُ إلى السلك الكهربائي المعلق في السقف. وقد أخذوا اللمبة والفيشة وتركوا الأسلاك عارية وبدت لي وكأنها ثلاثة أصابع. وأستطيع أن أرى يداً وذراعاً ممتدة نحوي مثل تلك التي رأيتها في Sistine Chapel في روما والتي رسمها مايكل أنجلوا ويد الله الممتدة إلى آدم وهو أول كائنٍ حي. وهنا، رأيتُ الله يتجه نحوي ويُذكرني قائلاً: "أنت حي، أنت لي. لقد خلقتك ودعوتك لهدف سماوي".

ماذا أيضاً؟ بدأت أعد أخشاب الشيش المثبتة في الأبواب. وكان عددها ١٢٠. ماهو الرمز الذي تشير إليه هذه القطع الخشبية؟ جمهور، سحابة شهود في الماضي والحاضر الذين أثناء الاضطهاد والمحاكمات اختبروا أمانة الله ... وبعث فيّ الإيمان قشعريرة روحية. يالها من رسالة رائعة كنتُ أحتاج إليها بشدة فيما أنا فيه.

ثم رأيتُ دائرتين ذات لون أبيض بالقرب من سقف

الحجرة، واحدة على اليمين والأخرى على اليسار. وكل واحد في لبنان يعرف ماهي، إنها أغطية بلاستيكية للتوصيلات الكهربائية. ولكن ماذا تعني بالنسبة لي؟ هل هي مثل الأذنين؟ أذني الله. الرب الذي يسمع أنات القديسين "استمع لي ياالله، إنني أسلم نفسي لإرادتك ورعايتك".

وفي نهاية اليوم، بدأ وير يرنم الترنيمة "عد بركات الله الكثيرة واحدة تلو الأخرى". وبدأ يعد: الصحة، الحياة، الطعام، الحصيرة، المخدة، الملاية، زوجتي، أسرتي، الإيمان، الرجاء، الصلاة، يسوع، الروح القدس، محبة الله. وكان العدد ٣٣. وبعد عملية العد ومراجعة هذه البركات، ذهبت عنه مشاعر الخوف والضعف. وعندما غاب الضوء من خلال الشيش، استرخي وبدأ يستعد للنوم.

إفتقاد الآخرين

وهو على حدود العجز والضعف حارب كوزنز معركته ضد مؤسسة طبية متبلدة الإحساس. كما حارب بنجامن وير معركته الداخلية وهو وحيد ومنعزل ضد الوحدة واليأس. وأفضل شيء يمكن أن نقدمه لأولئك الذين يعانون من العجز لفترة طويلة هو أن نمدهم بالأدوات التي تساعدهم على أن يستأنفوا نشاطهم "العادي".

فالشخص الذي يُعاني من شلل كلي يمكنه بمساعدة أجهزة مبرمجة بالكمبيوتر أن يسير على كرسي متحرك، أو يشغل تلفزيون أو ستريو. ومثل هذه الأجهزة يمكنها أن تُظهر الفرق بين مشاعر العجز والأمل وبين الشفاء والهزيمة. ومن المحتمل أن تكون هواية براين سترنبيرج للراديو والأعمال الفنية التي قامت بها جوني أريكسون قد ساهمت أكثر من أي شيء آخر في قوة ذهنهم حتى من تدعيم ورعاية الأصدقاء.

وكتبت بارباسا ولف كتاباً بعنوان "التعايش مع الألم Living with Pain" عن نضالها الطويل ضد الآلام

الشديدة. واكتشفت أن الفترة الوحيدة التي فيها تنسى الألم تماماً هي تلك التي تقضيها في تعليم اللغة الإنجليزية. فانشغال عقلها النشط بأداء عمل قضى على أية مشاعر أخرى. وتعلمت أن توجه نفس هذا التركيز في أوقات أخرى. وعندما كانت لمحات الألم تفاجئها في منتصف الليل، كانت تنشغل بترتيب اليوم التالي، أو تُعد محاضرة، أو تفكر في الغذاء وكيفية إعداده.

وأحياناً كانت تسلك ضد طبيعتها، إذ بدأت أن تُجبر نفسها على القيام بأنشطة تحتاج إلى تركيز كامل. واكتشفت ولف أن اللهو أو الانشغال بأمور غير التي اعتادت عليها هي أفضل سلاح ضد الألم وقالت: "إن اللهو أمر غير مكلف ولا يكوّن أية عادات فينا، ولا يحتاج إلى وصفة طبيب". وبالإضافة إلى تعليم اللغة الإنجليزية، شغلت نفسها في هوايات تتطلب كل انتباهها مثل: الحفلات، الحيوانات الأليفة، الرياضة، السياسة، الكتابة.

وبين الأنشطة الكثيرة التي مارستها وجدت ولف أن مشاركة الآخرين ذات أثر فعال في التحكم في الألم. وغالباً ما يجد المتألمون معنى عظيماً في الإحساس بالمكان عندما يتعلمون كيف يقومون بزيارة المتألمين الآخرين. وقالت جوني أريكسون إن أكثر الناس الذين ساعدوهم هم المشلولون الذين كرسوا أنفسهم للوقوف بجانبها وخاصة في أوقاتها الصعبة.

قال لي طبيب نفسي في ولاية أتلانتا إنه التقى بنوعية من الناس. مرضى يُمضون حياتهم وهم يصرخون: "نرجوكم أن تحبونا". ومجموعة أخرى أصحاء بدرجة تمكنهم من عطاء- وليس فقط الأخذ - الحب للآخرين. ويقول إن أفضل علاج للمجموعة الأولى هو مساعدتهم لكي يحبوا ويساعدوا الآخرين. ولو حدث ذلك، فسوف يملأون بطريقة طبيعية احتياجهم للاهتمام والحب في داخلهم.

وبالمثل، يحاول المستشارون الذين يعملون بين المتألمين أن يساعدوا مرضاهم على الاقتناع بفكرة مساعدة الآخرين

وحبهم بدلاً من أن ينتظروا هم المساعدة من آخرين. وقد وصفت لي جوني أريكسون مدى دهشتها عندما علمت أن كثيرين من المعاقين في مركز إعادة التأهيل الذي تشرف عليه يعملون تطوعاً. وكان هذا أمراً سهلاً بالنسبة لهم عن العمل في العالم "الخارجي" بكل مخاطرة وانحيازه. وأصبحت جوني قدوة لهم وهي تقوم بكل تمريناتها، وتبعث فيهم الأمل وإرادة الانطلاق. وأثبتت عملية استثمار إحتياجاتهم بأنها تساعد على العلاج والشفاء. وازدادت قوتها عندما غيرت فكرتها عن نفسها وأوقفت التفكير في ذاتها على أنها تستحق الشفقة من الآخرين.

يقول مثل فرنسي: "من الطبيعي أن تعاني ولكن ليس طبيعياً أن تفكر أنك ستعاني" وكثيراً ما نعتقد أن تقديم المساعدة هي مثل طريق ذات اتجاه واحد والذي فيه أنا - الشخص السليم - أصل إلى المجروحين لمساعدتهم. أما الذي اختبر الألم، فيمكنه أن يتعلم كيفية استخدام خبرته في المعاناة كوسيلة مؤثرة لافتقاد الآخرين ومساعدتهم.

يحكي الحاخام هارولد كوشنر قصة صينية قديمة عن امرأة سيطر عليها الحزن بعد موت ابنها. وعندما ذهبت إلى الكاهن طلباً للنصيحة قال لها: "اذهبي واحضري لي حبة خردل من منزل لم يعرف الحزن. وسوف نستخدم هذه الحبة لإزالة حزنك". وتقول القصة إنها ذهبت من منزل إلى آخر تسأل ما إذا كان المنزل قد عرف الحزن أم لا. وبالطبع، كل منزل قد اختبر الحزن، وبدأت المرأة في مواساة الناس وبذلك نسيت احزانها من خلال خدمة الآخرين.

وأعرف سيدتين قامتا بالخدمة من تلقاء نفسيهما. اكتشفت الأولى، وهي من كاليفورنيا، أن ابنها شاذ جنسياً وسيموت بمرض الإيدز. ولم تتلقَ أي نوع من التعاطف أو المساندة من كنيستها أو مجتمعها. وشعرت بالوحدة والحاجة حتى أنها قررت أن تبدأ في عمل صحيفة اخبارية والآن، انضمت إليها شبكة من أولياء أمور الشباب الشواذ. وهي تقدم نوعاً من الخدمة المحترفة - ولا تعد بشفاء سحري

- ولكنني قرأت العديد من خطابات أولياء أمور آخرين الذين امتدحوا شجاعة هذه المرأة واعتبروها مُنقذةً لحياة الكثيرين. ولأنها عرفت الألم والحزن، فهي تسعى الآن لمساعدة الآخرين.

امرأة أخرى من ولاية وسكنسون، فقدت ابنها الوحيد في تصادم طائرة هيلكوبتر بالجيش. ولأول مرة لاحظت تكرار هذه الحوادث في الأخبار. والآن، عندما تسمع بحادث تصادم طائرة هيلكوبتر عسكرية، ترسل مجموعة خطابات وبعض المواد المعينة الأخرى إلى ضابط في وزارة الدفاع وهو بدوره يُرسلها إلى الأسر التي تضررت من الحادث. وبدأت نصف هذه العائلات تقريبًا في مراسلة هذه السيدة باستمرار، وعندما استقالت من عملها، أسست ما أسمته "مجتمع المعاناة Community of Suffering" صحيح أن نشاطها لم يحل مشكلة حزنها على ابنها، ولكنه أعطاها الشعور بأنها نافعة للآخرين، ولم تعد تشعر بالعجز أمام أحزانها.

إن المتألم الحكيم لا ينظر داخله بل ينظر إلى الخارج. فلن يؤثر في المريض ويساعده على الشفاء إلا مريض مثله، ومن خلال هذه العملية، سيُشفى الاثنان.

"ليس المهم مدى شدة الألم، بل عدم الإحساس بما هو لا يُحتمل"

"فردريك بنتشيه"

١٦

المعنى

لاعب كرة القدم المحترف السابق ميرلن أولسين لديه تعريف جيد لفلسفة الألم:

"الإنسان خُلِقَ للتكيُّف. فيُمكن للشخص أن يكتشف ما يستطيع عمله وما لا يستطيع. والأمر يشبه السير داخل مخزن الغلال. فأول شيء يمكن أن تشتمَّه هو السماد. ولو انتظرت في المكان لمدة خمس دقائق، فلن تشتم هذه الرائحة مرةً أخرى. ونفس الشيء يحدث مع الركبة. فقد تُجرح أو تُصاب وأنتِ تُدرك ذلك. ولكنك تستمر في اللعب ولكن بمستوى مختلف. فقد تقل قدرتك على الجري. أو قد تُغير مركزكِ في الملعب.

وبعد إجراء جراحة في قدمي، كان يُحقن سائل في ركبتي كل أسبوع. واخيرًا، أصبح الغشاء سميكًا للغاية حتى أنهم اضطروا لاستخدام المطرقة

لإدخال إبرة الحقنة. ووصلت إلى المرحلة التي دفعتني لأن أقول: "ضعوا الإبرة واسحبوا كل السائل".

ويتعرض كل المشاركين في كرة القدم للفحص الطبي، ويُغدق عليهم المجتمع الكثير من المكافآت لأنهم يتعرضون لمثل هذه الآلام. فالألم الذي ينجم عن أمور أخرى - ليس فقط كرة القدم أو تسلق الجبال، أو السباقات... إلخ - يستطيع الأفراد أن يتقبلوه. وفي القرون الماضية، كان الناس يتقبلون الألم الشخصي الشديد كعلامة للتكريس العظيم لله: فكلما كان الثوب خشناً، والجلد شديداً، كلما كان هذا دليلاً على تقوى المتعبد.

وكان البشر يفرضون على أنفسهم الألم الشديد لكي يفتخروا بهذا. ولقرون طويلة كانت النساء الصينيات يلبسن الأحذية الضيقة والمؤلمة للقدم لكي تبدو أقدامهن صغيرة وجميلة. أما المرأة الحديثة، فبالإضافة إلى لبس الأحذية الضيقة، يُهذبن حواجبهن، ويعرضن أنفسهن للأشعة فوق الحمراء الضارة، ويخضعن لعمليات التجميل المؤلمة في الوجه، والصدر، كل ذلك ليتمتعن بمستويات أفضل من الجمال. وهن يقدرن الهيبة والاحترام وتحمل الألم لأن المجتمع يقدر ذلك.

قارن بين نوعين شديدين من الألم: محاكمة بالتعذيب وألم حصوة بالكلى. ولو وضعنا في اعتبارنا عدد الخلايا العصبية التي تتأثر وشدة الألم سنجد أن الاثنين متقاربان. وكذلك ولادة الطفل أمر مشابه لذلك. فقال يسوع في (يوحنا١٦: ٢١) "المرأة وهي تلد تحزن لأن ساعتها قد جاءت. ولكن متى ولدت لا تعود تذكر الشدة لسبب الفرح لأنه قد ولد إنسان في العالم". وألم المرأة ينتج عنه شيء ذاو معنى - حياة جديدة - ولهذا السبب، فهي تعيد التجربة مرة أخرى. ولكن بالنسبة لمن يعاني من حصوات الكلى، فأي معنى في هذا؟

وأكثر من أي مجتمع آخر في التاريخ، يختلف مجتمعنا

الحديث على معنى الألم. فلم نعد ننظر إليه كنوع من العقوبة من قبل الآلهة، ولكن ماهو؟ ونعطي قدراً من المعنى للآلام الأقل، كالتي تواجهنا في أعمالنا التطوعية، ولكن ما المعنى الموجود في طفل يُولد معاقاً؟ أو تليف مراري؟ أو تخلف عقلي؟ وبالنسبة لنا، يُعتبر الألم أمرًا يمكن علاجه والتغلب عليه، ولكن ماذا عن الألم الذي لا يمكن التخلص منه؟

وفي غالب الأحيان، نحن ننظر إلى الألم بطريقة سلبية: لأنه يُضعف صحتنا، ولا يجعلنا نرحب بالحياة أو نُقبل عليها، ولا نتمتع بالحرية أو السعادة. وكما ذكرتُ سابقاً، فإن كل المكتبات التي تبيع البطاقات تعطي نفس الرسالة. وكل ما نأمل فيه بالنسبة للمرضى هو مجرد أن "يتحسنوا". ومع ذلك، فكما قالت لي امرأة مريضة بالسرطان، "ولا بطاقة من تلك التي تُرسل إلينا يمكنها أن تنطبق على المرضى الموجودين معي في عنبر المستشفى فلن يتحسن أحدنا. وسوف نموت جميعا هنا. ونحن في نظر العالم مرضى عاجزين تماماً. فكر في هذه الكلمة: غير صالح".

ما معنى سرطان مستعصي؟

تلقيتُ خطاباً من قسيس في الغرب الأوسط (أمريكا) الذي سجل ما يحدث عندما يُعرف المعنى. وكانت معاناة الرجل عاطفية أكثر منها جسدية. دعاها الأطباء بحالة "انهيار عصبي"، ولكنها كانت حالة انهيار المعنى*.

"إن الجزء الأكثر إيلاماً في الأمر كله هو السكوت الظاهري لله. وصليتُ - وكنتُ أعتقد - إلى ظلمةٍ صامتة. وفكرتُ كثيراً في هذا. وهو فقط يبدو صامتاً. وكان جزءًا من مشكلتي هو الاكتئاب

* الألم العاطفي - مثل الاكتئاب الحاد - يمثل منطقةً كبيرة من المعاناة حتى أنني لا أستطيع أبدًا أن أذكرها في هذا الكتاب الذي يركز على الألم الجسدي. وأنصح بقراءة كتاب "فصل من المعاناة *A season of Suffering*" الذي كتبه John H. Timmerman (Multnomah Press, 1987) كتقرير حساس عن نضال أسرة مع الاكتئاب

والجزء الآخر هو المجتمع المسيحي. وتسبب في إرباك معظم المؤمنين. ولم يذكروا شيئاً يتحدث عن ما أحتمله. وصلى أحد الخدام بطريقة عمومية لا تمت بصلة لما أعانيه. إنهم لم يشعروا بألمي.

وحاول آخرون أن يتجنبوني. إن أصدقاء أيوب ساعدوه نفسياً. فعلى الأقل عبروا عن مشاعرهم حتى وإن كانت غاضبة. كانت كلماتهم لا قيمة لها، ولكنهم تداولوا نفس الموضوع والأسئلة التي كان أيوب يُعاني منها، وأعطوا أيوبَ الانطباع بأن الله قريب. ولا أحد في المجتمع المسيحي ـ فيما عدا زوجتي ـ ساعدني إلى هذه الدرجة.

احترام الألم

أحد أهم الأمور التي يجب أن نقوم بها تجاه الشخص المتألم، هي أن ننمي قدرتة على إيجاد معنى أو أهمية لما هو فيه.

والمشكلة في واقع الأمر، هي أننا نحن الذين نقدم المعنى بطريقة أو بأخرى. وعندما ألقى محاضرات عن الألم، أوضح هذا الأمر بأن أطلب من المستمعين المشاركة. وأطلب منهم أن يُشيروا بعلامة الموافقة"أو" "علامة الرفض": الموافقة إذا كان الألم الذي أذكره مقبولاً، أو ألمًا يستدعي الشفقة، وعدم الموافقة إذا كان الألم غير مقبول ويستحق القليل من الشفقة. فحصلتُ على الإجابات التالية:

"ساق مكسورة بسبب التزحلق" موافقة كلية...وسمعتُ بعض الملاحظات المضحكة، ويُصبح المتألم بطلًا فعلاً. وهذا الألم يستحق الاهتمام والانتباه.

"البرص" عدم موافقة. ومن خلال عملي مع د. براند، عرفتُ كثيرين من مرضى البرص. إنهم يدافعون بقوة عن مرض يُسمى"Hansen" لسببٍ بسيط: وهو الطريقة التي يتجاوب بها الناس مع صورةِ البرص. ومع أن المرض يختلف كثيراً في كل جانب عن البرص إلا أنَّ مرضى

البرص ما زال يُدانون ولايحصلون على أي نوع من أنواع الشفقة. إن أسوأ آثار المرض هي الوحدة.

"الإنفلونزا": إجابات مختلفة. البعض لم يوافق لأنه لا أحد يُحب الحمى، أو القييء أو الآلام الجسدية. وعلى الجانب الآخر، فالنزلة ـ لأنها عالمية ـ حازت على شفقةٍ أكثر. ويسمع المريض بها الأقوال التالية"خذ الأمور ببساطة" "أمكث بالمنزل بضعة أيام إضافية وسوف تسترد عافيتك".

"التهاب الغدة النُكافية". تتوقف الإجابات على سن من تتحدث عنه. فالأطفال الذين يعانون من هذا المرض، يحصلون على الكثير من الشفقة. فقد تزداد فترات السماح لهم برؤية التلفاز أو تناول الآيس كريم. وما زلتُ أتذكر فترةِ مرضي بهذا المرض بحنين شديد. أما إذا أصيب شخص بالغ بالغدة، فإنَّ ذلك يعتبرونه نكتةً، على الرغم من أنَّ الأمر أشدُ خطرًا عليه.

وتستمر القائمة. "البواسير": حالة مؤلمة للغاية، ولكنها اجتماعيًا أمر مضحك. "الأيدز":أي نوع من الاستجابة يتلقاها مرضى الإيدز؟ أعرف عدداً قليلاً من مرض الإيدز ويسمعون رسالة واضحة للغاية من الكنيسة: "ليس لديّ أي تعاطف معكم. إنكم تستحقون معاناتكم كعقاب من الله. ابتعدوا بعيدًا". ولاأعتقدُ أنَّ هناك مرضًا سوى الإيدز، هو الأكثر إيلامًا، والأقل تعاطفًا من الناس.

ولدى الناس "صورة" مختلفة عن مرض الصداع النصفي والسرطان، ومرض Whiplash فنحن نتعاطف بطرق غامضة مع الذين يُعانون منها إلا أنَّ هناك آراءًا ومعانٍ قد تُخفف من معاناتهم، وأخرى قد تُضاعفها.

وتوصلتُ إلى الاعتقاد بأن أفضل مشاركة يمكن أن يُقدمها المؤمنون المسيحيون هي أن لا يُعطوا المتألمين آراءًا أو أسباباً خاطئة قد تُزيد من آلامهم"ولنحترم" الألم. فالألم هو الألم سواء نتج عن صداع نصفي أو التهاب في الزور أو اكتئاب حاد. وأول خُطوة لمساعدة الشخص

المتألم (أو قبول آلامنا نحن) هي أن نعترف بأن الألم أمر صحيح ومشروع ويستحق الشفقة. وبهذه الطريقة، يُمكننا أن نبدأ في إعطاء معنى للألم.

وعلى صعيد آخر، يجب أن يُطبق المؤمنون المسيحيون مجموعة قيم جديدة في معاملتهم للمتألمين. وقد نفعل كالذين زاروا كلوديا كليكستون وهي على فراش المرض في المستشفى وزادوا اشتعال المرض ناراً بقولهم: "ألم تصلي؟ أليس لديك إيمان بأن الله سوف يُشفيك؟ هل الشيطان هو سبب هذه الآلام؟ هل الله اختارك لتكوني مثلاً للآخرين؟" لقد تعلمتُ أن الألم هو نتيجة لذنب اقتُرف. فكلنا يرتكب أخطاء، وعندما يحدث الألم، من السهل أن نلوم أنفسنا لما يحدث لنا.

كما قد تُثير بعضُ تعليقاتنا آثارًا ضارة.. مثلاً: إن الله أحب ابنتكم كثيراً حتى أنه أخذها سريعًا" "الله لا يريد أن يُعطيكم حملاً أكثر مما تحتملوا" وهنا قد يرغب الشخص الذي يعاني إيماناً أضعف أن يكون حمله أخف.

وقد أجريتُ لقاءاتٍ مع متألمين كثيرين وعرفتُ أن مثل هذه التعليقات التي يسمعونها من الزائرين تُزيدهم ألماً أكثر من الألم الذي يعانون منه. وصفت إحدى السيدات المشهورات في الدوائر المسيحية الألم الذي يُسببه لها مرض TMJ. وقالت إن الألم يُسيطر على كل حياتها. ومع ذلك، تقول، يؤلمني أكثر عندما يكتب إليّ المؤمنون المسيحيون تعليقات إدانة مبنية على أفكار لديهم .. لماذا يسمح الله بالألم؟ إن المشاركة الرئيسية التي يمكن للمؤمن أن يقدمها للشخص المتألم هي أن "يحترم ألمه" ولا يقول له أراء وأسباب خاطئة تتسبب في زيادة آلامه.

الكنز المدفون

إذا اتبعنا النموذج الكتابي، ينبغي ونحن نبحث عن معنى أن نتجه للأمام نحو نتائج المعاناة وليس التفكير في أسبابها.

إن كثيراً من المعاناة والألم سيظلان بلا معنى إن أنفقنا

كل مجهوداتنا على الأسئلة التي ليست لها إجابة ... لماذا؟ لماذا قضى سولجستن ثماني سنوات في معسكرات العمل الشاقة لمجرد أن ذكر نقدًا عابرًا عن ستالين في خطاب كتبه لصديق؟ لماذا مات ملايين اليهود إرضاءًا لنزوات ديكتاتور مجنون؟ وستظل هذه المعاناة بلا معنى في حد ذاتها مالم يبحث الشخص الذي يعاني - قبل عاملٍ في منجم فحم يبحث عن الماس - إلى أن يجد فيها معنى.

قال فيكتور فرانكيل - الذي أمضى وقتاً طويلاً في معسكرات هتلر للاعتقال -: "اليأس هو معاناة بلا معنى". واستخرج كل من فرانكيل و بورنو معنى من المعاناة الشديدة التي لقياها في الهولوكوست: فملاحظاتهم لسلوكيات الناس في الأحوال السيئة بالمعسكر أعطتهم البصيرة والحكمة التي وضعت الأسس لكل أعمالهم التي قاموا بها فيما بعد. أما إيلي ويسيل وآخرون الذين "حملوا الشهادة للرب" فقد وجدوا المعنى. إنهم الآن يُكرّسون أنفسهم لاحترام أولئك الذين لم تُكتب لهم النجاة.

وفي السجن، انكبَّ ديستوفسكي على قراءة العهد الجديد وحياة القديسين. وأصبح السجن - بالنسبة له وفيما بعد بالنسبة لسولنجستن - بوتقة الإيمان بالعقيدة. وكلاهما وصف كيف أنهما اقتنعا بأن شر الإنسان كان بحاجة إلى الغداء. ومن خلال الشهادة الحية للمؤمنين في داخل المعسكر، رأي إمكانية التغيير. وعبر سولنجستن عن ذلك في روايته: "يوم في حياة إيفان .. One Day in the Life of Iuan Denisouich" وقال: الإيمان بالله قد لا يُخرجك من المعسكر، ولكن يكفي أنه يرعاك كل يوم.

ومع أن معاناتي تبدو تافهة مقارنةً بمعاناة هؤلاء الرواد، فأنا أحاول أيضاً أن أجد المعنى منها. وأبدأ بالوعد الكتابي الذي يقول بأن المعاناة ينتج عنها شيء صالح في حياتنا. وقرأتُ القائمة التي ذكرها الرسول بولس في رومية ٥، حيث ذكر الصبر والرجاء والتزكية والثقة. "كيف يُمكن للمعاناة أن تُحقق ذلك؟" سألتُ نفسي هذا السؤال. إنه يُعلمنا الصبر الذي يقودني للرجوع إلى الله، ويقودني إلى التزكية

لأنه يدعوني دائمًا إلى القوة الداخلية التي منحني الله إياها. وأستمر في قراءة القائمة وأرى كيف أن الله يساعدنا لكي نعرف المعاني من وراء المعاناة والألم.

وقد تحدث جون دون عن المعاناة وكأنها نوع من "كنز في سبيكة". ولأنه لم يتحول إلى عملات، فلا تساعدنا هذه السبيكة على أن ندفع تكاليف معيشتنا على هذه الأرض. ولكن كلما اقتربنا إلى بيتنا الأبدي، السماء، يتخذ هذا الكنز قيمة أبدية، "ثقل مجد أبدي". وإذا رجعنا إلى الله في ثقة، يمكن افتداء هذه المعاناة، إذ إنه يساعدنا على أن نكون على صورة المسيح.

ويُمكننا أن نستخدم تشبيهًا عصريًا لكي نعبر عن نفس الفكرة. فيمكن أن نُطلق على المعاناة ما يُسميه رجال الاقتصاد "الأصول المجّمدة". وقد لا تبدو هكذا الآن، ولكن تدريجياً، سنجد قيمتها ومعناها، الذي سيساعدنا على التغلب على الألم.

مشاركة المعنى

اقتبست في بداية هذا الفصل خطاباً من قسيس أُصيب بإكتئاب من جرّاء آلام إجتاز فيها، فصبت في ذهنه بعض المعاني. ولم يفهم المعنَى من آلامه، وفشل المؤمنون حوله في مساعدته. وأخيراً، لجأ لمؤسسة للعلاج العقلي. وساندته أسرته وبمساعدة الأطباء المتخصصين، استرد صحته.

وبعد بضعة سنوات، واجه نفس القسيس محنة أخرى. مات حفيده الذي يبلغ من العمر أسبوعاً واحداً، وأدخل هذا كل الأسرة في حزن عميق. وكان يجب أن يكون هو الشخص القوي الذي يساند أولادهُ، ولم يكن يعرف ما إذا كان يستطيع أن يقوم بهذا الدور أم لا. وفي يوم الأحد التالي لوفاة الحفيد، وقف ليعظ في كنيسته الجديدة وبدأ يقرأ مزمور ١٤٥ وهو على المنبر. وحاول أن يُركز في كلمات المزمور ولكنه لم يتمكن من ذلك. فثقُل لسانه وارتعشت ذقنه وسالت دموعه. ولم يستطع أن يقرأ الكلمات التي تؤكد

صلاح الله وعدله.

ونحى القسيسُ العظة المكتوبة جانبًا، وبصوت مختنق، أخبر الاجتماع المندهش عن موت حفيده. وبينما هو يتكلم، تحول ذهنه إلى حالته عندما كان في الكنيسة السابقة، وتذكر مشاعر العجز والفشل. وبدأ يشعر بالخوف.

ولكن كانت هذه المرة تختلف عن السابقة وقال: "بينما كان الناس يتركون الكنيسة في نهاية الاجتماع قالوا أمرين هامين ومشجعين:

- "نشكرك لأنك شاركتِ آلامك معنا".
- "نحن نشاطرك أحزانك. وكانت هذه الجملة البسيطة من أكثر الجمل التي ساعدتني. فلم أشعر أنني وحيد. فما حدث لي أثناء فترة الاكتئاب لم يتكرر، إذ شعرتُ أنني لم أُترك من الله ولا من شعبه. فقد احتضنوا أحزاني".

وباستخدام بعض الكلمات القليلة، تواصلت الكنيسة الثانية مع راعيهم واستخرجوا وشاركوا معه المعنى المقصود من الألم. وأظهروا اهتماماً بآلامه واحتملوها معه.

ودائماً ما يكون البحث عن المعنى من الألم بحثاً انفراديًا. فأنا بمفردي أستطيع أن أفهم هذا المعنى. ومع ذلك، فالوقوف مع المتألم في محنته يُمكن أن يساعده في معرفة المعنى الكامن من وراء ألمه.

والمهارة المطلوبة لمساعدة الآخرين لإيجاد المعنى من آلامهم تتطلب معرفة عدة مراحل في طريق الشفاء. وتصف شارون فيشير محاولتها في التعامل مع سرطان المبيض:

"كنتُ في حاجة إلى وقتٍ لكي أفهم ما يحدث في حياتي وأمتص التغيرات التي اقتحمت نظامي اليومي، واستقراري العاطفي وخططي للمستقبل. وأفضل طريقة لمساعدة المتألمين هي أن تكون صبوراً معهم..لنعطيهم فرصة للشك، والبكاء،

والتساؤل فيعبرون عن مشاعرهم بشتى الطرق.

واكتشفت أنني لا أستطيع أن أستوعب (أمتص) كل ما يحدث لي في الحال، وكنتُ بحاجةٍ لأن أشعر بالحرية ليكون لي الوقت الكافي لأعمل من خلال مشاعري. وقد لخصت إليزابيث كوبلير روس المراحل الخمس المراحل التي يجتازها من يُجربون الحزن، سواء الذين يواجهون موتهم، أو يتعاملون مع موت من يحبونهم. وهذه المراحل هي: الإنكار، الغضب، المساومة، الاكتئاب والقبول، وليس بالضرورة أن تأتي بالتتابع أو أن يجتازها كل البشر بنفس العدد والترتيب ولكنها تمثل الوقت الذي تأخذه التجربة...

وليس من طبيعتي أن أشارك مشاعري مع الآخرين بسهولة. ولذلك، ليس من السهل عليّ دائماً أن أعبر عن مدى تعقّد مشاعري وعمق ردود أفعالي تجاه التجربة. ولكنني بحاجة إلى مستمعين جيدين لي، لأناس على استعداد أن يستمعوا لي لمدة ساعة أوساعتين. ولحسن حظي، لديّ أصدقاء مخلصون، أحد جيراني الذي يتمتع بمهارة المشورةِ وبعض أفراد الأسرة المستعدين للمساعدة دائماً. ولستُ أدري ما الذي كنتُ سأفعله بدونهم".

واستمرت فيشير في القول بأن أقل الناس معونة لها هم أولئك الذين كانوا يقدمون إجابة على الأسئلة. وقدمت إحدى السيدات فكرة نظام غذائي - شارون كان يستمتع بالهامبورجر والشيكولاتة والآيس كريم - وكان هذا هو سبب مرضه. وآخرون شجعوها على أن تقلل من اعتمادها على العلاج الطبي وتعتمد أكثر على الصلاة من أجل الشفاء.

ولا أستطيع تأكيد مدى الأثر السيئ لمثل هذه الاقتراحات. وقد نصح الرسول بولس أهل رومية (١٢: ١٥) بالقول "فرحاً مع الفرحين وبكاء مع الباكين"، كلمات حكيمة

يمكن أن نطبقها وخاصة في وقت الأزمات. وفي سفر الأمثال (٢٥: ٢٠) آية حاسمة عن الإجابات غير المناسبة:

"كنزع الثوب في يوم البرد كخل على نطرون من يغني أغاني لقلب كئيب".

في نفس الوقت الذي كنت أكتب فيه هذا الكتاب، تلقيتُ مكالمةً من صديق في مدينة أخرى والذي شَخَّص الأطباء مرضه منذ فترةٍ وجيزة على أنه الإيدز. وطغى عليه الشعور بالذنب على خطاياه الجنسية السابقة، وشعر بالندم، وأنه لايستحق الاحترام، وكره نفسه، وشعر أن الله رفضه. وفقد كل رغبةٍ للحياة. وكان في أشد الحاجة للمساعدة.

ويعتبر البعض أن الإيدز هو عقوبة مباشرة من الله وأنه رسالة دينونة محددة للشخص. ولكنني لا أوافق على هذا. بل بالحري أرى فيه جزءًا من رسالة عامة، ومبدأ للصحة: فتعاطي الكحول وشرب السجائر يُعرِّض الجسِم لمخاطر معينة وكذلك ممارسة الجنس. ولكن - مع ذلك - حتى وإن كنتُ مخطئاً وكان المرض قد حدث كعقوبة مباشرة، فما هي مسئوليتي كصديق مؤمن لهذا الشخص؟

مسئوليتي هي أن أُقدمُ النعمةِ، وأوضح له كيف أن يسوع تعامل بكل لطف مع الناس الذين ارتكبوا خطايا جنسية وأؤكد له محبة الله وغفرانه. وبأختصار، فإن دوري هو أن أحول تركيزه بعيدًا عن الماضي وأشَجعه على النظر للأمام. فيمكن أن يذهب إلى المستشفى ليستلقي على السرير ويفكر طوال الوقت في خطاياه. أو قد يأتي بهذا الذنب إلى الله الذي وعد بأن ينسى خطايانا عندما نعترف بها "كبعد المشرق عن المغرب".

ومشاركة معنى الذنب ليس دينونة ولكنه غفران. وعندما أشارك معنى الألم فهذا نوع من استرداده لله والاتحاد معه في آلامه.

علامات استفهام الله

في بعض الأحيان، نؤكد للشخص المتألم أن معاناته، والتي قد لا يكون لها معنى واضح بالنسبة له، لها معنى بالنسبة لنا.

في كتابه الصغير الذي يحمل عنواناً شيقاً "الشافي المجروح The Wounded Healer" يطرح المؤلف هنري نووين سؤال الناس الذين يشعرون بالوحدة وأنهم متروكون. ماهو المعني الذي يمكن أن نقدمه لهم وهم في آلامهم؟ ويُعطي مثلاً لقسيس شاب ليس لديه أي معنى يقترحه، ويقدمه لشخص عجوز سيُجري عملية جراحية غيّر أنه عبر عن اهتمامه به ومحبته. ويقول نووين:"لا يستطيع أحد أن يظل حياً إذا لم يجد أحداً في انتظاره. وكل من يعود من رحلة مُرهقة وطويلة يبحث عن شخص ينتظره بالمحطة أو المطار. فكل شخص يُريد أن يشارك آلامه وأفراحه مع شخص ينتظره بالمنزل حين يعود".

وتعمل زوجتي في أحد أفقر الأحياء في مدينة شيكاغو، إذ تُشرف على مشروع لكنيسة La Salle Street Church التي تبحث عن الذين يشعرون بالوحدة والهجر من المسنين الذين ليس لهم من يعولهم. ومرات عديدة أراها مهتمة للغاية بحياة أحد المسنين وتحاول إقناعه بأنها مهتمة بحياته أو بموته. وبهذه الطريقة تقدم لهم "النعمة" وهم في وسط الألم.

وكانت زوجتي جانيت تساعد رجلاً يبلغ من العمر ٩٥ عاماً ـ السُيد كرويدر ـ ورفض أن يُجري جراحة مياه بيضاء في عينيه لمدة عشرين سنة. وهو في سن السبعين قال إنه ليس هناك ما يستحق أن أراه، ولابد وأن الله يُريده أن يكون أعمى طالما سمح له بذلك. وأضاف الرجل ربما كان هذا عقابًا من الله لأنني كنت أنظر إلى الفتيات الصغيرات.

وأمضت زوجتي معه سنتين في الإقناع والمجادلة والإصرار والمحبة لكي يُوافق على عمل العملية. وأخيرًا،

وافق لسبب واحد فقط وهو: إن جانيت قالت له أنه يهمها كثيراً أن يسترد بصره. إن الرجل قد يئس من حياته التي أصبحت بلا معنى بالنسبة له. ولكن اهتمام جانيت أضاف لحياته معنى حتى وهو في سن ٩٢ عاماً. وأخيرًا، وافق على عمل العملية.

والمعنى الحرفي لذلك، هو أن جانيت شاركت السُيد كرويدر معاناته. فزياراتها المتكررة له جعلته يشعر بأنها تهتم به وأنه غالٍ عليها سواء عاش أو مات سواء تمكن أن يرى أو لم يتمكن. إن مبدأ مشاركة الألم هو الفكرة الرئيسية في هذا الكتاب، بل وربما يكون المساهمة الأكيدة التي يمكن أن نقوم بها لنساعدهم على معرفة المعنى الكامن وراء الألم. وإن فعلنا ذلك، فنحن نتبع نموذج الله، لأنه هو ذاته يتألم معنا. لقد ارتبط بنا وعاش حياة معاناة وفقر أكثر منا. ولا يمكن للمعاناة أن تكون بلا معنى لأن الله ذاته شارك فيها.

ومع ذلك، ففي بعض المرات وعلى الرغم من مجهوداتنا لكي نشارك آلام الآخرين، فإننا نُواجه معاناة تبدو خالية تماماً من أي معنى. وأفكر الآن في شخص مصاب بالزهايمر، وتحاول ابنته أن تلبي كل إحتياجاته، ولكن في كل يوم ينكسر قلبها عندما ترى والدها في هذه الحالة. كما أنني أفكر في طفل معاق درجة ذكائه ما بين ٣٠ ـ ٤٠ درجة. وقد يعيش هذا الطفل حياة طويلة وهو بلا حراك في سريره، لا يستطيع الكلام أو الفهم وينفقون عليه الكثير كأجر لأناس يعتنون به.

أين المعنى في هاتين الحالتين؟ وتلقيت مساعدة عظيمة لمعرفة الإجابة على هذا السؤال من أعمال المحبة التي يقوم بها المؤمنون في ألمانيا الشرقية. هؤلاء الناس الذين نشأوا في مجتمع عانوا فيه الكثير عن ما يحدث في الغرب، فقد وضعوا لنا مثالاً للوصول إلى أولئك الأقل "قيمة وفائدة" في المجتمع الحديث.

"ماهو هدف حياتهم؟ هل لحياتهم أي معنى؟" سألت هذه

الأسئلة السيدة جورجين تراجيش وهي طبيبة أطفال تعمل مع المعاقين ذهنيًا. بإمكانه معالجة الأعراض الخارجية، ولكن ما الذي يحدث بالداخل، داخل هذه العقول المُدمِرة؟

ولعدة سنوات، لم تتمكن دكتورة جورجين من الإجابة على سؤال هل للألم معنى؟ وكان يؤدي عمله الطبي ولكن لم يكن لديه أية إجابة. وحدث أنه تولى فترة تدريب لمعاونين جدد للمركز، وفي نهاية العام، طلب من المتدربين أن يملأوا استمارة بها العديد من الأسئلة. ومن بين الأسئلة هذا السؤال: "ماهي التغيرات التي حدثت في حياتك بعد مشاركتك في العمل مع المعاقين؟ وما يلي بعض إجاباتهم:

- لأول مرة في حياتي أشعر بأنني أفعل شيئاً مهماً.
- أشعر الآن بأنني أستطيع عمل أشياء لم أعتقد أنني أستطيع عملها.
- أثناء عملي هنا، ربحتُ محبة سابين. وبعدما أتيحت لديّ الفرصة لأشارك في خدمة المعاقين، لم أعد أفكر في أن سابين معاقة على الإطلاق.
- لقد ازدادت رغبتي في مشاركة الناس آلامهم وازدادت لديّ الرغبة في مساعدة الآخرين.
- الخدمة هنا جعلتني أتساءل ماهو الشيءُ المهمُ حقيقةً في هذه الحياة.
- لقد أصبح للعمل معنى وهدف جيدان. وأشعر أن الآخرين في حاجة إليّ.
- تعلمتُ الصبر وأن أقدّر أقل تقدم يحدث.
- من خلال ملاحظتي للمعاقين، اكتشفت ذاتي.
- ازداد تسامحي. لم تعد مشاكلي الصغيرة ذات أهمية، كما تعلمتُ أن أقبل ذاتي بكل نقائصي. وتعلمتُ أن أقدّر المتع الصغيرة في الحياة وأشكر الله الذي عرفني أن المحبة يمكن أن تحقق أكثر من الكراهية أو القوة.

وبعد ما قرأ د. جورجين هذه الإجابات وغيرها، عرف الإجابة على سؤاله. ومعنى معاناة هؤلاء الأطفال، أنها أفادت حياة الآخرين الذين تعلموا دروساً لا يستطيع أي نظام تعليمي متقدم أن يُعلّمها. وفكر في مريضين عمل معهما لمدة سنتين وأظهرا تقدماً بطيئاً وسأل الأسئلة التالية: "هل يمكن أن يكون دانيال ومونيكا جاءا إلى هذا العالم من أجلي أنا؟ هل أسئلتهم لي هي نفس أسئلة الله لي أنا؟ هل حالة هؤلاء الأطفال المعاقين الصعبة هي إجابة - إجابة الله على سؤالي؟

"كل ما يستطيع أن يفعله المُضطهدون هو الاستمرار بالتمسك بالأمل والرجاء. وبعد كل يأس يجب أن يجدوا سبباً جديداً للأمل".

— الكسندر سولنجستين

١٧

الأمل

تُفحص المستحضرات الصيدلية اليوم بأسلوب مزدوج، والمقصود بذلك، أن الأطباء أنفسهم لا يعرفون أي العقاقير حقيقية وأيها غير فعال. ويجب فحصها بهذه الطريقة لسبب واحد بسيط: قوة الأمل الإنساني. فقبل هذا الفحص المزدوج، أظهرت كل العقاقير الجديدة نتائج مذهلة فعلاً، بغض النظر عن محتوياتها الكيميائية. ووجد الباحثون المتحيزون أخيراً أن سلوك الأطباء هو العامل الأساسي في نجاح العقار الجديد: فمن خلال الابتسام، والصوت، والأسلوب يمكن للطبيب أن ينقل الثقة والأمل للمريض دون أن يعلم، بل ويقنعه باحتمال التحسن.

وأثبتت العديد من الدراسات القوة الشافية للأمل وكذلك خطورة فقدان الأمل. ووجدت كلية الطب بجامعة روشستر أن كثيرين من المرضى الذين يُجرون جراحة القلب المفتوح يموتون بعد الجراحة إذا أظهروا أي علامات للاكتئاب. كما أنه أجريت دراسة شهيرة تدعى "القلب المكسور" درست سلوكيات ٤٥٠٠ أرملاً في فترة الأشهر الستة بعد وفاة زوجاتهم. فوجدوا أن الأزواج الأرامل - ومعظمهم أصيب بالاكتئاب - كان معدل سلوكهم الأخلاقي ٤٠٪ أعلى من غيرهم ممن هم في نفس السن.

كما أن التقارير التي كُتبت عن أسرى الحروب تُشير إلى أنهم قد يموتون بسبب فقدان الأمل. ولنفكر في التجربة التي اجتازها الميجور إف. جْي. هارولد كوشنير وهو طبيب ضابط قبض عليه أثناء حرب فيتنام وسُجن لمدة أربعة سنوات ونصف.

> "تعرّف كوشنر على سجين حرب، شاب قوي من جنود المارينز وسُجن في معسكر لمدة سنتين. وكان نموذجاً لسجين الحرب، إذ كان يحتفظ بصحة جيدة ويقود مجموعة الإصلاح بالمعسكر، لأن قائد المعسكر وعد بإطلاق سراح المتعاونين من الأسرى. ومع ذلك، بمرور الوقت تبين أن قائد المعسكر كذب عليه. وعندما تأكد من هذه الحقيقة رفض كل عمل يُسند إليه ورفض الطعام بل وكل تشجيع له. واستلقى على سريره يمتص إبهامه. ومات بعد بضعة أسابيع".

وعندما كتب الدُكتور مارتن ساليجمان عن هذا الجندي الشاب قال إن التفسير الطبي لانهياره ليس كافياً وأضاف: "إن الذي كان يُبقيه حياً هو الأمل. وعندما فقد الأمل واعتقد أن كل مجهوداته ستفشل، لذلك مات".

وقد وضّح ذلك د. هارولد ولف: "إن الأمل والإيمان والهدف في الحياة هم نوع من الشفاء للإنسان. وهذه ليست مجرد عبارة تُقال، ولكنها نتيجة توصلوا إليها من خلال

تجارب علمية".

الهبة المحيرة

يتجه المرضى إلى تقسيم تسهيلات الرعاية طويلة المدى إلى فئتين: الذين لديهم أمل وهم يحاولون التغلب على آلامهم ليبدأوا حياتهم العادية، والمهزومين. وفي زيارة لإحدى العيادات، سأل الراعي والمؤلف بروس لارسون هيئة التمريض عن أهم عنصر لعلاج المرضى عقلياً. وقد أجمعوا على أن الأمل هو أهم عنصر في الشفاء، ولكنهم اعترفوا بعدم قدرتهم "على وصفه كدواء وعلاج" للمريض. إنه صفة من صفات الروح ولهذا فهو هبة محيرة. ومع ذلك، فهم يستطيعون أن يخبروا عن مرضى فشل معهم العلاج تماماً وفجأة تتحسن حالتهم عندما يؤمنون بأن المستقبل سوف يكون أفضل من الحالة التي هم فيها الآن.

وقد اكتشفت هيئة التمريض بعيادة مانينجير أن مثل هذا الأمل الشجاع لا يمكن تعليمه. ولكن في بعض الأحيان، يمكن تعليمه. بإمكاننا أن نوقظ الشجاعة والأمل في المتألمين.

وتقدم منظمة العفو الدوليةُ توضيحاً جيداً للأمل المُعدي. ومؤسس هذه الهيئة - وهو سجين سياسي كان على حافة اليأس - كان قد أعطي علبة كبريت مكتوبًا عليها كلمة واحدة طالبته بالشجاعة والتي جددت فيه الأمل وأبقته حياً. وعندما أطلق سراحه، كرس نفسه لبناء هيئة مؤسسة على مبدأ بسيط للغاية. يكتب الناس الذين يعيشون في البلاد الحرة خطابات إلى المساجين الذين يُعذبون لأسباب سياسية. فبالنسبة لآلاف المساجين، مجرد معرفتهم أن هناك أناساً آخرين يهتمون بهم - حتى وإن لم يعرفوهم شخصيًا - يُشعل هذا الشعور فيهم شعلة الأمل.

في بعض الأحيان، يبدو الأمل وكأنه بلا هدف وغير منطقي. ولابد أن هذا الشعور كان يسود معسكرات

الاعتقال. ومع ذلك، فكما قال سولنجستن في الاقتباس الذي ذكرته في بداية هذا الفصل، إنّ مَن ليس لديهم أمل معقول، يجب أن يبحثوا عن مصدر لهذا الأمل، فهو مثل الخبز الذي يُبقينا أحياء. وبالنسبة إلى سولنجستن، فقد اختار الأمل الذي غذى إرادته للحياة. وقد سجل كل هذا في كتابه The Yulag Archipelage وفيه قدّر الأمل وشجع به زملاءه المسجونين. وبالنسبة لديستوفسكي، كان الأمل في إطلاق سراحه، وشعوره بأنه "ليس في منزله" ولكنه وهو هنا في زيارة "أصبح مثلاً لكل الأحياء وهذا ما أقنعه بحياة بعد الموت".

وفي كتابه "اختبارات مع الله Experiences of God" يُخبرنا اللاهوتي جورجين مولتمان كيف حفظه الأمل على قيد الحياة وهو في معسكر اعتقال. فعندما قبض عليه كأسير حرب ألماني، انتقل بين سجون بلجيكا وسكوتلاند أو إنجلترا. وبالإضافة إلى المتاعب العادية للحياة في السجن - لا توجد تدفئة، طعام قليل، مرض - عانى من اليأس الذي أصابه بسبب رؤية هزيمة بلاده والوحشية التي ارتُكِبت ضد بلاده. وقال: "رأيت كيف إنهار الرجال داخلياً، وكيف فقدوا كل أمل، ومرض البعض منهم بسبب ذلك وآخرون ماتوا. وكاد أن يحدث هذا لي. ولكن الذي أبقاني حياً هو ولادة ثانية لحياة جديدة بفضل أمل بُعث في داخلي ولا أعرف له دليلاً".

وهذا الرجاء الذي يحكي عنه مولتمان هو الرجاء المسيحي. فقد أخذ معه كتابين وهو في طريقه للحرب: أشعار جوته وكُتب نتيشيه. ولا واحد منهما أعطاه نوعاً من الراحة. فبعد رؤيته موت الكثيرين حوله، تحول إلى العهد الجديد ليقرأه وكان قد أعطاه له أحد الرعاة. وكانت آية من سفر المزامير موجودةً في نهاية العهد الجديد وقرأ الآية "إن الله مع ذوي القلوب المنكسرة".

وبعد إطلاق سراحه عام ١٩٤٨، تخلى مولتمان عن مجال الفيزياء وأصبح مشهوراً في مجال اللاهوت وخاصة عندما كتب كتابه "لاهوت الأمل".

ومثل هؤلاء الناس يُمثلون الطريق الوحيد للشخص لكي يخرج من حالة اليأس. ومن خلال كتابه، استُخدمت أمثلة لأناس تجاوبوا بنجاح مع المعاناة. كما أنه توجد أمثلة لأناس حطمهم الألم. أما الأمل والرجاء، فيُعتبران عاملاً أساسياً للتعايش مع الألم حتى أنني أتساءل ما إذا كان من الممكن تأكيد "قصص النجاح" والشخص الذي يعاني من اليأس يحتاج إلى شخص أو فكرة تُخرجه من الكآبة والحزن الذي يسيطر عليه.

وقد يسخر الأصحاء عندما يقرأون أن "الشخص المعاق يجد سعادة وفائدة" وذلك في قصص كُتبت في كتاب "المختار" وكتاب "Juideposts". ولكن المعاقين الذين تحدثت معهم يأخذون هذه القصص بنوع من الجدية. ويتحدى الأحياء فيهم الميل إلى رثاء الذات. كما أن قصصاً مثل (الرجل الفيل الذي يدعى جون ميريك وهيلين كيللر، وكريستي براون، كلهم يتحدوننا.

ومعنى الأمل ببساطة، التصديق بأن أمراً طيباً في انتظارك مستقبلاً. إنه ليس مثل التفاؤل أو التفكير الإيجابي، وأولئك الذين يساندون المتألمين يخلطون بين الأمل والتفاؤل. إننا نبحث عن عبارات التشجيع ونعطي مثل هذه العبارات الشافية: "نعم يا أمي، صحيح ذاكرتك تضعف ولكن ماهي أهميتها بالنسبة لك؟" "نظرك يضعف، ولكن بإمكانك أن تسمعيني جيداً. وهذا أمر جيد، أليس كذلك؟" "أنا أعلم أن هذا الأسبوع كان صعباً بالنسبة لك، ولكن ستتحسنين في الأسبوع المقبل؟!

علمني الوقت الذي قضيته مع مجموعة "Make Today Count" حدود التفاؤل. وقد يعتبر الناس المتألمون العبارات السابقة بمثابة إهانات وليست تشجيعاً للأمل. إنهم بحاجة إلى ماهو أكثر من الإفراط في التفاؤل. ويمثل الأمل بالنسبة لهم نوعاً من الشجاعة أكثر منه مرحاً. إنه يتضمن قفزة تُشبه الإيمان. ويقول الرسول بولس "الرجاء المنظور ليس رجاءً. لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر"

(رومية٨: ٢٤ - ٢٥).

ومع ذلك، فالرجاء يُنقذنا من التشاؤم، والاعتقاد بأن الكون سيكون نوعًا من الفوضى لو لم يكن له معنى نهائي. والرجاء الحقيقي هو أمر صحيح إذ يسمح للشخص بأن يؤمن أنه حتى إن سقط وحدثت أمور سيئة، فلم ينته الطريق بعد. ويمكن أن يقف ثانيةً ويواصل المسير.

ويسمح الرجاء الحقيقي والواقعي للشخص المتألم بأن يواجه الحقيقة، ولكن في ذات الوقت يُعطيه القوة لمواصلة الحياة. وعبر Orville Kelly عن صفة الرجاء الشجاع بالقول:"أنا لا أعتبر نفسي بأنني سأموت بالسرطان، ولكنني على الرغم من ذلك، مازلت حياً. ولا أنظر إلى كل يوم على أنه يُقربني للموت، بل يوم آخر للحياة لكي أستمتع به".

المعاناة الطويلة

المجموعة التي شاهدتُها في مستشفى العلاج النفسي، كانت لأناس يعانون من أمراض مستعصية لن يشفوا منها، ومثل هذا النوع من المرضى يحتاجون إلى مساعدتنا. وفي كبر السن، تنتشر بينهم الحمى، الجدري، الحمى الصفراء وهي أمراض تُعجِّل بموتهم. ولكن في هذه الأيام، تكاد تتلاشى هذه الأمراض المستعصية. ويشكوا من يعانون من هذه الأمراض تعبًا يستمر معهم. وفي بداية الأمر، لا يهتمون بالمرض لأنهم ينالون قدرا من الاهتمام من قِبل الأصدقاء والمتطوعين. وتملأ البطاقات صناديق بريدهم وكذلك باقات الورد. ولكن بمرور الوقت يقل الاهتمام ويتلاشى تدريجيا.

ويعاني الكثير من الناس بسبب المشاكل التي لا تنتهي. وقالت لي إحدى السيدات المؤمنات إنه كلما ازداد انتشار مرض السرطان في جسدها، نُقِص عدد زائريها وهذا يُشعرها بالخوف والوحدة. ويتضايق بعض المؤمنين عند شعورهم بأن صلواتهم للشفاء لم تستجب كما لو أنهم

يلومون هذه السيدة. لقد فقدوا الإيمان وابتعدوا عنها، وبدأت هي تشعر بالذنب وكرهت نفسها، هذا بالإضافة إلى متاعب مرضها.

إن اباء الأطفال المولودين بعيوب خلقية يُرددون نفس شكوى هذه السيدة. فبعد ميلاد مثل هذا الطفل، تغمرهم مشاعر الشفقة ولكنها تخبو بمرور الوقت. وكلما ازدادت احتياجات الآباء ومتاعبهم العاطفية، نقصت مساعدتهم. وهذا على نقيض الشخص الذي يُعاني مرضاً مستعصياً، فآباء الطفل المعاق ليس أمامهم هدف معين. فيقبلون مساعدته مدى الحياة بل ويُدبرون من يعتني به حتى بعد وفاتهم.

في القائمة التي كتبها الرسول بولس عن ثمار الروح، من بينها واحدة نترجمها بكلمة "المعاناة الطويلة". وسنفعل حسناً لو أعدنا إحياء هذه الكلمة، والفكرة في معناها الحرفي، ونطبقها على مشكلة "الألم طويل المدى".

ولكن بدلاً من ذلك، يتحدث بعض المؤمنين عن الشفاء المعجزي وليس المعاناة الطويلة، ويجب أن أذكر لماذا تجنبت هذا العنصر الهام من مشكلة الألم. ولم أؤكد هنا في هذا الكتاب على الشفاء المعجزى لسببين. أولاً: لأن هذا الموضوع مدرجٌ في كتب أخرى كثيرة رائعة، تتضمن شهادات حيّة لأناس اختبروا هذا الشفاء. ثانياً، إنني أكتب عن الذين يشعرون أنهم حوصروا بالألم ويسألون الله لماذا. والشفاء الإلهي بعيد عن هذه المشكلة، ولكننا في الحقيقة يجب أن نعترف أنه ليس كل مريض يُشفى شفاءاً إلهيًا. ولنسأل براين سترنبيرج.

وأنا لا أقصد التقليل من قدر الشفاء الجسدي. ولكنني ذكرتُ أن كل شخص شُفي - والذين استخدمهم الله في شفاء آخرين - في النهاية يموتون. ولهذا، فالشفاء لا يزيل مشكلة الألم، ولكنه يؤخرها فقط.

وتُعطي إمكانية الشفاء المعجزي أملاً كبيراً للمؤمن. ومع ذلك، فإذا لم يحدث الشفاء، يتحول هذا الأمل إلى

عائق كبير للإيمان وقد يؤدي إلى الشعور باليأس. وفي خطاب لي من باربرة سوندرويل - وهي شابة كاتبة مشلولة في ولاية مينسوتا - وصفت هذا الأمر وقالت:

"قال لي أحدهم بعد أن أصبحتُ أنا مؤمنة أن الله سوف يشفيني. وبدا لي أنه حقيقي، ولكنني لم أجرؤ على تصديقه. ولأنني لم أقرأ في الكتاب ما يناقض هذا، بدأ الأمل يدب في قلبي، ومن ثم صدقته. ولكن إيماني كان ضعيفاً بعض الشيء، وعندما زارني بعض المؤمنين قالوا لي: "إن الله لا يشفي كل شخص" أو "الألم هو صليب ويجب أن نحتمله" بدأ إيماني يتذبذب. ولم أعد أثق في أن الله سيشفيني.

وعند هذه المرحلة في حياتي، عرفتُ أنه ليس بإمكاني احتمال بقائي على الكرسي المتحرك حتى بقية عمري. ولمعرفتي أن الله لديه القدرة على شفائي ولكنه لن يفعل (هكذا اعتقدتُ) أصابني هذا الاعتقاد بمرارة شديدة. وبدأتُ أقرأ (أشعياء٥٣، و١بطرس٢: ٢٤)، وأتهم الله بأنه يمسك وعد الشفاء أمامي مثل قطعة لحم أمام كلب جائع. وقد أغراني باظهار قوته ولكن لم يسمح لي بالوصول إليها. وهذا بدوره أحدث داخلي شعورًا عميقاً بالذنب لأنه من خلال الكتاب المقدس عرفتُ أن الله إله محب ولكن لا يستطيع الإنسان أن يستجوبه. وعانيت من صراع داخلي حتى أن حالتي الذهنية أصبحت في خطر وفكرت في الانتحار عدة مرات.

وبدأتُ أتعاطى المهدئات حتى أواصل يومي لأنٍ شعوري بالذنب والكراهية والرفض بنوا حائطاً عالياً بيني وبين الله. وبدأتُ أعاني من الصداع وآلام في عيني ولم يتمكن طبيب العيون أن يعرف سبباً لذلك.

وواصلتُ الصلاةِ لأنني أعلم أن الله حي، ولكنني أنهي صلاتي بالبكاء والصياح لدى الله. واجتزت

فترة من رثاء الذات والتي كانت مؤذية للغاية. ومرةً بعد الأخرى، كنتُ أسأل الله لماذا لا يشفيني بينما الكتاب المقدس يقول بكل وضوح إن الشفاء هو جزء من خطة الفداء".

وأخيراً، وجَدَت باربرة الشفاء الذهني الذي أزال كل مرارة بداخلها. وهي ما زالت في انتظار الشفاء الجسدي.

وبسبب اختباراتٍ مثل اختبار باربارا، أعتقد أن الأمل في الشفاء يجب أن يُقدَّم بطريقة واقعية. إنه مجرد "أمل ورجاء" وليس ضماناً مؤكداً. فإذا حدث، فعندئذ نحن نتمتع بمعجزة تدعو للفرح. وإن لم يحدث، فإن الله لم يخذلك. إنه يستطيع أن يستخدم عجزنا لكي يخرج منه شيئاً صالحاً. وقد وعد بهذا.

الرجاء الأخير

أما عن الحدود الأخرى للشفاء - الخوف، العجز، المعنى .. فلدى المؤمنين مصادر معينة متفردة في نضالهم من أجل الرجاء. وسوف يتناول الجزء الأخير من هذا الكتاب المساهمات المحددة التي يمكن أن يقوم بها الإيمان المسيحي. ولكن سأكون غير دقيق إن لم أذكر في هذا الفصل أيضاً الرجاء النهائي بالقيامة، الرجاء في عالم جديد ذلك الذي سوف تصبح فيه "مشكلة الألم" مجرد ذكرى بعيدة.

ويثق المؤمن، أنه مهما ازدادت الأمور سوءًا في الوقت الحاضر، فإنَّ وراءها شيءٌ صالح. ويعترف براني بيتيلهيم الذي ظل حياً بعد معسكرات الاعتقال، إن مثل هذا الاعتقاد يُترجم إلى مساعدة حقيقية ويقول: "من الحقائق المعروفة عن معسكرات الاعتقال أن المعتقلين الذين كان لديهم تمسك قوي بالدين والأخلاق استطاعوا أن يحتملوا الحياة هناك أكثر من غيرهم. فإيمانهم - بما فيه الإيمان في حياة أبدية - أعطاهم قوة لتحُمل ما لم يستطع الآخرون تحمله".

ذكرت جوني أريكسون أنها قامت بزيارة مركز للمعاقين

ذهنيًا. وعادة عندما تزور مثل هذه الأماكن وتتحدث إليهم وهي على الكرسي المتحرك تُسحرهم بحديثها. ومع ذلك، فهؤلاء المرضى وهم من مختلف الأعمار لديهم صعوبة في تركيز الانتباه. وعندما وصلت جوني في حديثها عن وصف السماء وما ستكون عليه، فقدوا التركيز والاهتمام تماماً.

لقد كان اليوم دافئاً، وكانت جوني تشعر بالعرق يتصبب منها وهي تحاول الاستمرار في الحديث. وأخيراً - وفي يأس - قالت: "والسماء هي المكان الذي ستحصلون فيه على عقول جديدة" وحالما انتهت من كلماتها، شعرت بالأسف لأنها خشيت أن تكون هذه الكلماتُ قاسيةً عليهم. ولكنها فوجئت بأن الجو السائد في الغرفة تغير.. ودوت الغرفة بالتصفيق وصيحات الفرح.

لقد عرَّفتهم جوني بأن لهم رجاء. فهم - أكثر من أي شخص آخر - يعرفون بأن عقولهم ناقصة. ولكنها تمسكت بوعد الله بمكان لا يوجد به أي نوع من الضعف بل شفاء كامل. ويذكر بولس أهل فيلبي (٣: ٢٠ - ٢١) "فإن سيرتنا هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلصا هو الرب يسوع المسيح. الذي سيغير جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء".

نحن المؤمنون في الغرب الذين لدينا الكثير من التقدم العلمي، نشأنا خجولين من الحياة ومن تأكيد إيماننا على الخلود والمكافآت في الأبدية. وأسمع عظات قليلة تتحدث عن إكليل الحياة وإكليل البر. فثقافتنا تُعلن لنا أن المعاناة هي حقيقة وأن الخلود بعد الحياة مجرد أمل كاذب.

هل لدينا أي رجاء أكيد نقدمه لمشلول أو أم لها طفل معاق ذهنيًا؟ وهل الرجاء بحياة أبدية وشفاء أبدي هو رجاء ذي قيمة؟ ولكي أجيب على هذا السؤال يجب أن أحكي لكم قصة مرثا - واحدة من المجموعة التي تسمى Make Today Count - وتُلخص قصتها كل ما تعلمته

طوال عام كامل قضته مع هذه المجموعة.

جذبت مرثا انتباهي منذ أول اجتماع. وظهرت علامات المرض على الباقين: شعر قليل، بشرة شاحبة، أطراف مفقودة، ارتعاش لا يمكن السيطرة عليه. أما مرثا، فلم تُعان شيئاً مما ذكرتُه. كان عمرها ٢٦ عاماً وجذابة للغاية. وتساءلتُ ما إذا كانت مثلي تقوم بزيارة للمكان.

وعندما جاء دورها للكلام، قالت إنها أُصيبت بمرض Lou Yehrig أو ALS ومات والدها بنفس المرض منذ عام، وكذلك مات عمها بنفس المرض منذ عامين. ويندر أن يكون مرض ALS وراثياً، كما يندر أن يُصيب الشابات، ولكنها أصيبت به.

وهذا المرض يُدمر الأعصاب. وفي البداية، يهاجم الحركات الاختيارية مثل التحكم في الأذرع والسيقان ثم الأيدي والأقدام. ثم ينتقل إلى الحركات اللاإرادية وأخيرًا، يُعيق التنفس حتى أنه يمكن أن يسبب الموت. وأحياناً، يستسلم جسد الشخص بسرعة وأحياناً لا. وعاش أقرباء مرثا لمدة عامين يقاومون المرض. وتعرف مرثا كل تفاصيل المرض.

وقمت بزيارة هذه المجموعة في شهر مارس. وفي شهر أبريل، وصلت مرثا للمكان وهي على كرسي متحرك. وكانت تستطيع المشي ولكن بصعوبة شديدة، ولهذا فقدت وظيفتها التي كانت في مكتبة الجامعة.

وفي شهر مايو، فقدت مرثا القدرة على تحريك ذراعها الأيمن ولم تتمكن من استخدام العكاز. وعلمها الطبيب النفسي كيف تلتقط الأشياء من على الأرض بإستخدام عصا المكنسة. وكانت تدير الكرسي المتحرك بصعوبة شديدة.

وفي شهر يونيه، فقدت القدرة على استعمال الذراعين، وكانت بصعوبة شديدة تحرك يد التحكم في كرسي كهربائي جديد. ولأنها كانت تحتاج إلى رعاية طوال اليوم نُقلت إلى مستشفى إعادة التأهيل.

وبدأت زيارتها بالمستشفى. وسرت معها وأنا أدفع كرسيها المتحرك لفترات قصيرة، وأحياناً كنت آخذها إلى اجتماعات المجموعة. وعلمت بمدى الإهانة التي تشعر بها كنتيجة لمعاناتها. وتعلمت أن أفحص أطراف أصابعها قبل وضعهم في الحذاء، ثم أغلق يدها وأضعها بحذر داخل أكمام الجاكيت. ولم يكن من السهل عليّ أن أضع مرثا التي تزن ١٢٥ رطلاً على الكرسي.

وأحتاجت مرثا إلى المساعدة في كل حركة: ارتداء الملابس، ووضع رأسها على المخدة، تنظيف السرير. وعندما تبكي، لابد من وجود شخص يمسح دموعها ويضع منديلاً على أنفها. وكان جسدها في ثورة كاملة ضد إرادتها إذا لم يطع أوامرها.

وفي بعض الأحيان، كنا نتحدث عن الموت والرجاء. وأعترف بأن الرجاء المسيحي بالحياة الأبدية، والشفاء والقيامة هي كالدخان الذي يختفي سريعاً بالنسبة لواحدة مثل مرثا. إنها لم ترغب في أجنحة ملائكية، بل في ذراع يتحرك بجانبها، وفم لا يسيل لعابه، ورئتين قادرتين على التنفس. وأعترف أن حديثي عن الأبدية غير ذات موضوع بالنسبة لمرثا والمعاناة التي كانت تشعر بها.

بالطبع كانت تفكر في الله ولكنها تجد صعوبةً في التفكير في محبته. وكانت ترفض أي نقاش عن الموت، وتُصر على أنها ستتجه إلى الله بسبب جهالة وليس لخوفها منه. وكيف يمكنها أن تحب إلهًا فعل كل هذا بها؟

وفي شهر أكتوبر، بدا أن المرض سوف يحكم قبضته بسرعة على مرثا. وكان عليها أن تمارس التنفس بآلة تشبه اللعبة البلاستيكية، تنفخ فيها بكل قوتها لتحدث فقاقيع زرقاء بداخلها. وأثناء هذا التمرين، كانت تتحدث عن ما الذي تفضل أن تفقده أولاً، هل تفقد صوتها أولاً أم أنفاسها. وقالت إنها تفضل أن تفقد رؤيتها أولاً، لأنها لا تحب أن تموت خرساء ولا تستطيع أن تعبر عن نفسها.

وبسبب قلة الأكسجين الذي يصل إلى المخ كانت مرثا

تنام أثناء المناقشة. وفي بعض الأحيان، كانت تستيقظ بالليل وهي تكاد تختنق ولا يمكنها أن تطلب المساعدة. وبالرغم من الصعوبات التي واجهتها مرثا، تمكنت من عمل رحلتها الأخيرة إلى منزل والدتها القريب. فكانت تُعد نفسها للنهاية.

ولتنفيذ هذا الأمر، كانت مرثا تحتاج إلى أسبوعين للبقاء في شقتها بشيكاغو لكي تدعو صديقاتها واحدة تلو الأخرى لكي تودعهم قبل موتها. ولكن كان هذا الأمر يمثل مشكلة صعبة للغاية لأنها كانت تحتاج إلى من يعتني بها طوال اليوم. وكان يمكن هذا في المستشفى الحكومي وليس في المنزل.

وقدمت مجموعة واحدة فقط في شيكاغو الاستعداد بالرعاية المجانية التي تحتاجها مرثا وهي مجتمع مسيحي في إيفانستون يدعى Reba Place Fellowship ومن بين هذه المجموعة واحدة تدعى Sara وهي مشلولة وتعرف جيداً مدى الألم والحزن الذي يعاني منه الشخص العاجز. وبتأثير سارة، قَبِل الاجتماع كله مساعدة مارثا وتطوعوا لتلبية كل رغباتها.

ورتبت ستة عشر سيدة ظروفهن لخدمتها. وقسَّمن أنفسهن لمجموعات في جداول منتظمة، وكلفن آخرين للعناية بأطفالهن، وكن يذهبن لشقة مرثا اثنتين اثنتين. وشارك ١٧ آخرون الصلاة من أجل مرثا. وصلوا من أجل حدوث معجزة لشفائها، ولكنهم أيضاً صلوا من أجل السيدات اللائي كن يخدمنها في حالة استمرارها هكذا..

ومكثت ١٦ سيدة مع مرثا يستمعون إلى هذيانها وشكواها، ويحمونها، ويضعونها على الكرسي المتحرك، ويجلسون معها طوال الليل ليستمعوا إلى تنفسها ويُصلون من أجلها، إذ أنها قد استحوذت على حبهم جميعًا. وكانوا على استعداد لتهدئة خوفها ولم تعد تشعر أنها عاجزة وساعدوها في معاناتها. وكانوا بمثابة جسد المسيح بالنسبة لمرثا.

ولكنٍ هؤلاء السيدات قد شرحن الرجاء المسيحي لمرثا. وأخيراً، عندما رأت مرثا محبة الله تجسدت في هؤلاء السيدات ـ في وقت كانت تشعر بأن الله لا يحبها ويقسو عليها ـ قبلت الرب يسوع وقدمت حياتها في ثقة لمن مات من أجلها. ولم تأت إلى الله خوفاً منه، بل لأنها وجدت محبته أخيراً. وفي خدمة مؤثرة للغاية في إيفانستون شهدت بإيمانها وتعمدت.

وفي عام ١٩٨٣ قبل عيد الشكر بيوم واحد ماتت مارثا. وعندما توقف هذا الجسد عن العمل، تركته مرثا. ولكن مرثا تعيش الآن في جسد جديد كامل الصحة والانتصار. إنها تعيش على أساس الانتصار الذي حققه الرب يسوع وبسبب جسد المسيح الذي خدم مارثا في اجتماع Reba Place ، الذي عرفها بهذا الانتصار. وإن لم نُصدق هذا، وإن لم يدفعنا رجاؤنا في المسيح أن نقدم هذا الحق لعالم ميت في خطاياه، عندئذٍ ينطبق علينا قول الرسول "إننا أشقى جميع الناس".

الجزء الخامس

كيف

يساعدنا

الإيمان؟

''الله يبكي معنا لكي نضحك معه في يوماً ما''

جورجين مولتمان JÜRGEN MOLTMANN

١٨

ليرى بنفسه

كل ديانة سواء كانت البوذية، الهندوسية، الإسلامية أو ديانة العصر الجديد يجب أن تناقش مشكلة الألم بطريقة أو بأخرى. فكثير مما قدمته حتى الآن ـ قيمة الألم لجسم الإنسان، وكيف نستعد لمساعدة بعضنا البعض من خلال الألم ـ ينطبق على كل الناس، بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. ولكن ماهو الفرق الذي يُحدثه الإيمان المسيحي على وجه الخصوص؟ ماهي المصادر التي يمكن للمؤمنين أن يستندوا عليها؟

وهذا السؤال يعيدنا إلى السؤال الذي سألناه في البداية: ''أين الله في وقت الألم؟'' إنه السؤال الذي سأله C.S.Lewis، وكلوديا كلاكستون، وممثلة السينما التي مات حبيبها في قارب، وجوني أريكسون، وبريان ستيرنبرج، وكل من بقى على قيد الحياة من الذين كانوا في معسكرات الاعتقال النازية. إنه سؤال يسأله كل الذين يعانون. أين الله؟ ماهو شعوره إزاء أزمتي؟ هل هو يهتم؟

طائر القنبرة على جناحه

والقوقع على شوكته

والله في سمائه

كل شيء على ما يرام في العالم

كتب هذه الكلمات روبرت براونيج في منتصف القرن التاسع عشر، فترة كانت مليئة بالتفاؤل. ولكن بعد حربين عالميتين، وبعد هجومين بالقنبلة الذرية، والعديد من ممارسات الإبادة الجماعية، والمجاعات حول العالم، قليل من الناس سيقولون الآن: "كل شيء على ما يرام في العالم". أمر سيىء، فيبدو الله جالساً في سمائه بالرغم من كل الأخطاء الحادثة في العالم. لماذا لا يفعل شيئاً؟

صيحة عامل المزرعة

لنسمع شكوى عصرية ضد الله من فم أم فلاحة مهاجرة (سجلها المؤلف والطبيب النفسي روبرت كولز).

"في السنة الماضية ذهبنا إلى كنيسة صغيرة في نيوجيرسي.. وكان معنا كل أطفالنا بمن فيهم الطفل الصغير. وكان هناك القس جاكسون - ولا أستطيع أن أنسى اسمه - الذي طلب منا الهدوء، وقال لنا إننا يجب أن نكون سعداء لأننا في بلد مسيحي وليس "وثني".

عندئذٍ، فقد زوجي صوابه. وبدأ يصيح، وتوجه للقس جاكسون وطلب منه أن يصمت ولا يتحدث إلى المهاجرين بهذه الطريقة. وطلب منه أن يعود إلى كنيسته التي جاء منها، وأن يتركنا ولا يقف على هذا المنبر ثانية وكأنه يؤدي لنا خدمة بذلك.

ثم فعل زوجي شيئاً سيئاً للغاية: أخذ طفلتنا آني ووضعها أمام وجه القسيس وصرخ بأعلى صوته، ولا أذكر بالضبط الكلمات التي قالها ولكنه قال إننا لم نتمكن من أن نذهب بابنتنا إلى الطبيب رغم

أنها مريضة.. فليس لدينا المال الكافي لا لـ آني ولا للأطفال الباقين ولا لنا نحن أيضاً.

ثم رفع زوجي آني لأعلى وقال لها لماذا لا تذهب وتصلي من أجلها وتطلب من الله أن يعاقب أصحاب الأرض لما يفعلونه معنا ومع كل المهاجرين ... ثم بدأ زوجي في الصياح ضد الله ونسيانه لنا بينما يهتم بشعوب أخرى في العالم.

ثم أجاب القسيس، وكانت هذه غلطته. قال لنا إننا يجب أن نكون حذرين ولا نبدأ بلوم الله وانتقاده والشكوى له بهذه الطريقة، لأن الله ليس مفروضاً أن يهتم بما يفعله بكم أصحاب الأراضي ولا كيف نعيش على هذه الأرض "الله يهتم بمستقبلكم" هذا ما قاله لنا القسيس، وكاد زوجي أن ينفجر. وصاح لمدة عشر دقائق في وجه القسيس وهو يقول "المستقبل، المستقبل، المستقبل". ثم أخذ آني ودفعها قريباً من وجه القسيس - وبدأت البنت تبكي - وسأله عن "مستقبل" الطفلة، وماذا كان سيفعل إن كان عليه أن يعيش مثلنا، وإن كان "مستقبله" مثلنا.

ثم قال زوجي للقسيس: إنه مثل كل الباقين الذين يستغلوننا ويكونون الثروات على حساب مجهودنا، وأمسك زوجي بـ آني ورفعها بالقرب من الصليب وقال لله أن يوقف استخدام قساوسة ليتحدثوا عنه، وأنه يجب أن يأتي بنفسه ليرانا، ولا داعي "للمبشرين".

وتوقف زوجي عن الكلام، وعاد ليقف بجوارنا، وساد الصمت الكنيسة، إلى أن قال رجلان إن زوجي على صواب ... وصفق له كل من بالكنيسة، وشعرت بالهزل الحقيقي".

وتُلخص هذه العائلة المهاجرة مشكلة المعاناه كما يمكن أن يُعبر عنها. لماذا يسمح الله في هذا العالم بأطفال مرضى،

وفقر، ويأس؟ فالكارثة التي يعانون منها ليست شيئا مجردا وفلسفيا ولكنها شخصية بالدرجة الأولى: فابنتهم آني تتألم ولم يجدوا حلاً لذلك. هل الله يهتم؟

لا شيء مما أقوله في هذا الكتاب أو في غيره يمكن أن يحل مشكلة هذه الأسرة المهاجرة. لقد صرخوا طلباً لاستجابة محبة وليس لحل نظري. ولكن الرجل الغاضب في حماسته أشار إلى المشاركة الرئيسية للمسيحية تجاه مشكلة الألم. فعندما أمسك بالطفلة ووضعها أمام وجه القسيس ثم بالقرب من الصليب، طلب من الله أن ينزل ليرى بنفسه ما يحدث في هذا العالم. وأضاف الرجل قائلاً إنه لا يكفي أن يترك الله المبشرين يتحدثون عنه.

ولكن الحقيقة أن الله أتى فعلاً. فقد جاء إلى العالم في جسد إنسان، ورأى وشعر بكل ما يحدث في العالم. وبعيداً عن التجسد، فلدى إيماننا القليل الذي نقوله للفلاحين.

الإحتفاظ بقوانينه

تساءلت بعض شخصيات العهد القديم مثل أيوب وأرميا بصوت مرتفع عن ما إذا كان الله "يسد أذنيه" عن سماع صيحات آلامهم. لقد وضع الرب يسوع نهاية غير متوقعة وحاسمة لمثل هذه التأملات. فالله لم يسد أذانه فقط بل وأيضاً طبلة أذن البشر الآخرين. فعلى سهول فلسطين الترابية، سمع ابن الله أنين البشر: من المرضى والمحتاجين ومن آخرين يئنون من الظلم والذنب أكثر منه من الألم.

لنركز بذهن صاف وتفكر للحظة في حياة يسوع. إنه الشخص الوحيد في التاريخ الذي استطاع أن يخطط لميلاده. ومع ذلك، تواضع وترك مجده وأخذ صورة جسد ضعيف من دم ولحم وخلايا عصبية. ويقول الكتاب إنه اجتاز في كل تجاربنا. فجرّب الوحدة، والتعب، والجوع، وجربه الشيطان، وأحاط به المتطفلون، واضطهده الأعداء الأقوياء.

أما عن مظهره الجسدي، فهناك وصف واحد للرب

يسوع في الكتاب المقدس، كتبه أشعياء من قبل أن يولد المسيح بمئات السنين: "لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومخذول من الناس رجل أوجاع ومختبر الحزن وكمستر عنه وجوهنا فلم نعتد به" (٥٣: ٢ - ٣).

وعندما بدأ يسوع خدمته، صاح الناس باستهزاء "هل من الناصرة يخرج شيء صالح؟" وقالوا عنه إنه شخص ريفي أخرق من الناصرة. وإذا تمسكنا بهذه السمعة عنه نجد أنه انجذب نحو المرفوضين: البرص، والعاهرات، وجامعي الضرائب (العشارين) والمشلولين وسيِّئي السمعة من الخطاة.

وفي إحدى المرات، طرده أهل مدينة من المدن وحاولوا قتله. وحتى أقرباؤه شكوا في قدراته العقلية. وقال عنه القادة في تلك الأيام إنه لا أحد من السياسيين أو القادة الدينيين يصدقه. وكان أتباعه مجموعة من الصيادين والفلاحين. وفي النهاية، باعه أحد تلاميذه كما لو كان إرهابياً.

لا توجد هناك ديانة أخرى - لا يهودية، ولا هندوسية، ولا بوذية ولا إسلام - تقدم هذه المشاركة المتفردة لإله كلي القدرة الذي يُبدي كل استعداد بأن يضطلع بكل معاناة خلائقه. وكتبت دوروثي سويرس ما يلي:

"مهما كان السبب أو الصورة التي اختار الله أن يخلق الإنسان عليها - محدود القدرات ويعاني ويتعرض للحزن والموت - فلديه (الله) الأمانة والشجاعة ليقدم له الدواء. ومهما كانت المباراة التي يلعبها الله مع خليقته، فقد احتفظ وطبّق كل قوانينه ولعب لعبا نظيفاً وعادلاً. ولم ينتزع شيئاً من الإنسان ولكن أبقاه لنفسه. واجتاز في كل التجارب الإنسانية من التوترات الأسرية التافهة، ومتاعب العمل الشاق والحاجة إلى المال، ورعب الألم والإذلال، والهزيمة واليأس وأخيراً الموت. لقد أخذ صورة إنسان وقام بنفس الدور. وُلد في فقر

ومات ملعونا وكان يثق أن الأمر يستحق كل هذه المعاناة".

وحقيقة أن المسيح جاء إلى الأرض حيث عانى الكثير ثم مات ليزيل الألم من حياتنا ولكي يظهر أن الله لا يجلس عاطلاً ويراقبنا ونحن نعاني في وحدتنا. لقد أصبح واحداً منا. ولهذا - في المسيح - اقترب الله جداً منا وعرفنا بمدى اهتمامه بالمعاناة الإنسانية. وفي الحقيقة، يجب أن تكون كل أسئلتنا عن الله وعن معاناتنا من خلال معرفتنا بشخص المسيح.

كيف استجاب الله وهو على الأرض لمن كان متألماً؟ عندما التقى بشخص متألم، تحركت مشاعره بكل عواطف المحبة وبعمق نحو مثل هذا الشخص. فلم يقل ولا مرة واحدة: "تحمل جوعك! أو احتمل أحزانك". وعندما مات لعازر صديق يسوع، بكى. كثيراً - وفي كل مرة طلب منه - كان يشفي الألم. وفي بعض الأحيان، كان يخالف التقاليد المتأصلة في أعماق الناس ويشفي المتألمين، كما فعل مع نازفة الدم، ولمس البُرصِ غير عابيء بصراخهم "نجس نجس".

إن نموذج استجابة الرب يسوع يجب أن يقنعنا أن الله لا يفرح عند رؤيتنا ونحن نتألم. وأنا أشك في أن التلاميذ كانوا يشغلون أنفسهم بأسئلة مثل هذه: "هل الله يهتم؟" فكانوا يشاهدون كل يوم الأدلة الواضحة لذلك: ويرون كل ذلك في وجه الرب يسوع.

كما أن يسوع نفسه واجه المعاناه وكان رد فعله مثل أي واحد منا. وكان يتراجع عنها وطلب ثلاث مرات وسأل ما إذا كانت هناك طريقة أخرى، ولكن لم توجد، واجتاز يسوع، وربما لأول مرة، آلام ترك الله له: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" وفي وصف الإنجيل لليلة الأخيرة ليسوع على الأرض، صارع مع الخوف والعجز والرجاء، وهي نفس الحواجز التي نواجهها جميعاً في معاناتنا.

إن سجل حياة المسيح على الأرض يجب أن تُجيب وإلى

الأبد على أسئلتنا، كيف يشعر الله إزاء آلامنا؟ والإجابة، الله لم يُعطنا مجرد كلمات ونظريات على مشكلة الألم، بل أعطانا نفسه. الفلسفة قد توضح أموراً صعبة، ولكن ليست لديها القوة لتغيرها. ويعد الإنجيل - وهو قصة حياة يسوع - بالتغيير.

الصلب

الحب قاسٍ كالمسامير
الحب هو المسامير:
غير حادة، سميكة، وتطرق
أعصاب الشخص الذي صنعنا
ويعرف الشيء الذي صنعه،
ويرى (في كل ما يحدث)
صليبنا وصليبه.
"الحب دافيء كالدموع"، سي. إس. لويس

يوجد رمز واحد مركزي من خلاله نتذكر الرب يسوع. واليوم طليت هذه الصورة بالذهب، ووضعت حول عنق السيدات الجميلات والرياضيين، كمثلٍ على كيفية إمكاننا تفسير الحقيقة الفجة للتاريخ. وكان الصليب شكلاً من أشكال حكم الإعدام. وسوف يكون الأمر أكثر غرابة لو عملنا شكلاً ذهبياً في صورة كرسي كهربائي صغير، أو غرفة غاز، أو إبرة تحت الجلد، وهي الوسائل الحديثة والمفضلة لتنفيذ حكم الإعدام.

ويقدم الصليب - وهو الرمز العالمي للديانة المسيحية - برهاناً على أن الله يهتم بمعاناتنا وآلامنا. فقد مات على الصليب. ويقف هذا الرمز متفرداً بين كل ديانات العالم. فلدى الكثير منها آلهة، ولكن واحدة فقط لديها الله الذي أخذ صورة إنسان ومات من أجل الإنسان.

لقد أُعيد سرد منظر الصلب كثيراً - بالضربات والطعنات والتعذيب البطئ والاختناق - حتى أننا نحن الذين ننزعج من أخبار عن موت حصان سباق أو وفاة طفل، لا نخشى من سماعها مرة ومرات. وعلى نقيض الإعدام السريع

الذي نعرفه اليوم، استمر صلب المسيح لمدة أربع ساعات أمام جمهور ساخر. التي أعطاها يسوع تتلخص في تلك الأيام بدت وكأنها شيء فارغ ولا يُصدق. هل هذا الرجل هو ملك؟ ملك بإكليل من الشوك يستحق السخرية. وألقى شخص ما روبًا قرمزيًا على المسيح، ولكنه التصق بالدماء التي سالت على جسده بسبب الجلدات التي أمر بها بيلاطس.

هل هذا الإنسان هو الله؟ حتى بالنسبة لتلاميذه - الذين اتبعوه لمدة ثلاث سنوات - كان من الصعب عليهم أن يصدقوه. لقد تراجعوا وسط الجمهور وخافوا أن يتعرف عليهم أحد. وتحولت أحلامهم بحاكم قوي حوّل معاناتهم إلى كوابيس.

إن موت الرب يسوع هو حجر الزاوية للإيمان المسيحي، وأهم حقيقة في مجيئه. وتمتلئ الأناجيل بكل تفاصيله. لقد سرد العديد من الإشارات والتنبوات خلال خدمته والتي فُهمت بعد موته.ماهي المشاركات الممكنة لمشكلة الألم التي يمكن أن تقدمها عقيدة مبنية على حادثة واحدة مثل الصليب، حيث تعرض الله نفسه للألم؟

وقد أطلق الرسول بولس على الصليب "صخرة عثرة" للإيمان، وقد أثبت التاريخ ذلك. وشك الكهنة اليهود في ذلك وقالوا كيف أن الله الذي لم يحتمل أن يرى إبراهيم يذبح ابنه يسمح لابنه بأن يموت. والقرآن أيضاً يعلم بأن الله - رحيم للغاية حتى أنه لم يسمح للمسيح بأن يُصلب - جاء بشبيه للمسيح وصُلب مكانه. وحتى في أيامنا هذه، وضح فيل دوناهو - وهو شخصية تلفزيونية معروفة - اعتراضه الرئيسي على المسيحية وتساءل: "كيف يسمح الله وهو كلي المعرفة وكلي المحبة بأن يصلب ابنه على الصليب لكي يفتدي خطاياي؟ وإذا كان الله الآب "كلي المحبة" فلماذا لم يأت هو ويذهب للجلجثة؟

وكل هؤلاء المعترضين نسوا النقطة الرئيسية في الإنجيل، إنه بطريقة غامضة جاء الله نفسه إلى الأرض

ومات من أجل البشرية. فالله في السماء لا يقف مكتوف الأيدي ويراقب الأحداث المأسوية التي تحدث على الأرض. فقد تجلى في المسيح مصالحاً العالم لنفسه. وكما قال لوثر: إن الصليب أظهر أن الله يتصارع مع الله: فإذا كان المسيح مجرد إنسان عادي، فسيثبت مدى قساوة الله، ولكن لأنه ابن الله، فهذا يبرهن أن الله يتفهم ويجاوب مع معاناة البشر. وعلى الصليب، امتص الله نفسه الآلام المخيفة لهذا العالم.

وبالنسبة للبعض، كانت صورة الجسد الشاحب النحيل الذي يُضيء في ليلة مظلمة يُنبيء بالهزيمة. وأن الله لم يتمكن من التحكم في آلام ابنه. ولكن يقول آخرون: إنها صيحة إله للبشرية يقول لهم "أنا أحبكم". لقد تركزت المحبة لكل التاريخ البشري في المسيح الذي كان على الصليب، الذي قال إنه يستطيع أن يستدعي ملائكة في أية لحظة لكي يُنقذوا خدمته وإرساليته، ولكنه لم يفعل ذلك لأجلنا نحن. وفي الجلجثة، قبل الله شروطه التي وضعها هو للعدالة السماوية.

ولهذا، فالصليب - الذي يعتبره البعض حجر عثرة - أصبح حجر الزاوية للإيمان المسيحي. وأي نقاش عن كيف أن الألم والمعاناة موجودان في خطة الله، الذي يقودنا في النهاية إلى الصليب.

وفي نهاية سفر أيوب، أجاب الله على أسئلة المعاناة التي وجهها أيوب بأن أعطاه محاضرة رائعة عن قوته. ولكن بعد الجلجثة، تحول التأكيد من القوة إلى الحب:

"لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو٣: ١٦).

"إن كان الله معنا فمن علينا؟ الذي لم يشفق على إبنه بل بذله لأجلنا أجمعين. كيف لا يهبنا معه أيضاً كل شئ؟" (رومية٨: ٣١- ٣٢).

ما أهمية ذلك؟

تحدثت مرة مع قسيس قام للتو بمراسيم جنازة لطفلة تبلغ من العمر ٨ سنوات. وكانت أارشيته قد قامت بالصلاة والبكاء والمشاركة لأسرة الطفلة في أحزانها لأن الطفلة كانت تصارع مرض السرطان. وقد وترت الجنازة العواطف والطاقة وحتى إيمان القسيس نفسه. وقال لي: "ما الذي يمكنني أن أقوله لهذه العائلة؟ ليس لديّ أي حل لأقدمه لهم؟ ليس لديّ حل لآلامهم، بل لديّ إجابة واحدة، ويسوع هو هذه الإجابة".

إن موت وقيامة الرب يسوع تعطي أكثر من مجرد إجابة لاهوتية لمشكلة الألم. والموت والقيامة يقدمان لنا أيضاً معونة فعلية وعملية في نضالنا مع الألم. وقد تعرفت على أربع طرق على الأقل والتي فيها تلك الأحداث (الموت والقيامة) ـ والتي عمرها الآن ألفي عام ـ لها أثر مباشر على معاناتي الشخصية.

تعلمت أن أحكم على الحاضر بالمستقبل

قال رجل حكيم يدعى جو بايلي: "لاتنسَ في الظلام ماتعلمته في النور". ومع ذلك، فقد تزداد شدة الظلمة حتى أنه يصعب علينا تذكر النور. وهذا ما حدث مع تلاميذ المسيح.

وفي لقاء المسيح مع تلاميذه أثناء العشاء الرباني، أعلن لهم يسوع ما يلي: "في العالم سيكون لكم ضيق. ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم" (يو١٦: ٣٣). وأستطيع أن أتخيل مدى العبء الثقيل الذي وُضع على كاهل التلاميذ عندما سمعوا هذا الكلام من شفتي الرب يسوع نفسه وهو الله الظاهر في الجسد. وفي تلك اللحظة، كرس أحدَ عشرَ تلميذاً حياتهم له، وفيما بعد في تلك الليلة، أشهر سمعان بطرس سيفه دفاعاً عن يسوع.

ومع ذلك، ففي اليوم التالي، فقد التلاميذ إيمانهم. ولابد

وأن تلك الكلمات التي سمعوها الليلة الماضية قد سيطرت عليهم وهم يراقبونه ـ من على بعد ـ وهو يتعذب على الصليب. وكان يبدو وكأن العالم قد انتصر على الله. وانسحب التلاميذ في الظلام. وأقسم بطرس أنه لا يعرف الرجل.

لقد كانت مشكلة التلاميذ هي في المنظور. صحيح أنّ ذاكرة الضوء الذي من الماضي خمدت، ولكن بعد أيام قليلة انبهر هؤلاء الرجال بضوء القيامة المبهر، وفي ذلك اليوم تعلموا أنه لا تقوى أية ظلمة على الله. وتعلموا معنى الحكم على الحاضر بالمستقبل. وبعد أن اشتعل بداخلهم نورُ القيامة، تحوَّل هؤلاء الجبناء سابقاً إلى العالم وغيرَّوه.

واليوم يحتفل نصف العالم بالجمعة العظيمة والقيامة. فيوم الجمعة الذي كان مظلماً، أما يوم عظة االأحد، فهو يمثل للمؤمنين المسيحيين الأمل في أنَّ الله سوف يُعيد هذا الكوكب إلى مساره الصحيح وتحت سلطانه، وأنَّ معجزة القيامة سوف توسع مدى هذا الكون.

إنه لأمرٌ جيد أن نعيش أيامنا بروح القيامة، عندما نواجه الظلام، والأوقات المزعجة. كما قال الرسول بولس: "إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا" (رومية٨: ١٨). وأعتقد أنها ليست صدفة أن يتحدث يسوع بكلمات النصرة. "أنا قد غلبت العالم" حتى عندما أمسك الجنود الرومان بأسلحتهم للقبض عليه. لقد كان يعرف كيف يحكم على الحاضر بالمستقبل.

تعلمت نموذج الألم المتحول

تشملُ المسيحية في داخلها على متناقضاتٍ ظاهرية، قد تحمل معانيَ قليلة وبعيدة عن حياة يسوع. وموته. ولنفكر في تناقض واحد أشرت إليه من قبل في هذا الكتاب: فمع أن الفقر والمعاناة "أمور سيئة" أمضيت حياتي في محاربتها، إلا أنّهَ في ذات الوقت يُمكن أن ندعوها "بركة". وهذا النموذج الذي فيه يتحول الشر إلى خير يتحقق كاملاً في

الرب يسوع. فقد طبّق هو هذا النموذج على نفسه لكي يُوضح لنا كيف يُمكن أن يحدث ذلك. وأعطانا مثلاً يريدنا نحن أن نتبعه في حياتنا.

وقدّم لنا الرب يسوع المثل الكامل لكل الدروس الكتابية عن الألم. ولهذا، فمن الخطأ أن أقول عن شخص ما "لابد وأنه يتألم بسبب خطية ارتكبها". فيسوع الذي لم يخطيء، هو أيضاً تألم. ولم يعدنا الله بأن العواصف سوف تبتعد عن بيوتنا وتعصف ببيوت جيراننا الذين يعبدون الأصنام، وأن الميكروبات سوف تبتعد عن أجساد المؤمنين. فنحن لا نُستثنى من مآسي هذا العالم، كما حدث مع يسوع. وتذكر أن يسوع انتهر بطرس عندما قال له: "حاشاك يارب. لا يكون لك هذا ..." (متى١٦: ٢٢ - ٢٥).

وقد نشعر بأن الألم إساءة من الله لنا، وهذا ما حدث للرب يسوع، الذي أجرى معجزات شفاء كثيرة. وفي جثيماني، لم يُصل هكذا، "اشكرك لأجل فرصة الألم هذه" ولكنه توسل لكي يعبر عنه هذا الألم. ومع ذلك، كان راغباً في تحمُّل هذه المعاناة لخدمة هدف أسمى وأعظم. وفي النهاية، ترك الأسئلة الصعبة لإرادة الآب، ووثق أن الله يستطيع أن يستخدم آلام الموت للخير.

وكما قال كرنيليوس بلا نتينجا Cornelius Plantinga:
"نحن لا نحيل بعضنا البعض إلى صليب المسيح لكي يوضح لنا الشر الذي يحدث. كما لو أننا عندما نتأمل في الجلجثة، سوف نفهم سبب سرطان الزور، بل بالحري نرفع عيوننا نحو الصليب، من حيث يأتي عوننا، لكي نرى أن الله يشاركنا آلامنا ولهذا نثق فيه". وعبر التاريخ البشري كله، تحمَّل الله أسوأ ما يمكن أن يحدث - موت ابنه البار - وحوّله إلى نصر كامل على الخطية والموت. إنه عمل لم يسبق حدوثه، فقد حوّل خطة الشر للخير، عمل يحمل وعداً لجميعنا. فآلام الصليب التي لا تُحتمل قدمت لنا فداءاً أبدياً "بحبره شفينا" (أش٥٣: ٥) وبضعفه نلنا قوة.

كيف كان العالم يبدو مختلفاً لو أن الرب يسوع جاء في

صورة إنسان خارق للطبيعة ومُستثنى من كل ألم؟ وماذا لو لم يكن قد مات ولكن صعد إلى السماء أثناء محاكمته أمام بيلاطس؟ ولأنه لم يستثن نفسه، ولكنه تعمد أن يحتمل أسوأ ما قدمه العالم، فبذلك يعطينا الرجاء في أن الله يمكن أن يحول المعاناة التي يجب أن يواجهها كل شخص. وبموته وقيامته، يمكننا أن نقول بكل ثقة إنه ولا تجربة - مرض، طلاق، بطالة، إفلاس، حزن - تفوق قدرة الله لكي يحولها لخيرنا.

وتسجل الأناجيل الأربعة لحظة واحدة فقط فيها خاطب التلاميذ المسيح كإله بطريقة مباشرة. وذلك في نهاية إنجيل يوحنا بعد موت المسيح وقيامته. فكل التلاميذ الآن يؤمنون في المسيح المقام فيما عدا توما، الذي قال إنه لن يؤمن إلا إذا وضع أصبعه في أثر المسامير ويضع يده في جنبه. وظهر لهم المسيح والأبواب مغلقة. ورآه توما فصرخ "ربي وإلهي". وكانت الجروح هي معجزة المعجزات.

تعلمت معنى جديد للمعاناة

يبدو أن مؤمني العهد القديم الأتقياء صُدموا عندما صادفتهم المعاناة في طريقهم، فقد توقعوا أن يكافيء الله أمانتهم بالرفاهية والراحة. ولكن العهد الجديد يوضح لنا تغيرًا ملحوظاً، إذ توقع الذين كتبوه عكس ذلك. ونصح بطرس المؤمنين الذين يعانون: "لأنكم لهذا دعيتم فإن المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثالاً لكي تتبعوا خطواته" (١بط٢: ٢١).

وتذهب آيات أخرى أبعد من ذلك وتستخدم عبارات لن أحاول شرحها. فتحدث بولس عن "مشاركة آلام المسيح" ويقول إنه يرجو "ويكمل في جسده نقائص شدائد المسيح" وفي النص سنجد أن كل هذه الآيات توضح لنا أن المعاناة يمكن أن يكون لها معنى إن إعتبرناها جزءًا من "الصليب" الذي نحمله عندما نتبع المسيح.

ومع أن الرب يسوع لا يُزيل آلامنا دائماً، لكنه يجعل

لها معنى بالنسبة لنا إذ يمتصها في آلامه هو. ونرجو أن نحقق القصد من فداء الله في هذا العالم كمشاركين معه في المعركة لهزيمة وطرد الشر من هذا الكوكب.

القس هاري بويري الذي خدم لمدة أربع سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية، قضى أيامه الأخيرة من تلك الحرب بين جنود المارينيز في Pacific Theater وكتب ما يلي: "حفِل القسم الثاني من هذه الحرب بآمال كثيرة وخسائر عظيمة. ومع ذلك، لم أرَ رجلاً واحداً أو ضابطاً يشك للحظة واحدة في نتيجة الحرب. ولم أقابل جندياً يسأل لماذا - إذ كانوا متأكدين من النصر - لم نتمكن من إحراز النصر فوراً. إنه كان مجرد سؤال لكي يضربوا بقوة إلى أن يستسلم العدو".

وهنا أرى موقفاً مشابهاً في هذه الكلمات التي تشير بطريقة مستترة إلى المشاركة في آلام المسيح. توجد حرب أعظم وأكبر نحاربها على هذا الكوكب والتي ستقرر مصير كل الخليقة. وتتضمن هذه الحرب صعوبات معينة.

وطبقاً لما قاله الرسول بولس، إنه عند الصليب انتصر المسيح على قوات العالم وهزمهم ليس بالقوة بل بالحب. وأكد الصليب المعنى والناتج النهائي ولكن المعارك ستستمر لكي نحارب فيها. ويكتب بولس آية مهمة "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته" (فيلبي٣: ١٠). معتنقين ومتقبلين الحزن والألم الذي لاقاه المسيح في حياته على الأرض.

ويجب أن ندرك أن الآلام التي نلاقيها هي جروح شرف وكرامة سوف نُكافأ عنها يوماً ما. فلن نعرف - في هذه الحياة - المعنى الكامل لما نقوم به هنا، لأن كثيرًا منه غير معروف أو مرئي بالنسبة لنا. ويُقدم صليب المسيح لنا نموذجاً لهذا أيضاً: فما كان يبدو أمراً عادياً بالنسبة للعدالة الرومانية (الصلب)، أعطى الخلاص لكل العالم.

وعندما يذهب قسيس في جنوب أفريقيا إلى السجن بسبب احتجاج سلمي، وعندما يعمل مصلح اجتماعي

وسط أحياء فقيرة، وعندما يرفض زوجان الاستسلام رغم الصعوبات التي يلاقونها، وعندما ينتظر والدان برجاء متواصل وغفران عودة ابن عاقٍ، وعندما يقاوم شاب محترف إغراءات الثروة والنجاح - فكل هذه المعاناة، الكبير منها والصغير، نجد فيها تأكيدًا لمستوى أعمق من المعنى، وهي المشاركة في انتصار فداء المسيح. "لأن انتظار الخليقة يتوقع استعلان أبناء الله" (رومية٨: ١٩).

إكتسب ثقة بأن الله يفهم حقيقة آلامي

إن معرفتي للمسيح لا تُشعرني بحاجتي للصراخ في البرية لأقول: "أين أنت يا الله... هل مازلت تهتم بي؟" فوجود المعاناة لا يعني أن الله قد نسيني. بل على العكس، فبارتباطه بنا ونحن على الأرض، أعطانا الله برهاناً قوياً وتاريخياً بأنه يسمع لأناتنا بل ويشاركنا إياها. وعندما نحتمل التجارب يقف بجانبنا كالرابع الشبيه بابن الآلهة في أتون النار.

لماذا كان على المسيح أن يتألم ويموت؟ الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى كتاب كامل بل وتحدثوا عنها في كتبٍ كثيرة، ولكن من بين الإجابات التي أعطاها الكتاب هي هذه الإجابة الغامضة: المعاناة هي بمثابة نوع من "اكتساب وتعلُّم خبرة" لله. ومثل هذه الكلمات قد تبدو نوعاً من التجديف، ولكنني أقتبس ما جاء في رسالة العبرانيين.

كتبت رسالة العبرانيين لليهود الدارسين جيداً للعهد القديم. ويحاول كاتب الرسالة أن يوضح لهم أن يسوع "أفضل من الذبائح" وهو مفتاح الرسالة. كيف يكون هو الأفضل من نظام ديني اعتادوا عليه؟ بل وأقوى وأكثر تأثيراً. ولا يعتقد أي عبراني أن يسوع هو الأفضل لأنه وسع الهوة بيننا وبين الله "فمع كونه ابنًا تعلّم الطاعة مما تألم به" (عب٥: ٨). وفي الآية (٢: ١٠) يقول إنّ خلاصنا اكتمل من خلال الآلام.

وهذه الكلمات، التي لا نستطيع أن نسبر غورها، تعني

ما يلي: أن للتجسد معنى بالنسبة لنا وبالنسبة لله. ويدور التاريخ البشري ليس حول خبرتنا بالله بل خبرته هو بنا.

وعلى مستوى واحد، فهم الله الألم الجسدي، لأنه هو الذي صمم الجهاز العصبي العجيب الذي يُحذرنا ضد الألم. ولكن هل هو- وهو روح - شعر بالألم الجسدي؟ لم يحدث هذا إلى أن تم التجسد واختبر الله ذلك عندما أخذ صورة إنسان.

وتعلم الرب يسوع لمدة ٣٣ سنة وهو على الأرض عن الصعوبات والرفض والخيانة. وتعلم أيضاً عن الألم. إذ شعر بمدى الألم عندما ضُربِ على وجهه، وعندما ضُربَ بالسياط التي بها قطع من الرصاص على الظهر، والحربة التي اخترقت العضلات والأوتار والعظام لقد اجتاز ابنُ الله كل هذه الآلام وهو على الأرض.

وبطريقة غير مفهومة - بسبب الرب يسوع - يسمع الله صراخنا بطريقة مختلفة. ويقول كاتب رسالة العبرانيين إن كل ما نجتاز فيه من آلام اجتازه الله نفسه "لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية" (عب٤: ١٥).

إن لنا رئيس كهنة تخرّج من مدرسة الألم "قادر أن يترفق بالجُهّال والضالين إذ هو أيضاً محاط بالضعف" (عب٥: ٢). إن الله يتفهم آلامنا من خلال يسوع. ودموعنا هي دموعه. إننا لسنا متروكين. فالفلاح الذي ذكرناه سابقاً وطفلته المريضة، والطفل ذو الثمانية أعوام الذي يعاني من السرطان، والأقرباء الحزانى في مدينة يوبا، ومرضى البرص في لويزيانا ... لا أحد منهم يعاني بمفرده.

كتب الشاعر الإنجليزي تي. إس. إليوت ما يلي:

الجرّاح المجروح يستعمل المشرط
لكي يُزيل جزءًا قد فسد
وخلف الأيادي التي تنزف دماً
نشعر بالمحبة الفائقة للجرّاح الماهر

وهو يحل غموض مرض الحمى

إن جراحة الحياة تؤلم. ومع ذلك، فهي تساعدني لكي أعرف أن الجرّاح نفسه - الجرّاح الجريح - شعر بكل طعنة ألم وكل أسى وحزن.

"اولئك الذين اختبروا الألم بشكل كبير هم الأكثر حذراً من ترديد العبارات المبتذلة عن المعاناة.. فاختباره السرائري والغامض يأخذ الشخص بعيدًا لفيما وراء عالم الأفكار وينتج اخيرًا نوع من الصمت أو على الأقل تكتم عن التعبير عنه كلمات، العزاء المُمكن يكون فقط أبدي بموقف الاتحاد مع المُعاني".

جون هاورد جريفين

١٩

بقية الجسد

أثناء الثلاث سنوات من الخدمة بين الجماهير، وضع ابنُ الله مشاعره أمام الجميع وكان باستطاعة أي شخص أن يأتي إلى يسوع بمشاكله ومعاناته. وبإمكان أي شخص أن يتبعه، وبملاحظة ردود أفعاله تجاه المرضى والمحتاجين، يمكن أن نجد إجابة واضحة للسؤال: "كيف يشعر الله تجاه ألمي؟".

ولكن يسوع لم يواصل بقاءه على الأرض، وحُرمت الكنيسة من حضوره المادي لحوالي ألفي عام. ولا نستطيع الآن أن نطير إلى أورشليم القدس، أو نستأجر سيارة ونذهب إلى فندق الملك داوود للقاء محدد معه. ماذا عنا نحن الذين نعيش على هذه الأرض الآن؟ كيف يمكننا أن نشعر بمحبة الله؟

ويؤكد الذين كتبوا العهد الجديد على حقيقة صعود ورحيل الرب يسوع، ويكتبون عن هذا الأمر بنوع من العجلة. وقد أعطوا اقتراحين رئيسيين.

في رومية ٨ يقول: "الروح يعين ضعفاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" (رومية٨: ٢٦).

وتوضح لنا الأناجيل أن الله يقف بجانبنا، الله الذي أخذ صورة جسد وسمع أنين البشرية بآذان إنسانية، والرسائل توضح لنا أنّ الله الذي، هو روح غير مرئي يسكن داخلنا ويعبر عن آلامنا بأنات لا ينطق بها.

ولأنني أكتب عن الألم والاكتئاب، تصلني خطابات من أناس يعبرون فيها عن أنينهم الخاص. وأعرف جيداً المشاعر العاجزة التي لا تعرف ما تصلي لأجله، تماماً كما أتخيل ما يفعله كل مؤمن في بعض الأحيان. كيف تصلي من أجل زواج فاشل وصل إلى طريق مسدود؟ أو آباء لديهم طفل يعاني من السرطان؟ أو مؤمنة من نيبال سُجنت بسبب إيمانها بيسوع؟ ما الذي نطلبه؟ كيف نستطيع أن نصلي؟

يعلن رومية ٨ الأخبار السارة عن أننا لسنا بحاجة لأن نعبر بالكلام عما نريده. إننا نحتاج فقط لأن نئن. وبينما أقرأ كلمات بولس هذه تصورت بذهني أماً كيف تترجم صيحات طفلها. فمن خلال خبرات السنين، تعلمت هذه الأم صيحة الجوع، وصيحة لفت النظر، وصيحة ألم الأذان، وصيحة ألم المعدة. بالنسبة لي، كل هذه الصيحات تتشابه ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأم التي تميز بين الصيحات ومعانيها بالغريزة والخبرة.

ولدى روح الله مصادر حساسة أكثر قوة من تلك التي لأكثر الأمهات حكمة. ويقول الرسول بولس إن الروح الذي يعيش بداخلنا يعرف احتياجاتنا ويُعبّر عنها بلغة لا نستطيع فهمها. وعندما لا نعرف ما نصلي لأجله يُملأ الفراغ. إن الله يُسر بضعفاتنا لأن ضعفنا يُظهر قوته.

ولهذا السبب، قال يسوع لتلاميذه إنه من الأفضل لهم أن يصعد هو للسماء. "إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي" (يو١٦: ٧). والآن يحيا الروح القدس بداخلنا كعربون حضور الله. وفي مكانٍ آخر، يُدعى "كوديعة" وضمان لأزمنة طيبة قادمة.

ولكن الروح القدس هو مجرد روح غير مرئي، سريع كالريح لا يمكن لمسه. والسماء بعيدة عنا. ماذا عن هذا الزمن الذي نعيشه الآن؟ ما الذي يؤكد لنا مادياً وبرؤية العين محبة الله لنا هنا على الأرض؟

الإجابة الثانية للعهد الجديد تركز حول: "جسد المسيح" عبارة غامضة استُعملت أكثر من ثلاثين مرة. واستخدمها الرسول بولس للتعبير عن صورة الكنيسة. وعندما انطلق الرب يسوع إلى السماء، تولى بولس الخدمة بين المتعثرين من الرجالِ والنساء. والرب يسوع بدأ بدوره كرأس الكنيسة تاركاً عمل الأذرع والأرجل والآذان والعيون والصوت للتلاميذ ثم لك ولي. وعبّر الشاعر بول كلوديل عن التغيير بهذه الطريقة: "منذ التجسُّد كان للرب يسوع رغبة واحدة: أن يبدأ من جديد حياته الإنسانية التي عاشها. ولهذا، فهو يريد المزيد من البشر الذين يدعوه أن يبدأ مرةً ثانية".

وتوضح القراءة الدقيقة للأربعة أناجيل أن هذا الترتيب الجديد هو ما كان في ذهن يسوع طوال الوقت. لقد كان يعلم أن وقته على الأرض قصير، وأعلن عن خدمته ورسالة تفوق موته وقيامته فقال: "أنا سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (متى١٦: ١٨).

وقرار يسوع لأن يعمل كرأس الكنيسة الغير مرئي، رأس لجسد كبير له أعضاء كثيرون، يؤثر في نظرتنا للمعاناة. وهذا يعني أنه يعتمد علينا لكي نساعد بعضنا البعض لكي نحتمل الألم. وعبارة "جسد المسيح" تعبر جيداً عن دعوتنا: أن نمثل بالجسد ونعمل ما كان يعمله هو وخاصة للمحتاجين.

ولابد وأن الرسول بولس كان في ذهنه شيء مثل هذا عندما كتب ما يلي: "الذي يعزينا في كل ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي نتعزى بها نحن من الله. لأنه كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزياتنا أيضاً" (٢كو١: ٤ - ٥). وقد مارس بولس هذا المبدأ طوال خدمته، يجمع التبرعات للمحتاجين، يرسل مساعديه للمناطق التي تعاني، ويعترف بمواهب المؤمنين كهبات من الله نفسه.

وحدة الألم

شيء يُوَجد أجزاء الجسد معًا مثل شبكة الألم. عندما يصاب ظافر إصبع قدمي، فإنه يُعلن لي أنه هام ويحتاج إلى رعايتي واهتمامي. وإذا داس أحدهم على إصبع قدمي، قد أصرخ من الألم لأنه داس على حاسة الألم التي تُنبهني وتُعطيني حدوداً.

ويُعرف عن الثعالب أنها تقضم إحدى ساقيها الخلفيتين عندما تفقد الحس في برد الشتاء القارس. ويفقدها فقدان الحس هذا وحدة الجسد، وبالتالي لا تشعر بأن هذه الساق تخصها.

هل تذكر الطفلة التي أكلت إصبعها؟ ولعدم قدرتها على الشعور بالألم، ليس لديها الإحساس بأنه أصبعها ويحتاج إلى حمايتها. ويواجه مدمني الخمر والبرص، ومرضى السكر والذين يعانون من مشاكل عدم الحساسية، معركة مستمرة ليكونوا على صلة بأطرافهم.

وعملي مع الدكتور براند أشعرني بمدى أهمية حاجة الجسم للشعور بالألم. وفي جسم الإنسان تدفع خلايا الدم والخلايا الليمفاوية أي غزو مرضي للجسم، إذ يُوقف الجسم كل الأنشطة الغير ضرورية ويُقاتل أي هجوم مرضي قد يصيبه. والشعور بالألم الجسدي هو في قلب هذه الاستجابة الموحدة.

والألم هو الوسيلة التي تجبرني لكي أتوقف عما أعمله

وأنتبه إلى العضو المصاب. فأتوقف عن لعب كرة السلة إذا أصيب كاحلي، وأغير حذائي إذا كان ضيقاً، وأذهب للطبيب إذا تألمت معدتي. وباختصار، فالجسم الذي يتمتع بصحة جيدة هو الذي يشعر بالألم في أضعف أجزائه.

وبنفس الطريقة، نحن أعضاء جسد المسيح يجب أن نتعلم أن نهتم بآلام باقي الجسد. وإذا فعلنا ذلك نصبح تجسيداً للمسيح المقام.

وقد طور د. بول براند هذه الفكرة لتُصبح أساساً لفلسفته وقال:

"على الخلايا الفردية أن تتخلى عن استقلالها وتتعلم أن تعاني مع الخلايا الأخرى قبل أن تظهر خلايا متعددة حية ومؤثرة لتعيش في الجسم. الله هو نفس المصمم - استمر في خلق الجنس البشري بهدف جديد وقصد أسمى في ذهنه. فالخلايا داخل جسم الإنسان لا تتحد فقط مع بعضها البعض، بل أيضاً يتحد الأفراد في الجنس وينتقلون إلى مستوى جديد من المسئولية المجتمعية، لعلاقة جديدة مع بعضهم البعض ومع الله.

وما يحدث في الجسم، كذلك يحدث في هذا النوع الجديد من العلاقة الذي يصبح فيه الإحساس بالألم هو مفتاح النجاح. وكلنا يفرح عندما يعمل الجسد معًا وفقا لمنظومة متفاهمة. ومع ذلك، فقد نشعر بالأسى تجاه العلاقات بين الرجال والنساء. ففي المجتمع الإنساني "نحن نعاني لأننا لا نعاني بالقدر الكافي"".

فالكثير من مآسي العالم تُعزى إلى أنانية شخص لا يهتم عندما يعاني الآخر. وفي الجسم الإنساني عندما تنمو خلية أو مجموعة خلايا وتزدهر على حساب باقي الخلايا، فإنَّ ذلك يسمي بمرض السرطان الذي إذا انتشر يموت الشخص. ومع ذلك، فالبديل الوحيد للسرطان هو الأمانة الكاملة

لكل خلية من خلايا الجسد. والله يدعونا اليوم لأن نتعلم من الخليقة الأقل درجة منا، فننتقل إلى مستوى أعلى من التقدم ونشارك في هذا المجتمع الذي يعده لخلاص العالم.

صيحات وهمسات

من السهل علينا تجنب المحتاجين. ومع ذلك، فخدمة المحتاجين ليست اختيارًا للمؤمن بل إنها أمرُ إلهيُّ. فنحن جميعاً جزء من إجابة الله للذين يعانون في هذا العالم. ونحن كجسد المسيح على الأرض ملزمون بأن نتحرك - كما فعل هو - نحو المتألمين والمحتاجين. وهذه هي حركة الله الدائبة عبر التاريخ كله.

فالشرق الأوسط وجنوب أفريقيا وايرلندا الشمالية هي صيحات عالية من الألم في جسد المسيح. وكذلك فضائح بعض القادة المسيحيين. والعالم الثالث الفقير. هل نستمع إليهم ونستجيب لهم؟ أم نصمت، ونتجاهل إشارات الألم، ونضحي بأحد أطراف جسد المسيح؟ وليست كل صيحات الألم تأتي من بعيد: فالبعض منها موجود في كل كنيسة ومكتب. العاطلون عن العمل، والمطلقون، والأرامل، والمرضى، والمشردون، المسنون هل نهتم بهم؟

وقد قامت الكنيسة المسيحية بعمل مختلط كجسد المسيح عبر الأجيال. أحياناً بدت وكأنها تبتلع نفسها (محاكم الهرطقات، الحروب الدينية). ومع ذلك، ففي التزامه بالحرية الإنسانية ما زال المسيح يعتمد علينا لكي نوصل محبته للعالم. وبالرغم من فشلها في كثير من الأحيان، تجاوبت الكنيسة جزئياً. ففي كل مدينة كبيرة في الولايات المتحدة، يمكنك أن تجد مستشفيات بأسماء مثل المستشفى اللوثري العام، مستشفى المسيح، مستشفى القديسة ماري، مستشفى السامري الصالح، المستشفى المعمداني. ومع أن هذه المستشفيات تدار بطريقة مدنية، فقد أسسها في الأصل مجموعة مؤمنين آمنوا بأن الشفاء جزء من دعوتهم كجسد المسيح.

وفي بلد مثل الهند، أقل من ٣٪ من السكان يدعون أنفسهم مسيحيين، ولكنهم مسئولون عن أكثر من ١٨٪ من الرعاية الصحية. فإذا ذكرت كلمة "مسيحي" لأي فلاح هندي - ربما لم يسمع إطلاقاً عن الرب يسوع - سيتبادر لذهنه فورا فكرة المستشفى أو سيارة الأسعاف التي تتوقف في قريته مرة كل شهر لتقدم رعاية طبية مجانية في اسم المسيح. وبالتأكيد ليس هذا هو الإنجيل كله، ولكنها خطوة جيدة لنبدأ بها.

وفي البلاد الغربية، تتولى قطاعات أخرى الكثير من جوانب الرعاية الصحية، ولكن ظهرت مشكلة جديدة في المدن الكبرى، وهي مشكلة المشردين. هل تستجيب مجتمعاتنا لصيحات الألم التي يُطلقها ملايين المشردين الذين يقضون الليل في الحدائق العامة، أو تحت كباري القطارات أو بجوار المواقد؟ ومرة أخرى، كانت الكنائس من بين أول من تجاوبوا مع هذه الظاهرة ونظموا مأوى ومطابخ لتقديم الطعام.

تلقيتُ خطاباً من امرأة في جراند رابيدز اختبرت اللمسة الشافية لجسد المسيح على نطاق صغير. كانت تخدم زوجها لمدة سبع سنوات، وقد كان موسيقياً مشهوراً بالكنيسة وأصيب بمرض ALS ومات. وفي الذكرى الأولى لوفاته، أرسلت أرملته خطاب شكر لأصدقائها بالكنيسة. وفيما يلي جزء من هذا الخطاب:

"منذ ظهور المرض على زوجي لمدة تزيد على ثماني سنوات، غمرتمونا بمحبتكم وتعضيدكم. وأدخلتم السرور لقلوبنا بالخطابات والبطاقات والتي اتسم بعضها بالمرح والعمق والدفء والرعاية ولكنها كانت ذات قيمة كبيرة لنا.

لقد اتصلتم بنا تليفونياً كما أنكم قمتم بزيارتنا رغم بعد المسافات.. وكثيرون منكم أعدوا وأحضروا طعاماً لذيذاً أنعش أرواحنا وأجسادنا. وتسوقتم الكثير من أجلنا وقضيتم الكثير من الأعمال التي

كنا نحتاج إليها وأصلحتم الكثير من الأشياء التي تعطلت أو كُسرت بينما ظلت حاجياتكم معطلة. نظفتم منزلنا وأحضرتم البريد لنا، وألقيتم الزبالة في مقلب النفايات. وسجلتم أسماءنا في سجل خدمات الكنيسة. وأحضرتم لنا هدايا تعبر عن محبتكم.

وقمتم بعلاج سنتي وأنا هنا بالمنزل. وعملتم أشياء بارعة سهلت حياتي أنا وزوجي مثل الجاكيت الواقي من السعال والمفتاح الذي يعمل بالإشارة والذي ساعد زوجي نورم واستخدمه حتى الأيام الأخيرة من عمره. وشاركتمونا قراءة الكتاب والصلاة أثناء زياراتكم المنتظمة لمنزلنا لكي تساعدوا نورم لعمل تدريبات التنفس. وقد شعر كما لو أنه ما زال عضوًا فعَّالا في خدمة فريق الموسيقى بالكنيسة.

وواصلتم صلواتكم من أجلنا يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر وسنة بعد الأخرى. ورفعتنا هذه الصلوات ونحن نجتاز هذه الظروف الصعبة، ومنحتنا قوة يصعب الحصول عليها من أي مصدر آخر وساعدتنا للوصول إلى مصدر نعمة الله. ويوماً ما سنعرف لماذا لم يحصل نورم على الشفاء الكامل هنا. ولكننا نعلم أنه ظل معنا لفترة طويلة رغم مرضه الخطير. وكلمة أحبكم لا تكفي لتعبر لكم عن مدى شكري ومحبتي لكم!

ويمكنني العودة إلى الجزء الرابع (كيف يمكن أن نحتمل الألم؟) لأوضح كيف أن ما فعله أصدقاء هذه الأرملة بالكنيسة - بطبيعتهم - هو كل ما يوصي به هذا الكتاب. لقد أصبح حضور الله بالنسبة لهذه المرأة أمرًا هامًا. وبسبب محبتهم واهتمامهم، لم تعصف بهذه الأرملة الشكوك فيما إذا كان الله يحبهم أم لا. وأحسست بمحبة الله من خلال اللمسة الإنسانية لجسد المسيح، كنيستها المحلية.

حمل الأثقال

استمع إلى شخص يفهم الولاء والوفاء لجسد المسيح: "من يضعف وأنا لا أضعف ومن يعثر وأنا لا ألتهب" (٢كو١١: ٢٩) "اذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم. والمذلين كأنكم أنتم أيضاً في الجسد" (عب١٣: ٣).

وكتب جون دون في نفس الموضوع ما يلي:

> الكنيسة الكاثوليكية، عالمية، ولهذا فكل ما تفعله يخص الجميع. فعندما تعمد طفلاً، فهذا أمر يهمني لأنه سيرتبط بالجسد الذي أنا عضو فيه. وعندما تدفن شخصاً، فالأمر يهمني فكل البشر هم خليقة الله ...
>
> فلا يوجد إنسان يستطيع أن يعيش في جزيرة منفصلة بل هو جزء من الكل. وإذا اكتسح البحر جزءًا من التربة أو نتوءًا أو قصر أحد أصدقائك، توفى شخصٌ ما، فإن هذا يُضعفني لأنني جزء من البشر ولهذا لا أعرف لمن تدق الأجراس، ربما تدق من أجلك".

يقول الكتاب "لنحتمل بعضنا أثقال بعض". إنه درس عن الألم يمكن أن نتفق عليه جميعنا. ولا يرى البعض منا أن الألم هبة من الله بل يهتم الله بالظلم لأنه سمح به. ولكن، الحقيقة هي أن الألم والمعاناة موجودان بيننا وعلينا أن نستجيب بطريقة ما. واستجابة يسوع كانت حمل أثقال من لمسهم. ولكي نعيش في العالم كجسد المسيح، يجب أن نتبع مثاله.

وترسم صورة الجسد بدقة كيف يعمل الله في العالم. في بعض الأحيان، يُجري معجزة وفي غالب الأحيان، يُعطي قوة غير عادية لمن يحتاجها. ولكنه يعتمد علينا بصورة رئيسية، - فنحن وكلاؤه - لكي نقوم بعمله في هذا العالم. ومطلوب منا كمؤمنين أن نحيا حياة المسيح في هذا العالم، وليس فقط أن نتحدث عنها ونصفها. نحن نعلن رسالته،

ونعمل من أجل العدالة، ونصلي من أجل الرحمة... ونعاني مع من يعانون.

مؤلف كتاب "ابكوا من أجل البلد المحبوب Cry the Beloved Country" وهو ألن بايتن من جنوب أفريقيا، اتخذ القديس فرنسيس الأسيسي كنموذج للمسيح في استجابته الإنسانية. وظهرت إحدى اللحظات التي حولت حياة فرنسيس برناردون عندما كان يركب حصانه وهو شاب يتبع طبقة النبلاء وصادف في الطريق رجلاً أبرص. ولم يكن يحب الله في ذلك الوقت، وشعر بنوع من الاشمئزاز نحو الرجل المريض. ولكن شيئًا ما بداخله تغلب على هذه المشاعر. ونزل من على حصانه واتجه نحو الرجل، واحتضن هذا الشحاذ وقبله في شفتيه.

وكان في إمكان القديس فرنسيس أن يلعن كلًا من الله والرجل الأبرص، هكذا يقول المؤلف بايتن. ولكنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك، كرس حياته ليكون أداة لسلام الله للآخرين. وهذا التغيير أفاده وأفاد الآخرين. وقال "ما كان يبدو لي مراً تحول إلى حلاوة في الجسد والروح معًا".

واستجابة القديس فرنسيس هي نفس الاستجابة التي أعطاها أليوشا لأخيه إيفان في قصة "الأخوة كارامازوف". ولم يستطع أن يُجيب على سؤاله ولا سؤال أخيه إيفان عن الألم. ولكنه اختار أن يضع نفسه بجوار الذين يعانون ويحتضنهم. ورسم الكاتب ديستوفسكي يسوع وهو يعطي نفس هذه الاستجابة لعدوه الذي حقق معه.

وإذا اتبعت الكنيسة هذا النموذج باجتهاد، وأجابت على أسئلة المعاناة ليس بالمجادلات بل بالحب، فربما لا نسمع مثل هذه الأسئلة مرة أخرى. ويمكن لقوة جسد المسيح المتحد معًا أن تكون قوة بالنيابة عن من يشعرون بالوحدة والمعاناة والحرمان. يمكن أن تكون كالشجرة التي ذكرها الإنجيل تلك التي تنمو وتأوي الطيور التي تصنع أعشاشها على فروعها.

وفي زياراتي للمستشفيات، تأثرت كثيراً بالفارق الكبير

بين مقياس الراحة الذي يمكن أن يقدمه المؤمنون ("نحن نصلي من أجلك") وغير المؤمن ("حظاً سعيداً") واليوم، إن كان يجب أن أجيب على السؤال "أين الله وقت الألم" في جملة واحدة، فسوف أحول هذه الجملة إلى سؤال آخر "أين الكنيسة وقت الألم؟" إننا نمثل الخط الأمامي وخط المواجهة للتعبير عن استجابة الله لعالم متألم.

"بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الأخوة. وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه. ياأولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق". (١يو٣: ١٦ - ١٨).

الحزنُ يَتلاشى

مثلما يذوب الجليد في شهر مايو،

كما لو أنه لم يكن هناك جليد على الإطلاق.

جورج هيربيرت، الوردة

٢٠

عالم جديد بالخارج

تقدم المسيحية للشخص الذي يعاني أهم مشاركة لمساعدته. وكما رأينا، فكل الكتاب المقدس، الذي يمثل ثلاثة آلاف عام من التاريخ والثقافة والدراما الإنسانية، يركز مثل عدسة مكبرة على صلب المسيح في الجلجثة. إنه حجر الزاوية في التاريخ. ولكن الموت ليس هو نهاية القصة.

فبعد ثلاثة أيام في قبر مظلم، قام يسوع حياً من الأموات. هل يمكن أن يحدث هذا؟ الأخبار مفرحة للغاية حتى أنها لم تُصدق. ولا حتى التلاميذ صدقوا الإشاعة إلى أن جاء يسوع بنفسه أمامهم ولمسوه بأيديهم. وقد وعدهم بأن يوماً ما سيكون لكل واحد منهم جسد للقيامة أيضاً.

إن القيامة والانتصار على الموت أعطى للغة كلمة جديدة عن الألم والمعاناة: "مؤقت". وقدّم الرب يسوع وعداً بحياة أبدية بلا ألم. فمهما شعرنا بحزن أو ألم الآن فلن يستمر.

ورجاء المؤمن الأخير هو رجاء في مستقبل بلا ألم مع الله. ومع ذلك، فالناس اليوم - باللدهشة - يرتبكون

ويتحيرون عندما يتحدثون عن الإيمان بحياة أبدية. فتبدو الفكرة وكأنها غريبة، وجبانة، ونوع من الهروب من مشاكل العالم.

ولدى المسلمين السود عادة جنائزية تعبر برمزية عن وجهة النظر الحديثة. فعندما يموت شخص، يأتي أفراد الأسرة والأصدقاء ويحيطون بالتابوت ويقفون في هدوء وهم ينظرون إلى الشخص الميت. لا دموع ولا زهور ولا أغاني. وتمر الأخوات المسلمات حاملات صواني صغيرة يأخذ منها كل واحد قطعة حلوى بالنعناع. وبإشارة معينة يضع كل منهم الحلوى في فمه، وبينما تذوب الحلوى ببطءٍ، يفكر الحاضرون في حلاوة الحياة التي يحيون ذكراها. وعندما تذوب الحلوى - ولهذا معنى أيضاً - فهي ترمز إلى نهاية الحياة.

وفي واقع الأمر، يتعامل معظم المحدثين مع الموت بتجنبه تماما. فنحن نخبئ ما يذكرنا به - مكان حفظ الجثث، وغرف العناية المركزة والمدافن - وراء حوائط عالية. ولكن عندما لا نستطيع تجنب الموت، تختلف الاستجابة الحديثة عن تلك التي للمسلمين السود. وتسرب إلينا نوع من الوثنية التي تدعونا لأن ننظر إلى الموت كآخر جانب من دائرة الحياة على الأرض، وليس كانتقال سريع إلى حياة أبدية. وحددت إليزابيث كوبلير روس خمس مراحل للإعداد للموت مع الإشارة الواضحة إلى أن المرحلة الأخيرة وهي "القبول" هي المناسبة. ومنذ ذلك الوقت، يحاول الأطباء مساعدة المرضى ليكافحوا نحو الكمال.

وأتذكر في إحدى الأمسيات التي قضيتها مع المجموعة التي سميتها سابقاً "Make Tody Count" أنَّ إمرأةً تُدعى دونا، وكانت في أيامها الأخيرة من مرض السرطان، ذكرت أنها تتعجل الوصول للسماء. وأثارت كلماتها استجابة غير لائقة من المجموعة: سكون طويل وعيون منزعجة. وعندئذ وجهت الأخصائية الاجتماعية الحديث عن كيف تستطيع دونا أن تتغلب على مخاوفها وتتقدم نحو مرحلة القبول.

فتركت الاجتماع بقلب حزين. فثقافتنا المادية تطلب من أعضائها بأن يتحدَّوْا مشاعرهم العميقة. فقد طرقت دون بقوة على أساس صخري للاهوت المسيحي. الموت هو عدو والعدو الأخير الذي يجب أن نقضي عليه. كيف يستطيع أعضاء مجموعة ترى كل شهر أجسادًا تتلف وتتدهور أمام أعينهم أن يطلبوا منها تحديًا للموت؟ وكنت أفكر في استجابة واحدة مناسبة لقبول دون للموت: "ويل لك أيها الموت!".

وبعد وقت قصير مما حدث صادفني اقتباس من بليز بسكال ، الذي عاش في فترة بدأ فيها المفكرون ينتقدون المعتقدات "البدائية" عن النفس والحياة الأبدية. وقال باسكال عن هؤلاء الناس:"هل يعترفون بأنهم يدخلون السرور إلينا عندما يقولون لنا أنَّ أرواحنا مجرد دخان قليل أو حفنة ريح، ويقولون ذلك بروح متعالية وبنغمة واثقة؟ هل هذا أمر يمكن أن نعبر عنه بفرح؟ إنه أمر يدعونا بأن نذكره بشئ من الحزن، فهو أكثر الأشياء حزناً في هذا العالم!.

إنه قلب للقيم يطلب منا أن نرضى بمعتقد باطل ونعتبره نوعًا من الشجاعة ونرفض رجاءً بأبدية سعيدة ونعتبره نوعًا من الجبن. كيف يمكن أن يكون الأمر نبيلاً عندما نوافق مع المسلمين السود، وأتباع المذهب المادي، والماركسيين والذين يقولون إن هذا العالم المملوء بالشر والمعاناة هو نهاية الإنسان؟ وظهرت مثل هذه الفكرة بعد ٧٠٠٠ سنة من التاريخ المسجل. وكل مجتمع بدائي معروف وكل ثقافة قديمة اشتملت على معتقدات في الحياة الآخرة.

وعلى النقيض من ذلك تماماً، يشير الكتاب المقدس إلى الحياة الآخرة بروح الفرح والتوقع وليس الحيرة أو الارتباك. إن العالم الذي نعيش فيه هو عالم الأنين، وينتظر المؤمنون المسيحيون عالماً سوف تمسح فيه كل دمعة.

إيمان القيامة

إن كل مالدينا فقط هو ظل أفكار عن حالة المستقبل الذي ينتظرنا، ونثق أننا سوف نمتلئ بالفرح عندئذ. إننا في غرفة مظلمة ومغلقة ولكن تخترقها أشعة من ضوء - الفضيلة، المجد، الجمال، الحب، بعض من الحقيقة والعدل - لتعرفنا أنه وراء هذه الحوائط يوجد عالم آخر يستحق أن نحتمل كل المعاناة التي نواجهها.

ولا يقدم لنا الإيمان المسيحي طريقًا سلميًا لكي نصل فيه إلى حل مع الموت. بل يقدم لنا طريقاً للتغلب على الموت. إن الرب يسوع هو رمز الحياة وقيامته تقنعنا بأن الله لم يرضِ "بدورة حياة" تنتهي بالموت. وقد وصل إلى آخر مدى لكسر هذه الدائرة.

في شهر أكتوبر من عام ١٩٨٨، مات واحد من أعز أصدقائي في حادث غرق في بحيرة ميتشجان. وفي ظهر هذا اليوم، كان صديقي بوب يقوم بآخر عملية غطس في البحيرة وكنت أنا جالسًا في كافيتريا جامعة أقرأ كتاب "My Quest for Beauty" الذي كتبه رولو ماي. ويخبرنا الكتاب عن بحث رولو الطويل عن الجمال، ومن بين الخبرات التي يسجلها زيارة إلى Mt. Athos، وهي شبه جزيرة في اليونان يسكنها الرهبان.

وبدأ رولو ماي يسترد صحته ويتعافى من انهيار عصبي عندما قام بزيارة Mt.Athos. ووصل إلى المكان في الوقت الذي كان يحتفل فيه الرهبان بعيد القيامة وهو مليء بالرمزية والكمال. وامتلأ المكان بالأيقونات والبخور. وأثناء العبادة أعطى الكاهن كل واحد ثلاث بيضات ملونة وملفوفة في قماش. وردَّد الجميع "المسيح قام" بمن فيهم رولو وأكملوا "بالحقيقة قام".

لم يكن رولو مؤمناً. ولكنه كتب ما يلي في كتابه: "سيطرت عليّ لحظة من الحقيقة الروحية: ماذا يعني للعالم إذا كان المسيح حقاً قام؟" وبعدما قرأت هذا الفصل من الكتاب،

رجعت إلى المنزل وقابلتني زوجتي التي أبلغتني بنبأ وفاة بوب. وتردد في ذهني عدة مرات سؤال Rollo في الأيام القليلة التالية: ماذا يعني للعالم إذا كان المسيح حقاً قام؟

وتحدثت في جنازة صديقي، وهناك سألت نفس السؤال ولكن بطريقة أخرى: ماذا يعني بالنسبة لنا إذا قام بوب من الأموات؟ وكنا نجلس في كنيسة صغيرة، نكاد نفقد الإحساس بكل شئ بعد ثلاثة أيام من الحزن. وتخيلت ماذا سيكون المنظر إذا مشيت بالخارج إلى موقف السيارات وهناك - لدهشتنا الشديدة - وجدنا بوب! بمشيته السريعة وابتسامته العريضة وعيونه الرمادية.

وأعطتني هذه الصورة الساحرة لمحة مما شعر به التلاميذ في أحد القيامة عندما شاهدو الرب يسوع فهم أيضاً حزنوا لمدة ثلاثة أيام. ولكنهم في يوم الأحد شاهدوا لمحة من لمحات المستقبل.

وبعيداً عن القيامة، والحياة، والحياة الأبدية، والبداية الجديدة، والأرض الجديدة، قد نحكم على الله بأنه قاس. والكتاب المقدس يراهن على سمعة الله بمدى قدرته على استرداد الخليقة لحالتها الأصلية من الكمال.

وأنا أيضاً أعترف بأنني اعتدتُ أن أشعر بنوع من الحيرة والارتباك عندما أتحدث عن السماء والحياة الآخرة. فتبدو كما لو كانت عكازاً. وكنتُ أعتقد أننا يجب أن نسير في العالم على أنه نهاية كل شئ. ولكنني تغيرت بمرور السنين وخاصة عندما كنت أرى الناس تموت. أي نوع من الآلهة ذلك الإله الذي يرضى للأبد بعالم مثل هذا الذي نعيش فيه مثقل بالمعاناة والموت؟ وإذا توقفت مرة وتأملت في حياة مثل حياة Bob التي قطعت - فجأة وتبخرت - بلا أمل في مستقبل، كنت أشك بأنني سوف أؤمن بمثل هذا الإله.

وفي جزء من العهد الجديد (١كو١٥) يعبر عن نفس هذا الفكر. وفيه يستعرض بولس أولاً حياته، حياة صعبة بما فيها السجن، والضربات، وتحطم السفن، ومحاربة أناس طباعهم قسوة الوحوش. ثم يقول إنه سوف يكون مجنوناً

لو استمر في مثل هذه الحياة التي تنتهي بموته. "لو كان رجاؤنا في المسيح في هذا العالم فقط لكنا أشقى جميع الناس". ومع بولس، أنا أراهن رجائي بالقيامة، عندما يسوع "سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء". (أف٣: ٢١).

المنزل الأبدي

كتب مرة المؤلف واللاهوتي الإسكتلندي جورج ماكدونالد خطاب تعزية إلى زوجة أبيه بعد وفاة إحدى صديقاتها المقربين: "لن يدع الله الموت لأن يكون شريعة الكون الذي خلقه، ولو كان كذلك، فكيف يبدو الأمر لنا. ونحن الذين سنخبر العالم ماهو الموت من منظور واحد (المسيح) واجهه ولكنه قام من الأموات".

إن المساعدة الحقيقية التي يمكن أن يقدمها هذا الاعتقاد للشخص الذي سيموت رُسمت في فيلم تسجيلي بعنوان "Dying" وعُرض للجمهور. وكان المنتج ويدعى مايكل روينيه قد حصل على تصريح بتتبع حياة العديد من مرضى السرطان في الشهور الأخيرة من حياتهم. وقال بعد تصوير الفيلم: "يموت الناس بنفس الطريقة التي يحيون بها. ويُصبح الموت تعبيراً عن الشخص نفسه، وبإمكانك أن تُحضر للموت فقط ما أحضرته لحياتك". وتُظهر عائلتين بولاية بوسطن قمة كلٌ من اليأس والرجاء.

نرى هوكريت و بيل - في الثالثة والثلاثين من العمر - يعانيان من فشل عصبي. وفي أحد المناظر بالفيلم نرى هوكريت منزعجة على مستقبلها لأنها ستصبح أرملة بعد وفاته ومعها ابنان، تنظر إلى زوجها وهو يحتضر وتقول له: "كلما طالت فترة آلامك كلما كان له الأثر السيئ علينا جميعاً".

فيتساءل الزوج بيل: "ما الذي حدث لزوجتي الجميلة التي تزوجتها؟" ثم تتحول الزوجة هوكريت إلى المذيع

وتقول: "لقد تعذبت الفتاة الجميلة بسرطانه. فمن الذي سيرضى أن يتزوج أرملة لها طفلان في الثامنة والعاشرة من عمرهما؟ ما كنت أريده أن يموت، ولكن إذا كان لابد وأن يموت فلماذا لا يموت الآن؟"

وفي الأسابيع الأخيرة من حياتهما معًا، تمزقت هذه الأسرة لأنها لم تتمكن من احتمال ما حدث. وكانوا يئنون ويصيحون ويهاجمون بعضهم بعضاً وحطموا كل ما تبقى من حب وثقة. وبدا شبح الموت كبيراً للغاية.

أما استجابة القس براينت - في السادسة والخمسين من عمره - الذي قارب الموت وقد كان قسيسا للكنيسة المعمدانية، كانت استجابته على النقيض ومدهشة للغاية. قال: "إنني الآن أعيش أعظم لحظات عمري، ولا أعتقد أن روكفلر يتمتع بسعادتي الآن".

وسجل فريق التصوير القس براينت وهو يعظ عن الموت لكنيسته، وهو يقرأ الكتاب المقدس لأحفاده، وهو يقوم برحلة للجنوب لزيارة المكان الذي ولد فيه. وظهر على وجهه الهدوء والثقة بأنه راجع إلى بيته الأبدي، مكان لا ألم فيه. وفي جنازته، رنم فريق الترنيم "إنه نائم". ومر الناس على النعش وهم يمسكون يده أو يربتون على كتفه. فقد فقدوا صديقاً حميماً ولكن إلى لحظة. إنهم يؤمنون أن القس براينت أصدقها تماماً وقد أكدتها زوجتي التي كانت تعمل بين المسنين في شيكاغو. نصفهم من البيض والنصف الآخر من السود. وكلهم - في السبعينات والثمانينات من العمر - متنبهون للموت. ومع ذلك لاحظت زوجتي جانيت فرقاً كبيراً في الطريقة التي يواجه بها البيض الموت عن السود.

فكثيرون من البيض يشعرون بالخوف والتوتر. ويشتكون من حياتهم وأسرهم وصحتهم المتدهورة. وعلى النقيض، يحتفظ السود بروح المرح والانتصار بالرغم من أن لديهم من الأسباب ما يدعو للمرارة واليأس. (معظمهم عاش في الجنوب في جيل واحد بعد العبودية وعانوا طوال حياتهم

من الظلم وسوء الحالة الاقتصادية. وأصبح كثيرون منهم مواطنين مميزين بتطبيق أول وثيقة للحقوق المدنية).

ما الذي يُحدث هذا الفرق في وجهة نظرهم؟ توصلت جانيت إلى الإجابة إنه الرجاء، رجاء إيمانهم بالسماء. وكانوا يقولون: "هذا العالم ليس هو وطني بل طريق مرور للأبدية". هذه الكلمات وغيرها صرّحوا بها أثناء فترة مأساوية من التاريخ، عندما كان كل شيء في هذا العالم يبدو كئيباً. ورغم ذلك، تمكنت كنائس السود من أن تغرس الإيمان العميق في قلوبهم بالمنزل الأبدي.

وإن أردت أن تسمع كلمات حديثة عن السماء فلتحضر جنازات موتى السود. وفيها يصور القساوسة بكلمات صافية ورائعة عن الحياة في الأبدية، حتى أن كل شخص يحضر الجنازة يتمنى الذهاب إلى هناك. نعم يشعر الحزانى بالحزن وهذا أمر طبيعي، ولكن في مكانه الصحيح: فهو إعاقة مؤقتة في معركة قد حسمت.

ومن الخطأ - طبعاً - أن نستخدم السماء كعذر لتجنب محاولات التخفيف من الفقر والبؤس هنا على الأرض. ومن الخطأ أن ننكر الرجاء الأكيد بالسماء لشخص مؤمن انتهت حياته.

قدم واحدة في الهواء

إن الاعتقاد بالبيت الأبدي يجب أن يكون له أثرٌ قوى من الطريقة التي نموت بها؟ بل ويجب أيضاً أن يؤثر على أسلوب حياتنا.

تقدمت إحدى السيدات التي كانت تعاني من متاعب كبر السن إلى جي. روبيرتسون - الرئيس السابق بكلية اللاهوت في كولومبيا - وكان جسمها في غاية الضعف وتعاني من التجاعيد. ولم تتمكن من عمل الأشياء التي كانت تمارسها من قبل، وشعرت بأنها أصبحت عبئاً على الآخرين وتساءلت: "لماذا يدعنا الله نكبر في السن ونضعف؟ ولماذا أتألم هكذا؟".

وبعد لحظات من التفكير، جاءت إجابتها جي. روبيرتسون: "أعتقد أن الله خطط قوة وجمال الشباب ليكون جسدياً. ولكن قوة وجمال كبار السن تأتيان في جمال الروح. ونحن نفقد القوة والجمال المؤقت لكي نتأكد من التركيز على القوة والجمال الذي سيستمر للأبد. ونحن نشتاق أن نترك خلفنا ماهو مؤقت، ونشعر بالحنين لبيتنا الأبدى. فإذا استمر شبابنا وقوتنا وجمالنا، قد لا نريد أن نترك العالم!".

ولو كان هناك سر للتعامل مع المعاناة، لكان أحق الناس به هم الذين أجريت معهم الأحاديث في هذا الكتاب. ولكي تعيش الروح، يجب أن تتغذى لكي تتحرر من قيود الجسد. ولا يقدم الإيمان المسيحي دائماً مصادر للجسد. فلم يُشف كل من جوني أريكسون أو براين ستروبيرج بالرغم من آلاف الصلوات التي رُفعت من أجلهم. ومع ذلك، فقد وعد الله بأن يُنعش الروح التي سترتبط يوماً ما بالجسد الممجد. سوف يقفز براين مرة أخرى كالأيائل كما يقول ملاخي، وسوف تقف جوني على قدميها وترقص.

قال الرب يسوع لتلاميذه "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن لا يمكنهم أن يقتلوا الروح" لأن الموت الجسدي ليس هو النهاية ولا يجب أن نخشاه. ولكن لأنه عدو الحياة، فإننا نقدم الترحيب به.

وباختصار، لأننا نؤمن ببيتنا الأبدي، يجب على المؤمنين أن يكونوا واقعيين فيما يختص بالموت دون أن نكون يائسين. نعم، الموت هو عدو ولكنه عدو مهزوم. قال مارتن لوثر لأتباعه: "حتى ونحن نتمتع بأفضل صحة، يجب أن يكون الموت أمام عيوننا دائماً حتى لا نتوقع بقاءنا على هذه الأرض للأبد، وليكن لنا قدم في الهواء".

وفكرة أن يكون لنا قدم في الهواء تُعطينا منظوراً جديداً لمشاكل الألم والمعاناة. وأية مناقشة عن المعاناة تكون ناقصة بدون النظر إلى أفضلية الأبدية.

المُناظِر الماهر يمكن أن يدافع عن الألم على أنه شيء صالح، وأفضل من أي بديل آخر يمكن أن يسمح به الله.

ربما. ولكن كل من الألم والمعاناة هما نصف الصورة فقط.

كيف يمكن أن نتخيل الأبدية. إنها أطول بكثير جداً من حياتنا القصيرة هنا حتى أنه يصعب علينا أن نتخيلها. يمكنك أن تذهب إلى سبورة طولها عشرة أقدام وترسم خطاً من بدايتها حتى نهايتها. ثم ضع نقطة طولها بوصة واحدة على هذا الخط. وستبدو هذه النقطة ضخمة جداً من عدسة الميكروسكوب. وسوف تقضي الخلية طول حياتها في اكتشاف النقطة. ولكن أنت - يا إنسان - إن حاولت أن ترجع للوراء لترى السبورة، فلسوف تندهش من ضخامة الخط الذي طوله عشرة أقدام بمقارنته بالنقطة الصغيرة والخلية الجرثومية العائدة إلى المنزل.

وتقارن الأبدية بالنسبة للحياة بنفس الطريقة. وسبعون عاماً وقت طويل للغاية بالنسبة لنا لكي نمزج الكثير من النظريات عن الله ولماذا يبدو وفي بعض الأحيان محايداً أمام المعاناة الإنسانية. ولكن هل من العدل أن نحكم على الله وخطته للمستقبل بفترة قصيرة من الزمن نقضيها على الأرض؟ وليس من العدل أيضاً لتلك الخلية الجرثومية أن تحكم على سبورة كاملة بخط صغير من الطباشير تقضي عليه حياتها.

هل فقدنا المنظور عن الكون والسرمدية؟ هل نشكو من الحياة على الأرض، إذا سمح الله بمجرد ساعة من المعاناة في حياة مدتها سبعون عاماً من الراحة؟ والآن، حياتنا هنا على الأرض نعم بها معاناة، ولكن العمر كله هنا يمثل مجرد ساعة في الأبدية. وقد عبرت عن ذلك القديسة تريزا فيلا فقالت: إذا نظرنا من السماء إلى الحياة الأرضية البائسة التي عشناها فسوف تبدو مثل ليلة سيئة واحدة في فندق غير مريح.

وفي مخطط المؤمن للأمور، سيظهر أن هذا العالم وكل العمر الذي قضيناه فيه ليسا هما كل ما هنالك. فالأرض هي الاختبار، نقطة في الأبدية، وإن تكن نقطة هامة، لأن

يسوع قال إن مصيرنا يعتمد على مدى طاعتنا هنا. وفي المرة التالية، وأنت تريد أن تصيح في وجه الله في يأس وكرب، لتلومه بسبب عالم بائس، تذكر: أنه أقل من جزء من المليون من الحقيقة قد عُرض وأن هذا الجزء من المليون ظل حيًّا تحت راية التمرد.

ولكي ترى دور المعاناة والألم بطريقة صحيحة، يجب على الإنسان أن ينتظر حتى يعرف القصة بكاملها. وكل مواعيدها موجودة في الكتاب المقدس: "وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع بعد ما تألم يسيراً هو يكملكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم" (١بط ٥: ١٠). "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشيء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديٍّ ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا تُرى. لأن التي تُرى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية". (٢ كو٤: ١٧ - ١٨).

كنت دائماً مُحباً للاستطلاع بخصوص بعض التفاصيل التي يتغاضى عنها كثيرون في نهاية سفر أيوب الذي يعتبر قصة عظيمة عن المعاناة الإنسانية. وسجل كاتب السفر أن الله كافأ أيوب بضعف ما فقده أثناء تجربته: ١٤٠٠٠ من الغنم بدلاً من ٧٠٠٠، ٦٠٠٠ جمل بدلاً من ٣٠٠٠، ١٠٠٠ ثور بدلاً من ٥٠٠. ولكن هناك استثناء واحد: كان لأيوب قَبل التجربة سبعة أولاد وثلاث بنات وأعطاه الله نفس العدد في النهاية وليس الضعف. هل كان كاتب السفر يُلمِّح في سكون عن المنظور الأبدي؟ وبهذه النظرة، حصل أيوب في الحقيقة على الضعف، عشرة أولاد جدد هنا سوف يذهبون معه إلى السماء ويلحقون بإخوتهم الذين سبقوهم إلى هناك.

الموت والميلاد

تعبير ساخر: الموت، الحادث الذي يسبب أعظم الآلام عاطفية، هو في الحقيقة يفتح مدخلاً إلى الأفراح العظيمة في الأبدية. وفي حديثه عن موته، استخدم الرب يسوع تشبيه المرأة التي ستلد: إنها تواصل عملها حتى لحظة

الولادة، وفجأة يحل الفرح محل الحزن والألم (يوحنا ١٦: ٢١).

الموت مثل الميلاد - تشبيه عميق. تخيل الميلاد من منظور الجنين.

عالمك مظلم، وآمن ومصون. يحيط بك سائل دافئ ومريح. أنت لا تفعل شيئاً لنفسك. وتحصل على الغذاء بطريقة أوتوماتيكية، وتشعر بقلب ينبض يؤكد لك أنه يوجد شخص ما أكبر منك قادر على تسديد كل احتياجاتك. كل دورك في الحياة هو الانتظار، ولستَ متأكداً ما الذي تنتظره، ولكن أي تغيير يبدو بعيدًا ومخيفاً. إنك لا تواجه أية أشياء حادة، ولا ألمًا، ولا مخاطر. وجود جميل وهادئ.

وفي أحد الأيام تشعر بشدة قوية. وتضغط الحوائط من حولك وتضغطك إلى أسفل. وينحني جسمك وتلتوي أطرافك. وتسقط رأساً على عقب. ولأول مرة في حياتك تشعر بالألم. وأنت الآن في بحر من الإزعاج. ويزداد الضغط حتى يصعب احتماله. ويُضغط على رأسك ويدفعونك إلى نفق مظلم. ياه ... ياللألم. ضوضاء. مزيد من الضغط.

وتشعر بالألم في كل جسدك. وتسمع صوت أنين إنه أنين أمّك وينتابك نوع من الخوف. إن عالمك ينهار. وتتأكد أنها النهاية. وترى ضوءًا شديدًا. وتُمسك بك أيادي باردة وخشنة وتسحبك من النفق وتقلبك رأساً على عقب. ثم تصيبك صفعة مؤلمة. يتبعها بكاؤك.

تهانينا ... لقد وُلدت

وهكذا الموت. ففي نهاية قناة الميلاد هذه - التي تبدو مروعة - وكنفق مظلم نُدفع بقوة لا تقاوم. ولا ينظر أحد منا للأمام نحوها، بل نشعر بالخوف. إنها مملوءة بالضغط والألم والظلام... والمجهول.

ولكن خلف هذا الألم والظلام، يوجد عالم جديد بالخارج. وعندما نستيقظ بعد الموت في هذا العالم الجديد النوراني، سوف تصبح دموعنا وجروحنا مجرد ذكريات.

هل اعتقدت مرة أن الله لا يسمع؟ وأن صيحات ألمك تضيع في الهواء؟ الله ليس بأصم. هو حزين مثلك تماماً بالأزمات التي تحدث في العالم. وتذكر أن ابن الله مات هنا في هذا العالم. دع التاريخ يأتي لنهايته. ودع السيمفونية البشرية تعزف آخر لحن نشاذ فيها قبل أن تتحول إلى ترنيمة. وكما قال بولس: "إن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا. وكل الخليقة في شوق ولهفة لرؤية المنظر الرائع لأولاد الله وهم قادمون إلى بيتهم الأبدي ... "فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معًا إلى الآن. وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" (رومية٨: ١٨ - ١٩/ ٢٢ - ٢٣).

وإذا نظرنا للوراء - ونحن في الأبدية - إلى تاريخ كوكب الأرض، فسوف نتأثر كثيراً ليس فقط بأهميته بل بصغره. وسوف نرى التدمير الكامل لكل المجموعة الشمسية، كما لو كان عود ثقاب به إضاءة خافتة من على بعد ثم ينفجر في ظلمة دائمة. ومع ذلك، فمن أجل عود الثقاب المحترق هذا (كوكب الأرض)، ضحى الله بذاته (في المسيح).

ويمكن النظر إلى الألم، كما قال عنه بيركووير، الأبدية التي لم تأت بعد. إنه يُذكرنا بما نحن فيه الآن، ويُوجد فينا عطش لما سيكون مستقبلاً. وأنا أؤمن وأثق أن كل خدش وكل خلية سرطانية وكل حيرة وكل جرح سوف يوضع في مكانه الصحيح وكل اللحظات الحزينة سوف تتبدل أفراحًا في النهاية.

قال أيوب وهو في قمة معاناته:

"ليت كلماتي الآن تكتب. ياليتها رسمت في سفر. ونقرت إلى الأبد في الصخر بقلم حديد وبرصاص. أما أنا فقد علمت أن وليّي حيّ والآخر على الأرض يقوم. وبعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله" (أيوب١٩: ٢٣- ٢٦).

أين الله في وقت الألم؟

لفترة طويلة من حياتي، شاركت منظور أولئك الذين كانوا يشجبون الله لسماحه للألم. واقتربت مني المعاناة وضغط عليّ بشدة. ولم أجد طريقة لفهم ما يحدث في العالم من كوارث.

وعندما قمت بزيارة أناس فاقت آلامهم آلامي، ومع ذلك، اندهشتُ بمدى آثاره عليهم. وكان يبدو وكما لو أن المعاناة تؤكد إيمانهم. وعندما زرت مرضى البرص - على وجه الخصوص - أدركت القيمة الحقيقية من وراء الألم.

ولن يكون هناك حل لمشكلة الألم إلى أن يُعيد الله خلق الأرض. إن الإيمان يساند هذا الرجاء بداخلي. وإن لم أؤمن بحقيقة أن الله هو طبيب وليس سادياً، وأنه كما قال عنه جورج ماكدونالد "يشعر في ذاته بعذاب كل عصب يحتاج إلى راحة "فسوف أتخلى عن كل المحاولات لمعرفة أسرار وغموض المعاناة.

وانتهى غضبي تجاه الألم لسبب واحد: لقد عرفت الله. لقد أعطاني الفرح والحب والسعادة والصلاح. لقد تمتعتُ بكل ذلك على غير توقع وسط اضطرابي في عالم ناقص، ولكنها كانت كافية لتقنعني أن الله يستحق ثقتي فيه. فمعرفته تستحق احتمال كل شيء وأي شيء.

وما أثر ذلك عليّ عندما أقف في المستشفى بجوار سرير صديق عزيز مريض بمرض خطير؟ لقد بدأت هذا البحث وأنا بجوار مثل هذا السرير. وملأني الإيمان بشخص الله، إيمان قوي لا تهزه المعاناة والألم.

أين الله في وقت الألم؟

إنه هناك منذ البداية، يخطط لنظام ألم - حتى ونحن وسط عالم ساقط - ما زال يحمل ختم سجيته ويُساندنا على الحياة في هذه الأرض.

إنه يحول الألم مستخدماً إياه ليعلمنا ويقوينا، إذا سمحنا

لهذا الألم أن يوجهنا ويعيدنا إلى الله.

وبتحفظ شديد، يراقب هذا الكوكب المتمرد، وفي رحمته، يسمح للجنس البشري ليستمر في حياته طبقاً للطريقة التي رسمها كل شخص لذاته.

إنه يتركنا نصيح، كما فعل أيوب، في غضب ضده، ونلومه من أجل عالم نحن الذين أفسدناه.

إنه يتحالف مع الفقراء والذين يعانون، ويؤسس لهم مملكة. إنه يتنازل لكي يهزم. وهو يعد بمعونة غير عادية لينعش الروح، حتى وإن استمرت آلامنا.

لقد ارتبط بنا. وجرح ونزف وصاح وعانى. أحب واحترم وشرف الذين يعانون بمشاركتهم في آلامهم.

هو معنا الآن، يخدمنا من خلال روحه فينا ومن خلال أعضاء جسده التي أمرها باحتمالنا وإراحة آلامنا من أجل الرأس الذي هو المسيح.

إنه ينتظر ليجمع جيوش البر والصلاح. ويوماً ما سوف يطلقهم، وسيرى العالم لحظة أخيرة مرعبة من المعاناه قبل حدوث الإنتصار الكامل. ثم يخلق الله لنا عالماً جديداً. ولن يكون هناك ألم فيما بعد.

> "هوذا سر أقوله لكم. لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير. في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير. فإنه سيبوق. فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير. لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت. ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد وهذا المائت عدم موت فحينئذٍ تصير الكلمة المكتوبة إبتُلِعَ الموت إلى غلبة"
>
> "أين شوكتك ياموت؟
>
> أين غلبتك ياهاوية؟
>
> (١كو١٥: ٥١ - ٥٥).